Gems Brant

عيون ترصد الأكراد والأرمن والعثمانيين

رحلات جيمس برانت
إلى المناطق الكردية والأرمنية

ترجمة وتقديم : د. أحمد عبد الوهاب الشرقاوى - محمد علي ثابت

دار البشير

عيون ترصد الأكراد والأرمن العثمانيين

رحلة جيمس برانت إلى المناطق الكردية والأرمنية

الطبعة الأولى
1441هـ
2020م

اسم الكتاب:	عيون ترصد الأكراد والأرمن العثمانيين
التأليف:	جيمس برانت
ترجمة وتقديم:	د. أحمد عبدالوهاب الشرقاوي - أ. محمد علي ثابت
المراجعة اللغوية:	عبد القادر أمين
موضوع الكتاب:	أدب الرحلات
عدد الصفحات:	**228** صفحة
عدد الملازم	**14.25** ملزمة
مقاس الكتاب:	**24x17**
عدد الطبعات:	الطبعة الأولى
رقم الإيداع:	**2017/25114**
الترقيم الدولي:	**978-977-278-777-7**

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

المركزُ الثقافيّ الآسيوي

مشروعُ الرّحلات

(٢)

عيون ترصد الأكراد والأرمن العثمانيين

رحلة جيمس برانت إلى المناطق الكردية والأرمنية

ترجمة وتقديم

الدكتور/ أحمد عبد الوهاب الشرقاوي   أ. محمد علي ثابت

دار البشير للثقافة والعلوم

إهداء

إلى أسرتي الجميلة

محمد ثابت

مشروعُ الرّحلات

الرّحلة هي متعةُ التّاريخ وتاريخُ المتعة، والرحلة هي لذّةُ المشقّة، وعين الجغرافيا، ومنظارُ الفلك، ومسبارُ الأنثروبولوجيا، وجسرُ الخبرات بين الأمم، وهمزة الوصْل بين الشّعوب، والرحلةُ هي سفير السّلطان، ووثيقةُ المؤرّخ ومكتبة العالم وحنكةُ السياسي ورافدُ الأديب الذي لا ينضب.

ويكأنّ الإنسان مخلوقٌ رحّالة، من عصر إلى عصر، ومن مرحلةٍ إلى أخرى، يعيش حياته متنقّلًا عبْر الزّمان والمكان، يرتادُ الآفاق، ويخترقُ الأعماق، ما بين إسراءٍ بالجسد، ومعراجٍ بالرّوح، وسياحةٍ بالعقل.

ولا أظنّني مبالغًا فيما وصفت؛ فقد بدأتِ الرّحلة منذ برهةٍ وجيزة تعود لتكشف عن أهميّتها في المجال البحثي الأكاديمي، وترتقي مرّةً أخرى مكانتُها التي تبوّأتها من قبْل كإحدى رائداتِ العلم؛ مصدرًا ومنهاجًا.

فالرحلةُ تمنح الباحثَ في التّاريخ والجغرافيا والسّياسة والاقتصاد والأنثروبولوجي والآثار... وغيرها من مجالات العلم، تمنحُهم مصدرًا ثريًّا وواقعيًّا نابضًا بالحياة، بعيدًا عن رتابة كتب الوقائع، وملل كتب الحوليّات، وجفاف كتب التّاريخ الرسمي، ونفاقِ المؤرّخين المكلّفين، وجمودِ جامعي الأخبار وناقلي الروايات.

الرّحلة– إذا أحسنَ القارئ قراءتها والكاتبُ تدوينها– تصيرُ حياة ثلاثيّةَ الأبعاد يحياها القارئ والمستمع، فتعطيه العلمَ مع المتعة، والخبرةَ مع المعايشة، والدقّةَ مع الواقعية، والعمقَ مع الثّراء.

ويبدو الآن الاتّجاهُ قويًّا لدى الباحثين والمحقّقين في الاعتماد على كتب الرّحلات، سواء العناية بتحقيقها وإخراجها من مظانّها، وسواء بالاعتماد عليها كمصدرٍ أكاديمي،

وهو ما يُعطي قفزةً نوعيّة في البحث العلمي، شريطة الانتخاب الواعي والاستشهاد الممحّص، والاستنتاج المنطقي، والنّظرة الفاحصة، والاستقراء المتأنّي المتدرّج، الذي يصفّ الجزئيات بعضًا إلى بعض، فيرسم منها لوحة فُسيفساء، ولا يفعل العكس، فيعمدُ إلى اختلاق التّعميمات من الأحداث الجزئية، ولا يعتمدُ على الغثّ في إدامه، ولا الهزيل في طعامه.

وعلى قدر ما تحملُ الرّحلة من أهمية، لا تخلو أيضًا من زلّات، قد تكثر فتصبح مضلّلات، إذ نرى بعضَ الرّحالة يأتي إلى قطر غريب عن مشاربه، وهو يحملُ في جُعبته خلفيّته الثّقافية والعقائدية، محبًّا أوْ كارهًا، عميق الثقافة أو ضحْلها، فاحصَ النّظرة أو سريعَ الانفعال، متقلّبَ الآراء والأحوال، بل ترى البعض يكذب مدّعيًا أنّه رأى ما لم يره الآخرون، واطّلع من الأسرار على ما لم يستطعْه غيره، فيستجلبُ إعجابَ القارئ والمستمعِ على حساب الحقيقة والواقع.

لكنْ بين أهمّية الرّحلة وخطورتها، يقف الباحث المدقّق صاحبُ النظرة الفاحصة، فيستشفّ الحقائق، ويستنبط الأسرار، ويستنتجُ ما وراء الأحداث، ويقرأ ما بين السّطور.

ونحن في «**المركز الثّقافي الآسيوي**» نحاول من خلال «**مشروع الرحلات**» أنْ نقدّم مجموعةً منها في شتّى المناطق والعهود لتغطية أكبر مساحة ممكنة في الزمان والمكان لتكون حلقاتٍ مسلسلةً في التاريخ، وخبراتٍ متوارثةً في الجغرافيا، ومعلوماتٍ متراكمةً في غيرها من العلوم، ومنبعًا ثريًّا وغيرَ تقليديّ في البحث العلمي..

ومن خلال هذا المشروع نفتح البابَ للتعاون مع الباحثين والمحقّقين والمترجمين للتّواصل والتّعاون؛ كي نسهمَ- جميعًا- في السّعي نحْو خطوة جديدة في طريق التّقدم.

واللهُ وليّ التوفيق.

العنوان الأصلي للكتاب

Notes of a Journey Through a Part of Kurdistán

in the Summer of 1838

James Brant، A. G. Glascott

Journal of the Royal Geographical Society of London،

Vol. 10، (1840)، pp. 341-434

ملاحظات حول رحلة عبر جزء من
كردستان في صيف عام ١٨٣٨

جيمس برانت سكواير

المقدّمة

ليس من السّهل على الإنسان أن يكون محايدًا، خاصّة إذا كان في مهمّة رسميّة لصالح وطنه، ومن الصّعب- أيضًا- على الإنسان أن ينحّي جانبًا شخصيته وموضوعيته حتّى لو كان يمثّل دولة استعمارية، وهو ما يتّضح بجلاء في ملاحظات مستر جميس برانت القنصل البريطاني في العراق عن رحلته إلى المناطق الكردية والأرمنية. هذه الملاحظات التي عكستْ كثيرًا من ملامح شخصيته، وشخصية بريطانيا الإمبريالية.

إنّها الشخصيّة الإنجليزية ربيبةُ الإمبراطورية البريطانية، والتي ظلت تدرس منطقةَ العراق والخليج أكثرَ من قرن؛ لتستعمرها أقلّ من قرن.

فهو يتجوّل في العراق العثماني، ويتوغّل شمالًا إلى الأناضول ليزور المناطق الكرديّة والأرمينيّة في هذه المنطقة شديدة الوعورة بجبالها وشديدة الخطورة بكردها وتمرّدهم، ولا يعطينا أيّ أسباب لهذه الجولة أو الرّحلة، فالرّجل ليس برحالة ولا مُستكشف ولا عالم أنثروبولجي أو جغرافي يتبع الجمعيةَ الجغرافية الملكية في لندن، والتي دعّمت الكثيرَ من الرّحلات الاستكشافية إلى المنطقة الاستراتيجية في طريق الهند كبرى مستعمرات بريطانيا في الشرق.

ولكنّ الدبلوماسيّين الإنجليز في أخريات الدّولة العثمانية كانت مهامّهم الأولى- إنْ لم تكن جلّ مهامّهم- هي جمعَ المعلومات الاستخباراتية عن الدولة المتداعية- العثمانية- كتمهيدٍ علميّ لتأمين خطّة بريطانيا الاستراتيجية في السيطرة عليها، وفرض نفوذها على المراكز المهمّة فيها.

الشّخصيات التي اصطحبها معه جيمس برانت، والباروميتر الذي يحدّد الارتفاع عن سطح البحر، والمعلومات الطّبوغرافية الكثيرة عن الطرق ومظاهر السّطح والمناخ، والمعلومات الأنثروبولوجيّة عن السّكان وعاداتهم وتقاليدهم، كذلك استطلاع الرّأي الذي حاول جمعَه من السّكان بكافّة طوائفهم، ورؤساء العشائر، ومسئولي القبائل عن موقفهم من الإدارة العثمانية.

كلّ ذلك يظهر لنا طبيعة المهمّة المسندَة إلى القنصل جيمس برانت.

مرافقا الرحلة: آدم كيفورد جلاسكوت، ضابط في القوات البحرية الملكية؛ الدكتور إدوارد دالزيل ديكسون، طبيب جراح.

بداية الرحلة: مدينة أرضروم، ٢٦ حزيران ١٨٣٨م.

طريقُ الرّحلة: أرضروم، وان، موش، بايزيد، والعودة.

نهايةُ الرحلة: ١٩ أيلول ١٨٣٨م.

وقد نُشرت الرحلة في:

Journal of the Royal Geographical Society of London، Vol. 10، (1840)، pp. 341434-

مجلّة الجمعيّة الجغرافية الملكيّة في لندن، المجلد. ١٠، (١٨٤٠)، ص ٣٤١-٤٣٤.

تحت بعنوان:

Notes of a Journey Through a Part of Kurdistán in the Summer of 1838

James Brant، A. G. Glascott

وبعدَ هذه المعلومات الأوليّة عن الرحلة، نورد فيما يلي بعض الملاحظات المبدئيّة حول ملاحظات جيمس برانت؛ لعلّها تكون دليلًا للقارئ، والباحث، ليستكشفَ ما وراء الكتابة، ويقرأ ما بين السطور.

في معظم الأحيان كان يصحب المؤلف ورفاقه في الرّحلة مجموعةٌ من الحرّاس لتوصيلهم إلى المحطّة أو القرية التالية، إمّا للحرّاسة من تعديات الخارجين على القانون، وإمّا للمساعدة في المرور من المناطق الوعرة، وتيسير أعباء السفر، وفي كلّ الحالات إكرامًا لوفادتهم كنوع من واجبات الضيافة.

يكرّر المؤلف شكوى أو تعجّبًا ردّده الكثير من الرحالة، وهو وفرة الأراضي الزّراعية التي ينقصها كثيرًا الأيدي العاملة لاستثمارها، ويلمح إلى أنّ نظام تملّك الأراضي في الدّولة العثمانية يقضي بأنّ كلّ شخص يمكنه استغلال واستزراع أي بقعة خالية دون أيّ حقّ أو شراء أو إيجار، عدا ضريبة تعادل عشر قيمة المحاصيل، بل إنّ التربة خصبة جدًّا في بعض المناطق، وإنّ البذور تنتج حوالي ١٢ ضعفًا ممّا يتمّ بذْره، خاصّة في سهل باسين، كما أنّ أهالي بعض هذه القرى معفوْن من السّاليانه، وكذلك من الخدمة العسكرية، وبعض القرى موقوفة لأعمال الخير، ويديرها أحدُ الدّراويش من المتصوفة.

لا يعرف المؤلّف الكثيرَ عن المصطلحات العثمانية المستخدمة في الحكم والإدارة، حيث يشيرُ مثلًا إلى أنّ الإدارة الرئيسية لمنطقة باسين موجودة في حسن قلعة التّابعة لولاية أرضروم، وتضمّ هذه «الدوقية» ١٢٠ قرية. ويكرّر استخدام لفظة دوقيّة في التّقسيمات الإدارية الكبيرة في المنطقة، ولا يستخدم التقسيمات العثمانية مثل سنجق أو متصرفيّة، أو غيرها من المصطلحات الشائعة حينئذ.

أشارَ المؤلّف– من خلال المصادر السّمعية المحلية– إلى لمحاتٍ من تاريخ المنطقة، والإمارات الكرديّة المستقلّة التي قامت فيها وحكمتها لسنوات طويلة، وكذلك التمرّدات التي قادها البكوات ورؤساءُ العشائر للاحتفاظ باستقلالهم والخروج عن تبعيتهم للدولة العثمانية.

يبدي المؤلّف اهتمامًا بالسّكان الأرمن، ويشير إلى نقطة مهمّة جدًّا في المشكلة الأرمنيّة، وهي هجرةُ الأرمن لقراهم مع جلاءِ الجيش الروسي عن أراضي الدولة العثمانية الحدودية التي احتلّتها، إثرَ اتفاقية أدريانبول، وتركهم مساحات شاسعة من الأراضي تعاني نقصَ العمالة لاستثمارها، كذلك رغبة السّكان الأرمن في موش مصاحبةَ القوات الروسية عند جلائها ورفض الرّوس ذلك، ممّا اعتبره الكرد انحيازًا للأعداء، ومبرّرًا للاعتداء على الأرمن ونهبهم، وحتّى قتلهم، حتّى جاء رشيد باشا وحافظ باشا وأعادا الاستقرارَ والأمن للمنطقة.

يشير المؤلفُ إلى ضريبة السّاليانه ومقدراها وإعفاء بعض القرى منها، ثمّ يوضّح أسلوب تقديرها وجمعها، وإنْ كان في كلامه تناقضٌ ربما يكون مرجعه تحامله على الدّولة العثمانية، حيث يذكر أنّ «الباشا» يجتمع مع رؤساء الطوائف في مقرّ الباشوية ويحدّد الضريبة المطلوبة لهذا العام بشكل ارتجالي دون مناقشة، ثمّ يعود فيقول: إنّ هذه الضريبة لا تزيد كثيرًا عن السّنوات الأخرى، ولا تثير مشكلات بين السّكان.

وبنظرةٍ محايدة يمكننا القول أنّ في هذه الطّريقة نوع من المرونة في تطبيق القانون، وتغيير قيمة الضريبة كلّ سنةٍ يتناسب مع الأحوال الاقتصادية وكمية المحاصيل وظروف الدّولة، ويؤكّد ما قلناه المؤلّفُ نفسه في مواضع عدّة من الرحلة، حيث يحرص على سؤال الأهالي عن أحوالهم، أو يبادروه هُم بعرض مشكلاتهم، وثقل الضّرائب عليهم، فيقول مثلًا عن قرية أيبلر Eipler إنّ الأهالي في ذلك العام دفعوا

نصفَ الضريبة المفروضة عليهم، ومع ذلك يشتكون، وفي النهاية فإنّ قيمة الضّريبة السنوية عليهم كان ١٢ ليرة فقط.

التّركيز الأكبر للمؤلّف كان هو الوصفَ الطبوغرافي للمنطقة، طرقها وأنهارها ومرتفعاتها وسهولها، مع القياس الدّقيق للمسافات والطرق والارتفاعات، ثمّ ذكر عددَ السّكان والأسر وفقَ المرجعية الإثنية من أكراد وأرمن، مسلمين ومسيحيين أرمن، وأحيانًا يشير إلى المواقع الأثرية.

وثمّة نقطة أخرى حازت اهتمامَ المؤلف، وهي الأوضاع الاقتصادية للسكان وملكيّاتهم الزراعية ومحاصيلهم ودوابّهم والأعباء الضريبية عليهم، خاصة الأرمن الذين كان يبادر دائماً في السّؤال عن أعدادهم وأحوالهم وظروفهم المعيشية.

كما يتعرّض بالوصف- شأنَ معظم الرحالة- للقرى والمدن، ومساحتها وأسواقها، ومنتجاتها ومحاصيلها وعمارتها، والمنتجات الأوروبّية في هذه الأسواق، وبقيّة الأوصاف الأخرى كما يردُ في كتب الخطط.

تميّزت هذه الرّحلةُ عن الرحلات الأخرى بأنّها جمعت بين عناصر ثلاثة:

- الحديث عن الأكراد.

- الحديث عن الأرمن.

- إبراز عدّة وجوه للمناطق النائية من الدولة العثمانية.

وكان حديثُ مستر برانت خالٍ بشكل كبير من التحيز ضدّ العثمانيين، خاصّة في تناوله لأحوالِ وأوضاع المسيحيّينَ الأرمن، لكنّ هذه الحيادية المزعومة لم تكن نابعةً من موضوعيته، بقدر ما هي خالية من الدّافع الذي من أجله يحمل على الحكومة العثمانية لصالح الأرمن، فلم تكنِ المشكلة الأرمنيّة قد برزت بعد، وأخذت البعدَ الدولي؛ لتصير إحدى ورقات الضَّغط والتدخّل في الشئون الداخلية العثمانية.

لكنّ هذا التّحيز ضدّ الأتراك وجد متنفّسًا لدى المؤلف، فانصبّ نقده في الكثير من الأحيان على الأكراد، فنسبَ إليهم نقائص كثيرة، هم في الحقيقة ليسوا برءاء منها تمامَ البراءة؛ إنّما هو عمدَ إلى التّعميم من خلال بعض الجزئيات.

ويعود المؤلف إلى موضوعيّته فيصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للقرى والبلدان التي يمرّ بها، خاصّة التي تشهد امتزاجًا عرقيًّا بين الأكراد والأرمن، أو بين المسلمين والمسيحيّين، ومن خلال هذا الوصف يستطيع القارئ أنْ يلتمس الحقائق التي أغفلها مستر برانت عندما أصدر حكمَه على الأكراد لمجرّد تعرّضه لحادث سرقة، ثمّ حكمه على هذا المجتمع النائي دونَ مراعاة دقيقة للعناصر الحضارية التي أسهمتْ في تكوينه، ومازالت تسهم في مسيرة حياته.

لكنّه ربّما ردّ بنفسه على نفسِه في هذه الاتّهامات، عندما أشار إلى تناقض الأوضاع الاقتصادية في منطقةٍ عن أخرى، وكذلك تناقض الأوضاع الإدارية، وهذا راجعٌ إلى شخصيّة الوالي ورؤساء العشائر، وراجع إلى طبيعة المنطقة وظروفها الاقتصادية.

بل ألمحَ- أيضًا- إلى سببٍ رئيسي في عدم ترْحيب بعض العشائر والقرى بالمارّة أو الرّحالة، إذْ كثيرًا ما يمرّ هؤلاء عليهم دون سبب واضح، كما أنّ بعض القرى الواقعة على الطريق كانت ملزمةَ من قِبَل الدولة باستضافة هؤلاء المارة دون انتظار أيّ مقابل سوى إعفاء الدّولة لهم من الضرائب السنوية، كما أنّ كثرة الأسئلة التي يلقيها هؤلاء الأجانبُ كانت تثير مخاوفَ حتّى المسئولين في تلك المناطق.

كلّ ذلك كان حديثًا جانبيًّا إلى الهدف الأساسي الذي لم يصرّح به، وهو الوصفُ الجغرافي والطبوغرافي والإثنوغرافي للمنطقة التي شهدت الكثير من الرحالة البريطانيّين طليعة تأمين طريق بريطانيا العظمى نحْو مستعمراتها في الشرق، وجامعي المعلومات الاستخباراتية حول تركة الرّجل المريض- الدولة العثمانية- التي كانت تمهّد لاقتسامها، وكان العراق من نصيب بريطانيا.

ملاحظات حول جولة خلال جزء من كردستان في صيف عام ١٨٣٨

بعد أنِ انتهيت من التّرتيبات المتعلّقة بالرحلة، وبعد أن استقرّ الجوّ بشكل تام على إثر ربيع رطبٍ متأخّر القدوم، قمت أنا «**جيمس برانت سكواير**» ببدء رحلتي، حيث غادرتُ مدينة أرضروم في تمام اليوم السّادس عشر من شهر حزيران/ يونيو عام ١٨٣٨، وقد كان بصحبتي كلّ من الدكتور «**إدوارد دالزيل ديكسون**» الطبيب الجرّاح، والمستر «**آدم كيفورد كلاسكوت**» وهو ضابطٌ في القوات البحرية الملكية (البريطانية)، وقد تطوّع مستر آدم- مشكورًا- برسم خريطة للطريق الذي سنسلكه خلال جولتنا في جزءٍ من أراضي كردستان.

بعد أنْ خرجنا من مدينة أرضروم قطعنا سلسلةَ الجبال المنخفضة التي تقع شرقَ البليدة التي يطلق عليه اسم (ديقيه بويونا) أي (عنق الجمل)، وتقع هذه البليدة على مرتفعٍ يزيد عن مدينة أرضروم بمقدار ٨٠٠ قدم.

ثمّ هبطنا في سهل باسين (Pasin) وعبرنا من خلال زاويته الغربية القصية عبرَ جدول صغير ينساب بهدوءٍ من الناحية الجنوبية.. ويصبّ هذا الجدول بعد مسافةٍ قصيرة جهة الشّمال، وبعد ذلك ينساب في مسار حادّ نحْو الشرق.

ويعتبر هذا الجدول أحدَ روافد نهر آراس (Aras) وقبل أن يصل هذا الجدول إلى مدينة حسن قلعة (Hassan Kaleh) يتّحد مع جداول أخرى صغيرة أقلّ منه أهميّة، منحدرة من الجبال التي تحيط بسهل باسين.

وبمجرّد دخول هذا الجدول إلى مدينة حسن قلعة Hassan kale يصبح اسمه جدولَ حسن قلعة، ويتوقّف امتداد هذا الجدول عند منطقة سرج الفرس، ويتراوح عمقه في تلك المنطقة من ٢٠ إلى ٣٠ ياردة، وقد أخبرني أحدُهم أنّ منسوب المياه في هذا الجدول في العشرين يومًا الماضية كان مرتفعًا للغاية، لدرجة أنّه لم يكن من المُمكن اجتياز النّهر في هذا الوقت، ويظلّ النهر منسابًا نحْو الشرق، وعلى بعد ٩ أميال يتحد مع نهر بينكول سو (Bing- gol) أو نهر آراس الحقيقي الذي يصب في النّهر المسمّى الذئب الكردي (Kurd wolf)، ونهر كيتيفان سو النابعين من الجبال التي تقع على الجبهة اليمنى من السهل.

ويوجد في المنطقة التي يتّحد فيها كلّ من نهر «حسن قلعة»، و«بينكول سو» جسرٌ صخريّ يسمّى «جوبان كوبري» أي «جسر الراعي».

وبعد هذا الاتّحاد يطلق على النهر اسم «نهر آراس»، ولكن حتّى قبل أن يلتقي هذا النّهر بنهر «آراس» الذي يتّخذ مجرى جديد أطول من السابق... وكذلك مقدارًا أكبر من المياه الموجودة في نهر قلعة سو؛ لذا فبدءًا من هنا يمكن اعتباره النهر الرّئيسي.

حيث ينبع من «جبل بيني كول داغ»؛ أي «جبل الألف بحيرة»، وهذا الجبل عبارة عن سلسلةٍ من الجبال الشّاهقة الارتفاع، ويقع جنوب غرب «خينيس» أو «خونوس».

أمّا سهل باسين فينقسمُ إلى سنجقيتين صغيرتين (beylik)، سنجقية باسين العليا وسنجقية باسين السفلى.

أمّا مدينة «حسن قلعة» فتقع على بعد ١٨ ميلًا شرق مدين أرضروم، ويوجد فيها مقرّ «بيك» باسين العليا الذي تحتوي سنجقيته على ١٢٠ قريةً كلّ سكانها من المسلمين، ويرجع ذلك أنّ القسم الأكبر من سكانها الأرمن كانوا قد هاجروا إلى

جورجيا عندما تمّ جلاء الجيش الروسي من تركيا بعد معاهدة صلح آدريانبول Adrianople.

وبعد تلك الهجرة تناقص عددُ السّكان شيئًا فشيئا، ويظهر هذا بوضوح من خلال وجود الكثير من الأراضي الواسعة الصالحة للزراعة التي لم يتمّ استثمارها بسبب عدم وفْرة الأَيدي العاملة، وكما أخبرتكم من قبْل أنّ سهل باسين ينقسم إلى سنجقيتين هُما: باسين العليا، وباسين السفلى، ويفصلُهما نهر آراس الذي يمرّ من خلال سهل باسين، وبالرّغم من أنّ هناك بعض القرى التابعة لباسين السفلى، إلّا أن أكثر القرى مرتبطة بـ»باسين العليا» إداريًّا.

تُدار سنجقية باسين السفلى من قبل «البيك» الذي يقيم في القرية المسمّاة آراس Ars، وهو لا يقيمُ في هذه القرية بسبب أهميّتها؛ إنّما يقيم فيها لأنّها مسقط رأسه فقط، وتحتوي هذه السنجقية على سبعين قرية، ولكنْ نتيجة للهجرة أصبحت هذه القرى تحتوي على الكثير من الأراضي الصّالحة للزراعة، ولكنّها مهملة ولا تجد من يستثمرها بسبب قلّة الأَيدي العاملة، وهكذا الحال أيضًا في سنجقية باسين العليا.

ويبلغ طول إقليمي باسين حوالي أربعين ميلًا، أمّا عرضهما فيبلغ من ٦ إلى ١٠ أميال، وكلاهُما يمتاز بأرض خصبة، وتتوافر فيهما الحنطة، كما أنّ الأراضي تروى بشكل مستمرّ؛ نظرًا لوجود نهر آراس، ويتوافر فيهما مراعي خضراء ممتازة، وتحتوي قراهاً على حوالي ١٢- ١٠٠ أسرة، وأغلبُ القرى لا يزيد عدد منازلها عن ثلاثين منزلًا، وربّما أقلّ من ذلك، والقرى الكبرى في هذين الإقليمين أقلّ عددًا من القرى الصّغيرة، وفي الجهة المقابلة للنّهر الذي يواجه مدينة «حسن قلعة» يوجد الكثير من ينابيع المياه السّاخنة التي لا حصر لها.. بعض هذه الينابيع قاري، والبعض الآخر يبدو وكأنّه يحتوي على الحديد والكلس.

أمّا أشدّ هذه الينابيع سخونة فتبلغ درجة حرارتها حوالي ١٠٥ درجة، وقد تمّ بناءُ حمّامات عند أكثر تلك المياه حرارة وغزارة، وعادة ما تزدحم بالسائحين.

وقد كانت مدينة «حسن قلعة» أحد أقدم المحطات التجارية للجنويين القدماء (old genoese)، وقد قام هؤلاء التجار المغامرين ببناء قلعتها بتلّ القمة المستطيلة لأنف الجبل، وهو النّتوء الخارج من السلسلة الرئيسية ويبلغ ارتفاعها حوالي ١٦٠٠ قدمًا من مستوى سطح السهل.

وتسيطر هذه القلعةُ على المدينة بشكل كامل، حيث إنّ الحائط المزدوج الحديث يحيط بالمدينة من كلّ جانب؛ بل ويربط بين كلّ نهايات هذه القلعة.

ويروى أنّ هذا الحائط قد تمّ بناؤه من قِبَل شخص يسمّى «صن»، وقد طغى هذا الاسم على الاسمِ السّابق للمدينة، وأصبح سببًا لتحويله إلى زاوية النسيان، ويعتقد بعضُ السياح والمسافرين عبر كردستان أنّ الثيودوسيوبوليس Theodosio Police القدماء قد توقّفوا في هذا المكان، على الرغم من عدم وجود أيّ بقايا أو آثار لهم هنا.

كما أنّ الحمّام الموجود هنا لم يبنَ على الطّراز الروماني، وهكذا أيضًا الجسر الصّخري الذي يقع بالقرب منه.

أمّا قلعة الجنويين Genoese فقد ظلّت مهملة وخَربة دونَ أيّ ترميم أو صيانة لفترة طويلة، وحتّى الحوائط المقامة حديثًا ليست أقلّ منها تهدّمًا، ولا يمكن الاستفادة منها أبدًا للدفاع عن المنطقة، وقد تمّ إعفاء سكان هذه المنطقة من الضريبة المسمّاة «سالیانه»، وبدلًا منها فهُم يدفعون ٥٠ ليرة فقط كإسناد للمؤسّسة السابقة، إلى جانب أنّهم ملزمين باستضافة الغرباء والمارّين بالمكان، ويعدّ ذلك أيضًا تكاليف باهظة لأنّ السّكان المحليّين المارّين من هنا لا يدفعون أجرًا لاستضافتهم.

وتضمّ هذه البلدة سبعةَ مساجد وسبعَ عيون مائية، لكنّ هذه العيون غير مستغلة.

وبما أنّني سوف أتحدّث كثيرًا عن كلمة (ساليانه)؛ فيجب أن أشرح معناها، وهي عبارةٌ عن ضريبة سنوية يدفعها سكّان القرى والأرياف لتغطية نفقات السّلطات العامة والمتمثّلة في (الباشوية)، ويتمّ جمع هذه الضريبة على النّحو التالي:

يلتقي الباشا مع رؤساء الطوائف الدينية في مقرّ الباشوية، ويحدّدون معًا مبلغ الضّريبة، ثمّ يقوم هؤلاء الرؤساء بتوزيع مبلغ الضّريبة على السكان حسب القواعد المتّبعة بهذا بخصوص؛ حيث يقوم رؤساءُ الطوائف الدينية بإبلاغ المسئولين العشائريّين الذين يتبعونهم بمقدار الضّريبة المفروضة على المنطقة للنظر في أمر تقسيمها على القرى التّابعة لسلطتهم، وذلك يحدث في هذه المناطق، أمّا في القرى البعيدة فيتلقّى رؤساؤها مقدار الضّريبة من رئيسهم الأعلى، وهم بدورهم يقومون بتقسيمها على سكّان كلّ قرية حسب القواعد المتبعة.

وهذه الضريبة اعتباطيّةٌ إلى حدّ كبير؛ حيث إنّها لا تستند على أسس ثابتة، حيث تتفاوت مقاديرها حسبَ مزاج الباشا، أي أنّه يمكن أن يرفع مقدارها، ويمكنه أنْ يخفضَه، وهذا الباشا غيرُ مسئول- طبعًا- عن تقديم أيّ أسباب لزيادة أو تخفيض مقدار الضريبة، وعلى الأهالي أن يدفعوها دونَ أيّ اعتراض، ولا يجرؤ أي شخص أنْ يناقشه في مقدارها، وعلى كلّ حال فإنّ الضّريبة لا تزيد دونَ سبب واضح وملح، ودونَ إثارة شكاوى كبيرة، فمثلًا لا يمكن أنْ تزيد ضريبة هذا العام عن ضريبة العام الماضي بشكل كبير.

يوم ٢١ حزيران / يونيو عام ١٨٣٨

في يوم ٢١ حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨، غادرنا بليدة «حسن قلعة»، قاطعين السّهل، ومتّجهين نحْو الجنوب، وعلى بُعد أربعة أميال ونصفٍ من البليدة نزلنا نخوضُ نهرَ «كردسو» الذي يجري نحْو الشّرق، وبعده وعلى بُعد ميل ونصف خضنا نهرًا آخر يسمّى «كيفان سو»، يقع هذا النّهر بالقرب من قرية تحمل نفس الاسم، وتقع في مدخل شعب صغير، ويتّحد هذان النّهران قبل أن يصبّا في نهر «قلعة سو».

ثم عبرنا شِعب «كيتفان»، ثمّ هبطنا من السّلسلة الجبلية شيئًا فشيئا حتّى وجدنا أمامنا قمّة جديدة كلسية شاهقة، يصل ارتفاعُها إلى ١٤٠٠ قدمًا من مستوى سطح «حسن قلعة»، أمّا ارتفاعها من مستوى سطح البحر فيبلغ ٧٢٣٠ قدمًا، وبعد أن اجتزنا هذه القمّة السّابقة انحدرنا مرّة أخرى باتجاه وادٍ عميق ذي مظهر رومانتيكي، حيث تحيط به الغاباتُ الخضراء من كلّ جانب، وسرْنا في نفس اتجاهنا، واتبعنا هذا الوادي الجميل حتّى وصلنا إلى ضفاف النّهر المسمّى «بين كول سو»، وبالضبط وجدنا أنفسنا في مكان الجسر الصخري الذي يربط بين ضفّتي النهر.

وقد كنت أسمع أنّ هذا الجسر أعلى بكثير من جسر «جوبان كوبري» الواقع على بُعد مسيرة ٦ ساعات باتجاه مناطق المرتفعات.

وعندما وصلنا هذا النّهر- نهر بين كول سو- القادم من المنطقة الجنوبية الغربية والمتّجه نحْو الجهة الشمالية الشرقية؛ وجدنا التّيار قويًّا.. والمياه تغمر حوض النّهر، ولكنّنا لم نعبر الجسر؛ بل ترجّلنا نحْو الجبال من الجهة الجنوبية الغربية للقصبة،

وبعد أن مشينا حوالي ساعة وصلنا إلى قرية كردية صغيرة تسمّى «آيبلير Eipler»، وتبعد هذه القرية حوالي ١٦ إلى ١٨ ميلًا عن مدينة حسن قلعة، وقد قطعنا هذه المسافة مشيًا على الأقدام في مدّة ٩ ساعات.

تضمّ قرية آيبلير الكردية عشرينَ عائلة من الكرد، من بينها عشر عائلات على الأقلّ ظروفهم الاقتصادية جيدة إلى حدّ ما، أمّا العائلات المتبقيةُ فظروفها معتدلة، ويعملون رعاةً عند العائلات الأخرى.

ولا يوجد أيّ طريق مفتوح يصل بين أرضروم وموش في فصل الشتاء إلّا هذا الطّريق الذي يمرّ من خلال هذه القرية، حيث إنّ الطرق الأخرى جميعها تغمر بالثّلوج، ومن المستحيل عبورها، وقد تحقّقت من ارتفاع هذه القرية عن مستوى سطح البحر عن طريق الباروميتر، فتبيّن لي أنّ ارتفاعها يصل إلى ٦٢٦٠ قدمًا.

وقد أخبرني أهالي هذه القرية بمدى صعوبة أوضاعهم المادية، حتّى أنّهم وبالرّغم من أنّ الضّريبة المفروضة عليهم تبلغ ١٢ ليرة فقط، إلّا أنّهم لم يدفعوا إلّا نصفَها فقط هذا العام، وهذا نتيجة لتدنّي ظروفهم المعيشية.

ويقومُ هؤلاء الأهالي بحرثِ بعض الحقول مقابل حصولهم على مقدار ضئيل من الحنطة، ولكنّهم يعتمدون بشكل تامّ على الماشية والأغنام، وهذا لأنّهم يحصلون على التّبن بسهولة، فيغذّون مواشيهم بها، وهذا في موسم الشتاء، أمّا في موسم الصّيف فيعتمدون على المراعي الغنيّة التي تقع بالقرب منهم.

يوم ٢٢ حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

تبعدُ قرية «آيبلير» عن «كوي لي» (koi li) بمسافةٍ لا تزيد عن ١٢ ميلًا نحْو الجنوب، وأثناء اتّجاهنا نحوها اجتزنا صقعًا جبليًّا، يوجد به العديد من المراعي المُمتازة، وبالقرب منه توجد قرية كرديّة كبيرة تسمّى (أغا ياز– aga yaz) وتقع هذه القرية على أعتاب الجبل أسفل طريقنا، وبعيدًا عن مرمى البصر.

وجاءت مجموعةٌ من الحرّاس، ويبلغون عشرة حراس، ورافقوني من هذه القرية حتّى أوصلوني إلى قرية «كوي لي»، وكان ذلك في تمام السّاعة التاسعة والنصف صباحًا، فتناولنا وجبةَ إفطار خفيفة خلال انتظار وصول حقائبنا، وتقع قرية «كوي لي» هذه في أحضان الجبال، وترتفعُ عن مستوى سطح البحر بمقدار ٥٩٠٠ قدمًا، كما تبعُد عن نهر «بيني كول» بمسافة نصف ميل، وهي من أعمال دوقية «خينيس»، وقد كان يقيم بها عددٌ كبير من العائلات الأرمينيّة فيما مضى، وقد قيل لي إنّه كان يُقيم بها ما يزيدُ عن مائتي عائلة أرمينيّة، ولكنّها هاجرت إلى جورجيا، ويقيم بها الآن ١٥ عائلة مُسلمة، وهي الآن مليئة بالخرائب المتناثرة في كلّ مكان. أمّا الأراضي الممتدّة من النهر حتّى القرية فهي مليئة بالبرك والمستنقعات الكثيرة، ولهذا استعنّا بدليل ليدلّنا على كيفية عبورنا هذه البرك حتّى نصل إلى هذه القرية. ويبلغ عرض نهر «بيني كول» في هذه المنطقة حوالي ٥٠– ٦٠ ياردة، أمّا التيار فهو سريعٌ للغاية، ويصل ارتفاعُ الماء إلى أكثر من ارتفاع سرج الحصان، وعلى بعد أمتار في العمق يكون اجتياز النهر خطرًا للغاية إذا لم يكن مميتًا.

ونتيجةً لارتفاع منسوب المياه، فقد ابتلّت جميع أمتعتنا، وبعد خروجنا من الممرّ الذي يؤدي إلى النّهر مررنا بوادٍ طويل مليء بالعشب حتّى نعبر المنطقة الجبلية

بالقرب من رأس السّلسلة لنهبط من خلال ممرّ صخري لنغير اتجاهنا نحْو الشّرق مباشرة، حيث إنّنا منذ بدء رحلتنا وحتّى وصولنا إلى هذا المكان كنّا نتجه نحْو الجنوب، أمّا الآن فسنتّجه نحْو الشرق.

لقد قطعنا المسافة التي تصل إلى عشرة أميال بدءًا من «كوي لي»، وحتى آغ قيران، في ثلاث ساعات ونصف، بالرّغم من أنّ قرية آغ قيران ترتفع عن قري كوي لي بحوالي ٣٠٠ قدمًا.

وقد شاهدنا في السّاعات الأولى من هذا اليوم جبل «بين كول داغ»، وهذا الجبل عبارة عن سلسلةٍ جبليّة طويلة تكسوها الثّلوج معظم الأوقات. وعندما حوّلنا نظرَنا نحْو اليمين- أي الشّرق- رأينا القمّة الرابعة لجبل سيبان داغ Seiban dag المتوّج ببرقع فضي مصنوع من الثلوج البيضاء.

وبالرّغم من وجود العديد من القمم التي تحولُ دونَ ظهور هذه القمة الرائعة، إلّا أنّنا رأيناها بوضوح، وخلالَ هذا الوقت كنّا ننتظر وصول أمتعتنا، ونستمتع بهذه المناظر الرّائعة، ولم تصل أمتعتنا إلّا بعد مرور ساعتين.

لدرجة أنّنا قد احترقنا من وهج الشّمس، ولم يكن لدينا ما نستظلّ به. إنّ قرية «آق صقاللي» أي «الرجل ذو اللحية البيضاء»، التي كان رئيسها في رحلة إلى أرضروم لتأمين بعض المستلزمات والأحذية والملابس وبعض الاحتياجات لأسرته، فهي قرية تقع ضمن سنجقية «خينيس» أيضًا، ويقيم بها إحدى عشرة عائلة كردية، من بينها ثلاثُ عائلات فقط ميْسورة الحال، حيث أنّهم يمتلكون بالضبط أربعين حقلًا صالحًا للزراعة، ويمتلكون أيضًا عددًا كبيرًا من الأغنام والماشية.

يوم ٢٣ من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

تقعُ سنجقية «خينيس» على بُعد تسعة أميال من «آغفيران»، عبر سهل يقطعه عددٌ من الوديان العميقة التي تضيق وتتّسع في أماكن مختلفة، أمّا جوانبها فهي عبارة عن الصخور الشاقولية.

ويوجدُ في عمقها العديدُ من المراعي والحقول المحروثة، وتتخلّلها غدران وفيرة المياه، ويوجد بعضُ الغدران التي جفّت مياهها.

وفي القرية التي يطلق عليها «بارماك سيز Parmak-Siz»، أي صاحب الأصبع المبتورة، التي تقع في إحدى تلك الوهاد، عبرنا جدولًا صغيرًا ينبع من جبل يطلّ على «أغفيران»، ويسمّى «قرة قايه»، أي «الصّخرة السوداء»، وعلى بعد مسافة قليلة يجري نهر أكبرُ في وهدة أوسع من نفس الطّراز، يطلق عليه «كليسه سو»، أي «نهر الكنيسة»، ينبع هذا النهر من كنيسة مسيحيّة خربة، ويجري النهر على أعتابها، وبعد أنْ يصعد هذا النّهر قليلًا يتغيّر اسمه ليصبح «بيك سو» على اسم قرية تقع على ضفافه. وهذا النّهر والجداول المسمّى «قره قايه» يجريان نحْو الجنوب الشرقي أيْ باتّجاه «مراد جاي» ذلك النّهر الذي اعتقد أنّه ينبعُ من سلسلة جبال بيني كول داغ.

وصلْنا إلى «خينيس» التي أخبرتكم عنها سابقًا في السّاعة التاسعة صباحًا، وقد توقّف هبوب النّسيم بالأمس، ولكنّه يهبّ اليوم بشكل متقطّع، ممّا ساعد على ارتفاع الحرارة بدرجةٍ عالية حتّى في الصّباح الباكر بدءًا من السابعة والثامنة صباحًا.

تتميّز بلدة خينيس بقلعتها التّاريخية، وهي عبارة عن بلدةٍ قديمة، وتعرف من هنا باسم «خينيس قلعة سي» وهي تابعة إداريًّا «باشوية» موش، ويسكن بها الـ «بيك»، وهو شقيقُ أمين باشا حاكم موش، وهذا البيك هو مراد بيك الذي كان

غائبًا عند وصولنا إلى هناك، ولكنّ وكيله «Kayaya» قام بإرسال ابنه إلينا ليبلغنا تحياته، ويعرض علينا خدماته، وذلك لأنّ الوكيل كان يعاني من وعكة صحية أجبرته على لزوم الفراش، فأرسل ولدَه الذي كان يعمل ضابطًا، ولولا هذا كان حضر هو شخصيًا.

وتقع هذه المدينة اليائسة في أعماق وهْدة صخريةٍ عميقة شديدة الانحدار من الجوانب، ترتفع هذا الوهدة عن مستوى سطح البحر بمقدار ٥٦٨٦ قدمًا.

ومع أنّ النهر الذي يمرّ بهذه المدينة صغيرٌ إلى حدّ ما، إلّا أنّ عليه جسران صخريّان، كلّ جسرٍ منهما ذو قنطرة واحدة، يُطلق على هذا النهر اسم «قلعة سو»، وعندما ينحدر قليلًا نحْو أسفل المدينة يطلق عليه «آروزسو Arus-Su» تبعًا لاسم قرية تقعُ على ضفافه، وينبع هذا النّهر من جبل «بين كول داغ»، ويصبّ في «مراد جاي»، وتضمّ هذه القرية ١٣٠ منزلًا، مائة منهم يقيم بها المسلمون، أمّا الثلاثون منزل المتبقّية فيقيم بها الأرمن.

ويوجد بها مسجدٌ ذو بناء جيد، أمّا قلعتها فتقعُ على شبه جزيرة ذات جوانب شاقولية تطلّ على وادٍ ضيّق شديد الانحدار.

ويقعُ على نفس مستوى ارتفاع السّهل المجاور له، ويطلّ على المدينة، ويقطع حائط متهدّمٌ حاليًا عنقَ شبه الجزيرة، وقد كان هذا الحائط فيما مضى يحمي مدخل القلعة، ويقع هذا الحائط على يمينِ ويسار مدخلِ القلعة، ويمتدّ على طول حافة الوهْدة الضّيقة شديدة الانحدار، ليَقطعها بعدَ ذلكَ من كلّ نهاية في القرية، ويتّحد مع حصنيْن خارجيين أو أبراج على الجهة المقابلة.

وجميعُ هذه الحصون والحوائط والأبراج حتّى القلعة ذاتها شبه متهدّمة نتيجة للعديدِ من العوامل، ويقيم بها «البيك»، كما أنّ الوحدات السكنية الملحقة بالفناء

في حالةٍ غير جيدة، أمّا الغرف الداخلية فيقيم بها حريم البيك، ومن الصعب الوصول إليها.

والتّجارة في هذه المنطقة تكاد تكون منعدمة، ما عدا بعض المستلزمات الضّرورية للمجتمع الريفي، ويضمّ البازار ٣٠ دكانًا صغيرًا، لا يبيعون فيها سوى المناديل المصنوعة محليًّا، والتبوغ وغلايين التدخين وبعض الحاجات الضرورية مثل الخضروات والفاكهة.

أمّا العوائد القانونية التي يحصل عليه البيك هي: عُشر مردود الإنتاج الزراعي للمنطقة، حيث تدرّ هذه المنطقة سنويًّا ١٥٠ ليرة، وبدلًا من دفع الضريبة المسماة «الساليانه» يلزم الأهالي باستضافة الغرباء، ونظرًا لأنّ هذه المنطقة هي محطة خلفية متأخّرة، فيزورها العديدُ من الغرباء، كما أنّ الضّريبة ليست خفيفة أيضًا، وأراضي هذه المنطقة ليست ملكًا لأحد؛ لذا فلا يمكن بيعها أو شراؤها، أي أنّه يمكن لأي شخص أن يتّخذ منها مكانًا لنفسه، بشرط أن تكون خالية دون أن يدفع أيّ مبلغ على شكلِ إيجار أو غيره. ويمكن أيضًا أنْ يزرع أيّ مكان غير مزروع، وعليه أن يدفع عُشرَ الدّخل الزراعي لقطعة الأرض التي زرعها، ولكن إذا أهملها أو أتلفها فهو هكذا يخاطر بخسارتها وضياع حقوقه في تملّكها، ويجب أن يكون هناك طلب لمساعدته في الزراعة، ولكن هذا مستحيل حيث إنّ الأراضي الزراعية كثيرة، ولكن لا توجد أيدي عاملة لزراعتها.

الشّتاء هنا بارد جدًّا وطويل، أمّا الصّيف فهو حار، ويأتي مباشرة بعد ذوبان الثلوج.

تقع هذه القرية على سفْح جبل كول داغ، وحتّى نصل إلى قمته نقطع مسافة قدرها ستّ ساعات، وقد سمعت أنّه كان يوجد على هذه القمة قلعة قديمة، ولم

يبق منها إلّا بعض الأحجار، ولكنّني أصدّق هذا الأمر، حيث أنّه من الممكن أن تكون هذه مجرّد أقاويل سبّبها وجودُ بعض الأحجار الكبيرة التي توهم البعض، فيعتقدون أنّها بقايا قلعة. وتوجد قرية تدعى توزله TUZLAH على مسافة سبع ساعات إلى الشّمال الشرقي يمتازُ بكثرة الرّواسب الطبيعية من ملح الطعام بما يكفي لاحتياجات المنطقة وما حولها.

ودعوني أخبركم عن القايايا؛ أي وكيل البيك، حيث تأكّدت أنّه رجل متحضر، فبخلاف أنّه أرسل ولدَه لاستقبالنا فقد زوّدنا أيضًا بالخراف والحليب والبيض، وبعض الاحتياجات الأخرى دونَ أيّ مقابل، حقًّا أنّه رجلٌ متحضّر ومؤدب.

الخامس والعشرون من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

عندما سألت بعضَ الأشخاص عن أفضل طريق للذّهاب إلى موش (mush)، عرفت أنّ القرى التي تقع على الطّريق المباشر لها، عادة ما تكون خالية من السكان في فصل الصّيف، وذلك لأنّ الأهالي يذهبون إلى قمم الجبال للحصول على الماء والكلأ، وللاستمتاع بالجوّ اللطيف.

ولهذا وجدتُ أنّنا إذا سلكنا هذه القرى لن نحصل على المؤن والغذاء، فنصحني أحدُهم بسلوك طريقٍ آخر غير مباشر، وقد كان يوجد نهرٌ كبير بالقرب من الطريق المباشر، ولا بدّ أن نجتازه، وهذا ليس بالأمر السّهل، ولكنني تذكّرت أنّ أحدهم قد نصحني بعبوره من طريق الجسر الحجري، ولهذا فقد قرّرت أن آخذ بهذه النصيحة الأخيرة، فغادرنا خينيس متّجهين نحْو الجنوب، ومررنا بالعديد من الوديان الضيقة المليئة بالمراعي الخضراء، ومررنا- أيضًا- بوهادٍ كثيرة الشّبه بما وصفته من قبل.

وبعد حوالي ساعتين وخمسٍ وأربعين دقيقة، وصلنا قرية كردية تسمّى «مال أكولاش» (mal akulash)، ومنها اتّجهنا نحْو الجنوب الغربي، عابرين العديد من الجبال عن طريق بعض الممرّات الفرعية، ومررنا بالمراعي الخضراء الكثيفة التي تنتشرُ فيها الزّهور الجميلة ذات العطور التي تنشر عطرها على امتداد أميال من هذا المكان، ثمّ حوّلنا مسارنا بالتّدريج نحْو الغرب، إلى أنْ هبطنا أخيرًا في طريق منحدر طويلٍ في مواجهة غرب قرية تسمّى جوم جوم Gumu Gum، بعد أن قضينا تسع ساعاتٍ ونصف سيرًا في هذا اليوم، ونتيجة لأنّنا كنّا نتوقف باستمرار لانتظار أمتعتنا، فقد كنّا نتقدّم ببطء، كما أنّني لم أقدر أنّنا قد تقدّمنا خلال تلك المسيرة نحْو عشرين ميلًا، وعندما هممْنا بنصب خيامنا، فجأة رأينا عاصفة رملية تهب فوق

الجبال المجاورة، أمّا في المكان الذي خيّمنا فيه فقد هبّت ريح شديدة، ولكنه لم تستمرّ سوى ثوانٍ معدودة ولم يصاحبها أمطار؛ لذا ومن حُسن حظّنا كان مكان معسكرنا خاليًا من الأمطار.

جوم جوم Gumu Gum:

أمّا قرية جوم جوم فهي عبارة عن قريةٍ تقعد على وادٍ جميل، يصل ارتفاعه إلى ٤٨٣٦ قدمًا، مع «بين طول داغ» من الشمال.

ومن خينيس درنا حول أعتاب السّلسلة الجبلية، ويوجد هناك طريق مباشر يصل إلى أرضروم بعد نحْو عشرين ساعة.

وهناك أيضًا طريقٌ عملي يمكن قطعُه رأسًا عبر سلسلة «بين كول داغ» الجبلية. إنّ قرية كوم كوم موقوفة لأغراض البرّ والإحسان، وهي تعود إلى الجامع، الذي يرأسه شخص يسمّى الشيخ، وهو من الدراويش.

وجميعُ سكّان هذه القرية معافون من الضريبة «الساليانه»، ومن أداء الخدمة العسكرية في الجيش أو الجاندرمة. تضمّ هذه القرية ٣٠ بيتًا من الكرد، و١٥ بيتًا من الأرمن.

وقد لاحظتُ منذ مغادرتنا سهل «باسين» أنّه لا يوجد الكثير من الأراضي المحروثة أو المزروعة، أمّا الحقول المزروعة فهي قليلة ومزروعةٌ بإهمال، حتّى أن الحنطةَ المزروعة بها تكون مرتفعة قليلًا، أمّا في قرية كوم كوم فلاحظت العكس تمامًا؛ حيث إنّني وجدت أماكنَ كثيرةً محروثة، فتعجّبت من هذا الأمر حتّى أخبروني أنّ تربة هذا الوادي خصبة جدًّا، كما أنّ البذور هنا تدر حوالي ١٢ ضعفًا من الكمية المبذورة في المواسم الجيدة.

السادس والعشرون من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

خرجنا من قرية جوم جوم، متّجهين نحْو الشرق، وبعد نحْو ساعة سيرًا عبرنا قرية كرديّة تسمّى «كيرباه كوه Kerbah - Kuh » وتقع هذه القرية على سفح الجبل على أعتاب نهر يسمّى «جوار بهار»، الذي ينبع مباشرة من جبل «بين كول داغ»، والذي ينحدر بعد جريان مسافةِ ساعة وربْع نحْو الجدول الذي عبرناه بواسطة الجسر الصّخري، أمّا بعد ساعة وخمس وأربعين دقيقة يلتقي هذا النّهر بالنّهر المسمّى «مراد جاي» في خطّ مستقيم، حيث ينحدر نهر «جوار بهار» من الغرب، ثمّ يستدير على شكل زاوية قائمة عبر وادٍ عميق متّجهًا نحْو الجنوب.

وعندما نظرنا إلى البارومتر الذي نحمله معنا وجدنا ارتفاعنا يبلغ أكثر من ٤١٣٨ قدمًا على مستوى سطح البحر.

وعندما كنت أتجوّل على طول الوادي الذي يطلّ على ضفاف نهر جوار بهار، تخيّلت أنّ نهر «مراد جاي» ليس إلّا مجرّد تكملة لهذا النهر، وتبلغ المسافة من قرية كوم كوم إلى مكان التقاء هذيْن النّهريْن حوالي ١١ ميلًا.

أمّا الطّريق المستقيم القادم من خينيس، فيأتي من خلال السلسلة الجبلية الواقعة بالأسفل باتّجاه نهر «جوار بهار»، وقبل تقاطعه، وقد اضطررنا أنْ نخوض هذا النهر بالرّغم من عمقه واتساعه.

أمّا بعد اتّحاد النهرين فيجريان خلال وادٍ يتّسع تدريجيًا حتّى يصبح جزءًا من سهل «موش»، وفي هذا السّهل يزداد اتساع النهر حتّى يصل إلى ٧٠ ياردة، هذا بالإضافة إلى اتّساع حوضه بمجرد دخوله السهل.

وبعد أنْ تركنا تقاطع الأنهر، اتّجهنا إلى قرية قرب السهل اسمُها «سيكاوا Sikawah» التي تقع على بُعد ثمانية أميال، ثمّ تركناها، وبعدها بمسافة ثلاثة أميال وصلنا إلى «كيراوي Kirawi» وتوقّفنا بها، وأقمنا خيامنا، وقد كنّا متعَبين من السفر لمدّة ثماني ساعات متواصلة.

يقيم في هذه القرية الأرمن فقط، وقد لاحظت أنّ القرى الواقعة على امتداد سهل موش، لا يوجد بها اختلاط بين الأرمن والمسلمين، أي أن القرى أمّا يقيم بها الأرمن، أو يقيم بها المسلمين، ولا يقيم الاثنان معًا في قرية واحدة.

التقيت بالقايايا وتوجهت إليه بالكثير من الأسئلة التي كان تشغل تفكيري، ولكنني لم أحصل على جواب واحد يرضيني، فلم يكن منه إلّا أن يقول لي: وكيف يمكن لي أن أعرف ؟ ولكنني التقيت أخيرًا بشخص أكثر تفتحًا وهو قس، وقد أخبرني بسر عدم إجابة القايايا لي، فقال: أنّه كان يخاف أن يخبرني بأي شيء حتّى لا يعرف أحد أنّه قد أعطى معلومات عن المنطقة لشخص أجنبي، ولكنني قلت له إنني لن أذكر مصدر معلوماتي في أي مكان، وقام القس بدوره بالتظاهر بتصديق كلامي، ولكنه في قرارة نفسه لم يكن مقتنعًا بهذا.

يقيم في هذه القرية عشرين أسرة من الأرمن، وهي من ممتلكات «مراد بيك» من خينيس، ويمتلك القرويون حوالي ٣٠٠ بقرة وثورًا أو جاموسًا، وبعض الأغنام ما بين ٢٥٠ إلى ٣٠٠، بالإضافة إلى ٢٠ مهرة صغيرة، وفي المواسم الغزيرة الأمطار يدر مبذور الحنطة حوالي ١٠ إلى ١٢ ضعفًا، أمّا في المواسم قليلة الأمطار، فلا يزيد مدخولها عن أربعة أو خمسة أضعافها.

والتّربة هنا من النّوع الرملي الخفيف، هذا إلى جانب إهمالهم لريّها، وكلّ الأصواف التي يحصلون عليها من الأغنام يستهلكونها محليًّا، ولا يفيض منهم شيء، كما أنّهم يزرعون بذور الكتان ليحصلوا على زيوتها كوقود.

وموسم الشتاء هنا ليس طويلًا كما في أرضروم، ولكنه بارد جدًّا وقاس، فنجد الثّلوج تغطّي كلّ المنطقة حتّى يصل سمكُها إلى العديد من الأمتار، حتًّى النهر نفسُه يتجمد فتعبره العربات المحملة.

وتدفع القرية ثلاث ضرائب كلّ عام تصل إلى٥ أو٦ ليرات كخراج اعتيادي، ولكنْ هناك ضريبة أخرى تعتبر أكبرَ هذا الضرائب، وهي التي يحصل عليها البيك، وتتمثّل في حصّة البيك من المنتوج الزراعي، إلى جانب القيشلاك (kishlak)، وهي الضّريبة الربعية الشتوية، وجميع هذه الضرائب مع بعضها البعض تمثّل عبئًا ثقيلًا على كاهل سكان القرية، هذا بالإضافة إلى عدم اقتناعهم بها، كما أنّ ضريبة القيشلاك تبدو وكأنّها أسلوب من أساليب القهر والجور، حيث أنّهم يجبرون القرويين على إعطاء ملاجئ شتوية لأكثر من عشْرِ أسرٍ كردية.

وخلال أيّام الحرب الروسية، وعندما وصل جيش الروس إلى موش، وعند جلائه؛ كان الأرمن يتمنّون أن يجلون معه، إلّا أنّه لم يسمح لهم بذلك، حيث إنّ الرّوس كانوا يتقدّمون في هذه الأيام ولم يريدوا أنْ يحملوا عبء المهاجرين وعائلاتهم.

لذلك فقد اعتبرَ الأكراد أنّ الأرمن منحازون إلى الجيش الروسي، لذا فقد أقدموا على نهب ممتلكاتهم، والاعتداء عليهم؛ بل وقتلهم كعقابٍ لهم على انحيازهم لأعدائهم، ولكن عندما قام رشيد محمد باشا، وحافظ باشاً بعملياتهم العسكرية، ومنذ تشكيل جاندرمة «الباشوية»، ولم يجرؤ أيّ شخص من الكرد على مهاجمة القرى الأرمنية، وندرت الحوادث الفردية والسطو عليهم، وقد أثّر ذلك على هذا الجنس الجبلي وفرض عليهم أخلاقًا جديدة تمنعهم من ارتكاب الحماقات بحقّ الأرمن، ولكن هذا لم يعدْ كافيًا حاليًا حيث إنّ عدد جاندرمة الباشوية المكلفة

بحفظ الأمن لا تتجاوزُ المئات، ولم يكن كافيًا فيما مضى، وهذا شيء ملحوظ في نقص التجهيزات والضبط.

وبالقرب من قرية «سيكاوا» توجد تلّة صغيرة تسمّى «أوسب بوليور-Osp-Polur» وتعني بالأرمنيّة (إنّ الجبل الذي حولنا هو من نبات العدس) وعلى هذا المرتفع الصّغير أبدى علاء الدين بيك مقاومةً باسلة وناجحة ضدّ القوات الحكومية للانقضاض على الإمارة الكردية المستقلّة التي كان بصدد إقامتها. إنّ علاء الدين بيك هو رئيس كرديّ، وهو أيضًا الجدّ الأعلى لأسرة أمين باشا الموشى.

وقد أخبرني لي أنّ هذه الحادثة وقعت قبل ما يقارب قرنًا واحدًا، ومنذ هذا اليوم سمّي ذلك المرتفع باسمه.

وقد لاحظتُ أنّني لم أشاهد أيّ أشجار إلّا نادرًا منذ أن تركت أرضروم ماعدا الوادي الذي ذكرته سابقًا، ويوجد أيضًا بعضُ الأشجار من الصفصاف والبلوط، بالقرب من المكان الذي يلتقي فيه كلّ من نهري «جواربهار» و»مراد جاي»، ومن هذه المظاهر يمكنني أنْ أستنتج أنّ هذه المنطقة لها نفس الخصائص العامة لسهل أرمينيا العالي كلّه.

السّابع والعشرون من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٧

بعد مغادرتنا «كيراوي Kirawi» واصلنا سيْرنا على طول السهل، وكان نهر مراد جاي على مقربةٍ منّا في الجهة اليسرى.

وخلال نصف ساعة عبرنا النّهر على جسر كثير القدم يتكون من أربع عشرة قنطرة متآكلة، لدرجة أنّنا خفنا وترجّلنا عن الخيول وعبرنا سيرًا على الأقدام، وقد كاد قلبي يتوقّف من شدّة الفزع، وعرض هذا الجسر يبلغ ٢٠٤ قدمًا، وكان بالكاد يصل بين ضفتي النّهر، وأشار جهاز البارومتر إلى أنّ ارتفاع الأرض هنا يصل إلى ٤١٢٣ قدمًا، ولم يكنْ نهر مراد جاي سيصل إلى موش؛ لأنّه بدءًا من هذا الجسر يتحوّل مساره نحْو الجنوب، ثمّ يتوغّل بعيدًا نحْو الغرب.

لذا فبعدَ عبورنا هذا الجسر المتهالك ابتعدنا عن النهر، ودخلنا قرية أرمنية كبيرة تسمّى «سولوك Suluk» ومن هناك سرْنا وسط سهلٍ واسع وممتدّ، مليء بالمراعي الخضراء والحشائش الكثيفة، وقد كانت صناعة الأعلاف تجري فيه على قدم وساق، وبعد ساعتين وصلنا إلى نهر «قره صو»، وقد خضناه في المنطقة التي تقعُ بالقرب من جسر قديم، وقد كانت المياه تصلُ إلى ركب الخيل، وكان عرض الجدول حوالي ٢٥ ياردة، وهذا النّهر ينبع من المنطقة المسماة «نمرود داغ» الجبلية التي تظهر بوضوح من الجهة الشرقية الذي يبلغ بعده من هناك مسافة تراوح بين ٢٤ إلى ٢٦ ومن ٤ إلى ٥ أميال أسفل النهر.

وينتهي مسارُ هذا النهر عندما يصبّ في نهر «مراد جاي»، وبعد ذلك قطعنا مسافة نصف ميل حتّى وصلنا إلى:

قرية « جيفرميه Chevermeh»:

عندما وصلنا إلى هذه القرية عسكرنا بالقرب من مبنى قديم شارف على أن يصبح مجرّد أطلال، وقد كان هذا المبنى فيما مضى محلَّ إقامة «باشًا مدينة موش»، تبعد هذه القرية عن بلدة كيراوي kirawi بحوالي ٩ أميال، وبعد أن استقرّت أوضاعنا واسترحنا قليلًا، بعثت الـ «Khavass» (القواص) إلى الباشا ليخبره بوصولي إلى القرية، وحتّى يسلّمه رسالة من «سر عسكر Ser Askar» وهو آمر الموقع العسكري في مدينة أرضروم، هذا بالإضافة إلى أنّني قد أخبرته أن يبلغ الباشا عن رَغبتي في قضاء يومين في القرية لجمْع بعض المعلومات، ولأجد كلّ الإجابات عن الأسئلة التي تدور في تفكيري، كما طلبت منه أن يجدَ لي مسكنًا مريحًا غير هذا المبنى الذي أخشى أن يتهدّم فوق رأسي، وبمجرد ذهاب الساعي إلى الباشا، وقبل أنْ يصل إليه، وجدتُ خورشيد بيك شقيق الباشا الأصغر ووكيله قد وصل إلى المنطقة، حيث كان عائدًا من جولته في أطراف السهل الفسيح، فتوقّف وتحدثنا قليلًا وتناولنا معًا قدحًا من القهوة، عرض علينا خدماته، ثمّ غادر متجهًا إلى مقرّ إقامة الباشا السابق، وبعد قليل رجع السّاعي ومعه ضابط من حراس الباشا ليلقي علينا تحيّة الوصول ويعرض علينا خدماته، وليعرف إنْ كنّا نحتاج إلى شيء، وأخبرني أيضًا أنّه سيهيّئ لنا منزلًا آخر يليق بي؛ لأقيم به خلال فترة تواجدي في المدينة.

الثّامن والعشرون من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

حلّ علينا الصّباح، ومازلنا مخيّمين في قرية جيفرميه، وقد أتاني ساع من قِبَل الأرمن ليخبرني أنّهم قد خصّصوا لنا منزلًا لإقامتنا، وأنّه جاهز للانتقال إليه حالًا، ومشينا مع الساعي ليرشدنا إلى محلّ إقامتنا الجديد، وبعد نصف ساعة، ونحن راكبين خيولنا وصلنا إليه.

تقعُ مدينة موش على وادٍ ضيّق شديدِ الانحدار، وبما أنّ مدخلها لم يكن في مواجهة موقع إقامتنا، فلم يكنْ من المستطاع مشاهدتها من هنا.

أرسل لي الباشا شخصًا يرحّب بي مرّة أخرى، وليعلم متى سأقابله، وعرفت أنّه كان في مسجد المدينة، فأجبته أنّني أريد مقابلته الساعة الثالثة بعد الظهر، وفي تمام السّاعة الثالثة أتاني جاوش باشي- أي رئيس المراسلين- التابعين للباشا، ليدلني على طريق «السرايا»؛ أي قصر الباشا الذي يقع في قرية جميلة تسمّى موجي يونك Mugiyunk التي تقع على بعد ميل أو أكثر من شرق المدينة.

أمّا السرايا فهي عبارة عن بناءٍ رباعيّ الزوايا، وبرج غير منتظم في كلّ زواياه، وهي كثيرة الشّبه بالقصر القديم للباشا الذي خيّمنا بالقرب منه عند مجيئنا عبر المدينة، وقد بنيَ هذا القصرُ الجديد على يد «أمين باشا»، ويوجد بجواره بالضبط قصر «خورشيد بيك» الجديد، وهو مازال قيْد الإنشاء، وعندما وصلت إلى القصر قادني أحدُهم إلى قاعة مرتفعة، تقع في إحدى زوايا الأبراج، الدخولُ إليها عن طريق شرفة القصر، ويطلّ هذا القصر على سهل أخضر فسيح، ونتيجة لارتفاعه غير العادي، فقد امتاز بهوائه العليل المعطّر بأريج زهور المروج المحيطة به، وحينها كان الباشا في الحريم، وعندما علم بوصولي همّ إليّ مسرعًا، واستقبلني بترحاب شديد، ولم تكن هذه المرّة

الأولى التي أقابله بها، حيث إنّني قابلته مرّة من قبل في أرضروم، أي أنّ هذا لقائي الثاني به، وقد رحّب بي وسألني عن صحتي وأحوالي.

أمين باشا هو سليلُ أسرة عريقة تعاقبت على حكم- باشوية- موش، وجَدّ أسرتِه الأكبر هو «علاء الدين بيك»، الذي أخبرتكم به مسبقًا، ومنذ عهد علاء الدين بيك، وكلّ مَن تولّى حكم الباشوية هُم أولاده وأحفاده، ما عدا بعض الفترات القصيرة، أمّا والد أمين باشا فهو سليم باشا الذي أعدِمَ عام ١٨٠٩ من قِبَل حاكم أرضروم، وقد كان أمين باشا حينها مازال شابًّا يافعًا في الخامسة عشر من عمره، أمّا شقيقه خورشيد بيك، فقد كان مجرّد طفل رضيع، كما أنّ له شقيقيْن آخريْن هما «شريف بيك»، وهو حاكم تفليس؛ ومراد بيك، وهو حاكم خينيس.

ويمتاز أمين باشا بوسامته الشّديدة، ويبلغ طوله ستة أقدام، أمّا باقي إخوته فهم يتميّزون باللّطف والدماثة الخلقيّة مثله تمامًا، ولكنهم يختلفون عنه من حيث عدم امتلاكهم لمواهب الوجاهة السّلطوية والشخصية التي يمتلكها أمين باشا.

التّاسع والعشرون من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

نحنُ الآن في صباح اليوم التّالي، وقد دعاني أمين باشا بالأمس للغداء معه ظهيرةَ اليوم، وتمتاز عائلة أمين باشا بالشّجاعة والمواهب القتالية والكفاءة الشخصية والسّمعة الطيبة، ممّا يمنحهم تأثيرًا واضحًا في سير الأحداث في عموم القطر.

لقد كان محلّ إقامتنا في المدينة ضيقًا وسيئًا لدرجة أنني قد أخذت حقائبي معي عند زيارتي للباشا لتناول الغداء معه حتّى لا أعود للسّكن، وأعود مباشرة إلى خيامنا بمجرّد انتهائي من زيارة الباشا.

وفي تمام السّاعة الحادية عشرة ظهرًا جاءني صراف الباشا ليرافقني إلى القصر، وقد وصلنا إلى القصر في منتصف النهار، تناولنا أولًا بعض أقداح من القهوة، وتبادلنا الأحاديث والمناقشات الودية، حتّى جهزت المائدة على الطريقة التّركية، ماعدا في وفرتها، ولم يكن هناك ما يميزها عن المائدة التي يقدمها أي شخصٍ عادي لضيفه، وشاركنا في الطّعام مجموعة من ضباط الباشا، وبالرغم من أنّ دعوةً من همّ أقلّ درجة إلى وليمة شيء غير مقبول لدى الأتراك، إلّا أنّ الكرد لا يعتدون بهذه العادات والمراسم المقيدة.

وبعد أنْ فرغنا من تناول الطعام دعوتُ الباشا إلى خيامنا في اليوم التالي لممارسة التّصويب بالأسلحة على علامات محدّدة، وقد كان العرض مغريًا له، حيث أنّه يحبّ مشاهدة هذه الأشياء، فوافق على دعوتي، ثمّ ذهبت لزيارة خورشيد بيك، وقد كان حديثنا كلّه ينحصر على الخيول بشكل رئيسي، ودعوته أيضًا ليشرفنا بصحبة أخيه إلى خيامنا، فوافق هو أيضًا.

الثّلاثون من حزيران/ يونيو، عام ١٨٣٨

في تمام السّاعة الحادية عشرة صباحًا، وصل أمين باشا، ووصل خورشيد بيك إلى موقع مخيّمنا، وقد كانت حاشية الباشا متواضعة وبسيطة، وبدأنا نمارس التّصويب، فجرّب الباشا التصويب ببعض المسدسات وبندقية واحدة، وقد أجاد التّصويب، كما أعجب كثيرًا بطريقة عمل الكبسولة المعدنية للرصاص وبالبندقية، واندهش كثيرًا عندما رأى بندقية صغيرة الحجم تحمل جسمًا صغيرًا أيضًا، وتلقيه إلى مسافة بعيدة.

أمّا خورشيد بيك فنظرًا لتفوّقه في الأمور القتالية عن جميع إخوانه، فقد كان أفضلَ بكثير من شقيقه الباشا، كما أنّه أكثر شجاعة بالرّغم من أنّهم جميعًا شجعان، والحقّ يقال إنّ هؤلاء الإخوة الأربعة موضعُ تقدير واعتزاز من رشيد محمد باشا؛ لأنّهم ساعدوه في إخماد بعض القلاقل الدّاخلية بين العشائر الكردية، وقد تعجبت كثيرًا عندما رفض خورشيد بيك الجلوسَ مع الباشا على مائدة واحدة، وقال: إنّه لن يتجرّأ أبدًا ويجلس معه أو يأكل في حضوره. وهذا يدلّ على مدى تقديره واحترامه لأخيه، وهذه صفةٌ منتشرة بين الكرد جميعًا، بالرغم من أنّ الباشا لا يمانع في مشاركة الطّعام مع ضابطه أو كاتبه وأشخاص دون مستواه؛ بل ويتحدث معهم، ويناقشهم في أحاديثَ كثيرة، حتّى أنّه كان يعتني بالحاضرين على المائدة أكثر من اعتنائه بنفسه، ولاحظت أنّ خورشيد بيك يتناول الطعام في خيمة أخرى من نفس الأطباق التي تناولنا فيها طعامنا، فيا لهم من أشخاص لا يستحقّون إلّا الاحترام والتقدير.

الأوّل من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

ذهبتُ إلى الباشا لأطلب منه الإذنَ بالمغادرة، وجلسنا قليلًا وتبادلنا الأحاديث وودّعنا بعضنا وسط مظاهر من الاحتفاء والودّ المتبادل.

مدينة موش: هي مدينة كئيبة في مظهرها وفي واقعها الدّاخلي أيضًا. يقيم بها ٧٠٠ عائلة من المسلمين، و٥٠٠ عائلة من الأرمن، ويعتبر الأرمن أكثر غنًى من المسلمين، ولهذا هُم ملتزمون بدفع ضريبة السّلاليانه بالكامل، وتصل إلى ألفي ليرة في العام، أمّا المسلمون فهُم ذوو الدخل الأقلّ، ولهذا تمّ إعفاؤهم من الضريبة السّنوية، كما أنّ أمين باشا لا يأخذ أيّ مبالغ من الرعية، وأحيانًا يفعل ذلك مع رؤساء العشائر عندما تتاح الفرصة.

وقد كان حسين باشا يحكم هذه الباشوية من قبل لمدّة عام واحد، ولكن تمّ استبداله بأمين باشا، وقد كان حسين باشا شخصًا جشعًا، يبالغ في فرض الضرائب على رعيّته من ثروات مزعومة أو مملوكة بالاسم فقط، وقد كان هذا من الظلم بحيث أجبرهم على التّنازل عن أقلّ احتياجاتهم التي يحصلون عليها بالكثير من المشقة، حتّى أصبحوا في حالة يرثى لها.

أمّا القشلق باراسي، أي المبالغ التي يدفعها رؤساء العشائر الكردية كبدل سكن المرابع الشّتوية في موش؛ فيتمّ دفعها إلى قائد حامية أرضروم.

إنّ أغلب قرى سهل موش يقيمُ بها الأرمن، وهذا ما لاحظته، أمّا القرى التي تقع وراء حدود السهل فيقيمُ بها الأرمن والمسلمون، وفي بعض الأحيان يقيمان معًا، وفي أحايين أخرى يقيمون في قرى منفصلة.

وعلى كلّ حال، ففي كلّ الباشوية نجد أنّ أعداد القرويين الأرمن يزدادون عن عدد القرويّين المسلمين، وأقصد بذلك القبائل المستقرة أو سكان الخيام.

وتوجد بعضُ المعدات التي تنتج هنا في جوار موش، وهي نظرًا لجودتها العالية مناسبة للتّصدير إلى أوروبا، والمنتجات الرئيسية هنا هي الحنطة والتبغ، والكثيرُ من الخيول والأغنام والأبقار، وطبعًا تحب القبائل الكردية الاحتفاظ بها وتربيتها، كما يقبل التّجار كثيرًا على شراء الأغنام لتصديرها إلى سوريا، وتصدر أيضًا إلى القسطنطينية، وهم يستوردون العفص والصمغ ليباعا في موش بعد أن يصنعَا في مكان آخر. والأقمشة القطنية من النوع الخشن تصنع للاستعمال في جميع أنحاء القطر، ويستوردون الأقمشة الحلبية التي تلاقي إقبالًا كبيرًا من سكان موش، ولاحظت أيضًا وجودَ بعض المنتجات المصنوعة في أوروبا هنا، ولكنها بكميّات محدودة، وذلك لأنّ سكّان هذه المنطقة دخلهم قليل؛ لذا يضطرّون لشراء المنتجات المحليّة ذات الثمن الذي يناسبهم، ولا يثقل كاهلهم.

وهذا السّهل بصورة عامة يمكنني اعتبارُه سهلًا جميلًا ولطيفًا، يبلغ طوله ٤٠ ميلًا تقريبًا، أمّا عرضه فيبلغ حوالي ١٢ إلى ١٤ ميلًا في أقصاه، ويتمّ ريّه عن طريق قنوات متعدّدة، ولكنه متحجّر ومجدب في بعض أجزائه، ويقال أنّه يحتوي على أكثر من مائة قرية، تحتوي كلّ قرية على حوالي ٢٠ إلى ٤٠ عائلة، وهناك بعض القرى التي يزيد سكانها عن أربعين عائلة.

المناخ هنا أقلّ حدّة من المناخ في أرضروم، خاصّة من ناحية تساقط الثلوج، كما أنّ البرد ليس قاسيًا، كما في أرضروم، أمّا الصيف هنا فهو أشدّ حرارة، وعادة ما يكون رطبًا أيضًا.

وقد سجّل البارومتر أنّ ارتفاع هذه المنطقة عن مستوى سطح البحر يصل إلى ٤٦٩٢ قدمًا، وبهذا يكون أقلّ من مستوى ارتفاع سهل أرضروم على سطح البحر بمقدار ١٣٠٠ قدمًا.

وما يملأ نفسي بالبهجة هي بساتينُ الكروم الجميلة المقامة على مدرجات الجبال، والتي أمتّع عيني بها من حين إلى آخر، وهي ذات إنتاج وفير، وهناك أيضًا إنتاجٌ كثير من البطيخ هنا، وهذه البلاد هي بلاد الفاكهة؛ لذا لا نبحث عن أي فاكهة إلّا وتجدها؛ بل وبوفرة، ومعظمُ الأشجار التي يمكن مشاهدتها هي الأشجار المزروعة حول القرى.

وقد سمعتُ أنّ السلسلة الجبلية التي تمتدّ نحْو الجنوب، مغطاه بغابات البلوط، وعلمت أيضًا أنّها ليست أشجار كبيرة، وبمناسبة الحديث عن البلوط، فيجب أنْ أخبركم أنّ هناك أنواع عديدة من البلوط قسم ينتج منه العفص، وقسمٌ آخر يستخرج منه المن، وهو عبارة عن إفراز سكريّ لا يحتوي على أي صفات طبية، أو أي مذاق خاصّ، ويتمّ جمعه عن طريق تعليق الأغصان التي عليها الأوراق حتّى تجنى، ويتمّ هزّها فيتساقط منها المنّ، ويتمّ تصفيته عن طريق الغلي.

وتزال بقايا الأوراق أو أيّة مواد عالقة زائدة أخرى فيها، ويستخدم هذا المن في صنع المربّات بدلًا من السكر، وهو من المنتجات غير المتوافرة، ففي بعض المواسم يكون المحصول غيرَ جدير بالجهد الذي سيبذَل في جمعه، وتعتبر مواسم الجفاف هي أفضل المواسم للحصول عليه، أمّا المواسم الرّطبة فهي أقلّ المواسم إنتاجًا له، ومع ذلك فإنّ الصيف الحالي ونتيجة لارتفاع درجة الحرارة الزائدة؛ أدّى إلى نقصان كميّات المنّ المتوقّع جمعُها بشكل واضح، مع أنّ درجة الحرارة لم تزد إلّا درجة واحدة فوق المعدّل.

الثّاني من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

بالأمس قمتُ بتوديع أمين باشا، وبشكره على الخدمات التي قدّمها لي، فقام بتعيين حارسٍ خاصّ بي، تكريماً لي وليصاحبني إلى ديار الأغا القادم، وتقع منطقته خارجَ صلاحياته الإدارية على الطريق المتجه إلى ديار بكر، وقد توقّعت أن ألتقي بحافظ باشا هناك، وقد كان هناك طريقان يصلان من موش إلى ديار بكر.

الطّريق الأوّل: بالانحدار أسفل نهر مراد سو من الضّفة اليمنى، إلى بالو Palu، وبعد ذلك نستدير نحْو الجنوب فوق الجبال.

أمّا الطّريق الثاني: فهو باجتياز الجبال مباشرةً إلى الجنوب، ويعتبر الطريق الثّاني أقلّ وطئًا من قِبَل المسافرين، كما أنّه طريق وعر، أمّا الطريق الأول فهو طريقٌ غير مباشر أيْ أنّه طويل، وقد علمت أنّه لا يوجد سوى هذين الطريقين، وينبغي عليّ أنْ أختار أحدهما لا محالة؛ لذا اخترت الطّريق الأقصر، فغادرت موش بصحبة شريف أغا، وتسعة من الفرسان الكرد الأشداء.

شريف أغا هو أحدُ رؤساء عشيرة عيلمانلي (elmanli) التي تقضي فصل الصّيف في الجبال المحاذية للسّهل من جهة الجنوب، وتقضي فصل الشتاء في مرابعها الشّتوية، أي في القرى التي تقع على أعتاب نفس الجبال.

وفي اليوم الأوّل من مسيرتنا وصلنا قرية تسمّى «قزل آغاج»، وتقع هذه القرية تقريبًا في الطّرف الأقصى من السّهل، وبالضبط أسفل الجبال، وتقع أيضًا على ضفافِ جدول صافٍ ذي مياه وفيرة يجري خلال الوادي متّخذًا خطًّا مستقيماً ليصبّ في نهر مراد جاي، الذي شاهدناه يتعرّج خلال مركز السّهل،

وعلى مسافة ستة أميال من هنا، وتبعد قرية قزل آغاج عن قرية جيفرميه Chevermeh بحوالي ١٠- ١١ ميلًا.

وقد مررنا في طريقنا إلى هنا بعدّة قرى، ورأينا البعض في المنطقة التي تقع على مقربةٍ من مركز السّهل والجزء الخصب من السهل.

وبالرّغم من أنّ قرية قزل آغاج تبدو كبيرة، إلّا أنّها لا تضمّ سوى ٣٠ عائلة من الأرمن، وتحتوي على أبنية متعدّدة تمنحها اتساعًا، ويقيم في هذه الأبنية الكرد ومواشيهم.

وفي فصل الشّتاء تقيم ثلاثون أسرة من عشيرة شريف آغا هنا. وجميع أهالي هذه القرية يشتكون من الفقر المدقع، وحتّى إنْ لم يشتكوا فيمكن استنتاج ذلك من أكواخهم التي تخلو من أبسط الأثاث، وهذا الأمرُ هو أكبر دليلٍ على عدم مقدرتهم المالية؛ بل وحاجتهم الكبيرة للمال، وربّما يعود ذلك لطبيعةٍ أرضهم المتحجرة والصّخرية التي يستحيل أنْ يزرع بها الحنطة والشعيرة، ولا يمكن زراعتها إلّا بالدخن فقط.

وكلّ ما يملكونه هو ٣٠٠ رأس من الماشية، وحوالي ٦٠٠ رأس من الخراف، أقمْنا خيامنا في هذه القرية، وبعد أن فرغنا من ضبط الخيام والأمتعة، زارنا شريف أغا، وعرض علينا خدماته ورحّب بنا كثيرًا وشربنا القهوة معًا.

وعندما سألته عن عددِ أفراد عشيرته أجابني قائلًا: إنّها تكون من ١٨٠ أسرة، وقال: إنّه قبْلَ حوالي مائتي سنة هاجر إلى هنا سبعُ أسرٍ فقط من جوار أورفة، واستقرّوا هنا، وازداد عددُهم حتّى وصل إلى ١٨٠ أسرةٍ، وهم يعيشون تحت رعاية أسرة «أمين باشا».

وأعتقدُ أنّهم قد جاءوا إلى هنا منذ حوالي مائة عام فقط، وهذا الرقم أقرب إلى الصّحة، كما أنّ الكرد لا يكترثون إن كانت مائة عام أو أقلّ؛ فهُم لا يلقون بالًا إلى الفترات الزمنية بخصوص هذه المسائل.

وتدفع عشيرة شريف أغا الضريبةَ الشّتوية التي تسمّى قشلق إلى الدولة، وتقدّر بحوالي ٤٨٠ ليرة.

وعندما سألته: لماذا يعطون للحكومة هذه المبالغ بدلًا من بناء منازل لأنفسهم؟ فأجابني قائلًا: الأمرُ لا يقتصر على إقامة منازل، فهذا أمر سهل؛ ولكن يجب عليهم أنْ يمتلكوا أراضي لجمع التّبن منها، والحقول لزراعة الذرة والحنطة.

وبما أنّ السّهل كله مشغولٌ مسبقًا، فليس بإمكانهم فعل هذا حاليًا. ويمكنني أن أضيفَ إلى كلامه سببًا آخر وهو أنّهم قد تعوّدوا على التنقل والبحث عن الماء والكلأ، وسيكون من الصّعب اتّباعهم لعادات أخرى وتقيدهم بالزراعة والاعتناء بالمحاصيل، كما أنّهم يلتزمون أيضًا بجمع التبن، وحرث الأرض، في الوقت الذي ينشغلون فيه برعاية أغنامهم ومواشيهم في الجبال، كما أنّهم لا يواجهون أي مصاعب تحول دون حصولهم على مناطق الرعي، هذا إذا عاملوا الأرمن بشكل جيّد، كما أنّهم يدفعون هذه الضّريبة مقابل إزعاجهم للقرويّين، وإذا كانت تدفع لهم شخصيًّا بدلًا من السّر عسكر (قائد الحامية).

ويعتبر شريف أغا أكثر قوّة وحزمًا من رشيد محمد باشا، وذلك لأنّه نجح في إخماد الاضطرابات التي سبّبتها عشائر خازران الكردية (kharzan)، بينما فشل الثاني.

الثّالث من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

تركنا قرية قزل آغاج، واتّخذنا الجانب الجنوبي للسهل، حتّى وصلنا حدّها الأقصى في حوالي نصف ساعة، ثمّ استدرنا نحْو الجنوب هابطين من الجبل، وبعد أنْ وصلنا إلى قمّة السّلسلة الجبلية الأولى المسمّاة كوشم داغ (koshm dagh) التي يبلغ ارتفاعها ٦٨٠٠ قدمًا، رأينا قمّتين أخرييْن أعلاه تسمى آنتوغ داغ Antogh Dagh، وقد كانت مكسوّة بالثلوج التي يبدو أنها تذوب خلال فصل الصيف.

ويبدو واضحًا أنّ هذا الجبل هو مركز المجموعة الجبلية، لأنّ جميع السلاسل الجبليّة الأخرى كانت أقلّ منه ارتفاعًا، وقد كانت أشجار البلوط تغطّي منحدرات الجبال، ثمّ هبطنا إلى وادٍ صغير عميق، وبعد أنْ هبطنا وصعدنا مرتفعات مختلفة عدّة مرّات، وهذه المرتفعات ليست شديدة الانحدار وليست طويلة، وصلنا إلى:

وادي «شين Shin»:

يسكن هذا الوادي بعضُ البيوت الكردية المتفرقة، وعندما وصلنا إلى هناك كانت هذه البيوت الكردية المتفرقة، وعندما وصلنا إلى هناك كانت هذه البيوت فارغة، وكان أصحابها في المرتفعات ساعين وراء المراعي والتصييف.

أقمْنا خيامنا على ضفاف جدول رقراق، وكان بالقرب منّا بعض خيام للكرد، وقد حصلنا على كلّ ما نحتاج منهم مثل الطعام وخلافه.

تقوم حوالي ٥٠ أسرة بزراعة وادي شين، وبالرّغم من صغر وضيق هذا الوادي إلّا أنّه جميل وأخّاذ، وبقدر ما تتّسع لهم هذه الغرف الصغيرة الموجودة في تلك البيوت، فإنّهم يقيمون هنا حتّى في فصل الشتاء.

تنتمي هذه الأسر إلى القبيلة المسمّاة «باديكانلي» (badekanli)، وتتكون هذه العشيرة من ٥٥٠ أسرة، وموقعها الرّئيسي والأصلي يقع تمامًا جنوب المنطقة الحالية، حيث أنّهم يمضون فصلَ الشّتاء على ضفاف نهر دجلة، وتلتحق بهم بعض العائلات التي لا تجد مكانًا هنا في فصل الشتاء، فتضطرّ أن تلتحق بالعشيرة الرّئيسية هناك.

محاصيل هذه المنطقة مختلفة، وقد لاحظت أنّ الكرد يسقون الأرض بطريقة جيدة، وقد رفضت هذه القبيلة الانصياعَ لأوامر رشيد محمد باشا الجائرة الظالمة، ولم تجدْ مقرًّا لها في هذا الوادي الضّيق، واتّخذت منه مكانًا تدافع فيه عن نفسها، ولكنه هاجمها عدّة مرّات، ونتيجة الخسائر المريعة التي لحقت بكلا الطرفين، فلم تجد أمامها إلّا أنْ تخضع لسلطانه، مع أنّهم كانوا يقاومون ببسالة، ولكنّهم استسلموا له أخيرًا، فقام بتجنيد ٣٠٠ شخصًا منهم للخدمة العسكرية، وقد خسرت العشيرة كلّ ما تملك من مال وسلاح، ومنذ هذا الوقت فقدت هذه العشيرة أفرادها ونفوذها وأهميتها.

وقبل هزيمتهم كان الكرد يتّخذون من هذه السلسلة الجبلية موقعًا مستقلًّا لهم. ولم يكنْ مسموحًا للقوافل والأفراد بالمرور من هناك دونَ حماية من قبل الكرد، وذلك مقابل هدية.

زارني شريف بيك كالعادة، وجلسنا معًا وتناولنا قدحًا من القهوة، ووجدت أن هذه أفضلُ فرصة لأسأله عن اليزيديّين الكرد، فأجابني قائلًا: إنّ هؤلاء الكرد يتظاهرون بأنّهم ليسو مسلمين، حتّى أنّهم لا يتبعون النبي محمد ﷺ، وهم يطلقون على الشّيطان اسم «مليكي تاوس Meliki Taus» أي طاووس الملائكة، وقال أيضًا إنّهم ينزعجون كثيرًا إذا ذكرت أمامهم كلمة الشّيطان، كما أكّد لي رواية كنت

سمعتها من قبل وهو أنّه إذا قام أحدُهم برسم دائرة حول مكانٍ يقف فيه أحدهم فسيظلّ هذا الشخص واقفًا في مكانه حتّى تزال الدائرة تمامًا، وقال أيضًا إنّه يجهل الكثيرَ عن معتقداتهم الدينية، أمّا الجراغ سونـدوران Chairagh Sondoran – أي مطفئ الأنوار– فهُم فصيلة متميّزة منهم، حيث أنّهم يرتدون ملابس جميلة يضعون فيها لوحةً من الخشب، ويرتدون معطفًا جميلًا مزركشًا، ومبطّنًا بالفراء، وبعد ذلك يقومون بطقوس العبادة، وإذا مات أحدُ الأفراد المهمّين منهم فهم يدفنون معه كلّ أملاكه الثمينة وأسلحته، وعادة يفعلون هذا في سرية تامّة حتّى لا يتسلل أيّ شخص ويفتح القبر ويسرق هذه الأشياء الثمنية والأسلحة.

إنّ أكراد ديوجيك (dujik kurds) معظمهم من هذه الطائفة، ويسميهم المسلمون بالقزل باش أي ذوي الرؤوس الحمراء.

ومعظمُ العشائر الكردية مسلمة، وبعضها من اليزيديين، ونادرًا ما تجد عشائر مطفئي الأنوار هذه.

الرّابع من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

بمجرّد صعودنا بدأنا نرتفع إلى (دار كوش داغ)، واستغرقت مسيرتنا حوالي ساعةً ونصف، حتّى وصلنا إلى أعلى موقع في هذه السلسلة التي يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر ٦٤٩٠ قدمًا. ثمّ هبطنا من خلال الممرّ الذي لم أرَ أصعب منه حتّى الآن منذ بدأتُ هذه الرحلة، فقد كان هذا الممرّ يقودنا أحيانًا إلى تجاويف شديدةِ التحدّر داخل التلال، وأحيانًا كان يهبط بشكلٍ متعرّج في وجه صخرة شاقولية الشّكل، حتّى أنّ خيولنا رغم أنّها مُقادة إلّا أنّها كانت تنزلق لشدة وعورة المكان وانحداره.

وقد كان من الخطر سيْرها في هذا الممرّ الذي يمكن أن يقذف بها إلى قاع الوادي السّحيق الذي كان عمقه ١٢٠٠ قدمًا، وقد كنّا نسير في هذا المنحدر بحذر تامّ خشية أن تزلّ أقدامُنا وتنتهي حياتنا في ثوانٍ على هذا المنحدر المهلك.

وأسفل هذا المنحدر كان يجري نهر، وعندما هبطنا بسلام أقمنا خيامنا على ضفاف هذا النهر، وكان أمامنا مباشرة اتّجاه يصل إلى الناحية الشرقية، ولكنه بعد أنْ يبتعد قليلًا عن الوادي يغيّر مساره نحْو الغرب حول الجبل الذي يعلوه، امتطينا خيولنا مرّة أخرى، واتّجهنا نحْو الزاوية الشمالية الغربية، وعلى امتداد طريقنا شهدنا ينابيعَ عديدة تنبع من أطراف الجبال، وكلّها مسلّكه بشكلٍ جيد من خلال قنوات إرواء اصطناعيّة طويلة، تستخدم لريّ البساتين الموجودة في كلّ مكان يصلح للزراعة، وكان بالقرب منها يوجد كوخ، وبعد مسيرة طويلة استغرقت ساعتين من الإرهاق والتّعب، وذلك لأنّ امتطاء الخيول في هذه

الأماكن المنحدرة يعتبر مخاطرة كبيرة؛ وجدنا أنفسنا في الاتجاه المقابل للقمة التي قطعناها من قبل، على مسافة ميل منها تقريبًا.

انتظرنا هنا ساعتين حتّى تصل حقائبنا، وقلقنا كثيرًا على أصحاب البغال، وخفْنا أن يقع أيّ مكروه لهم، وهم يهبطون هذه المنحدرات الخطرة حاملين هذه الأمتعة والحقائب.

ثمّ واصلنا تقدّمنا سالكين ممرّاتٍ ضيقةً مخيفة ومتعرّجة على طوال حوافّ الجبال كثيرة الشّبه بذلك المنحدر الذي ذكرته سابقًا.

وبعد نحْو ساعتين ونصف هبطنا إلى ذلك الجدول الذي كنّا نراه في الوادي الذي كان أسلفنا، ويسمّى «كولب سو Kolb- Su»- أي مقبض الماء- وهو نهر جميلٌ غزير المياه، وعندما كنّا نعبره كانت المياه تصل إلى ركاب خيولنا، وبعد عبورنا وقفنا ننتظرُ وصول حقائبنا التي لم تصل حتّى الآن. واصلنا مسيرنا دون توقّف لمدّة ساعتين حتّى وصلنا إلى:

قرية آغارون:

وهي قريةٌ أرمنيّة يطلق عليها سكّانها اسم أغارون، أمّا الكرد فيسمّونها «خنرير». تقع هذه القرية في حلق سلسلةٍ من الجبال المفتوحة على السهل، وتتميز بموقع جميلٍ للغاية، لها مظهر ساحرٌ يجذب الأرواح من بعيد، حيث إنها محاطة بمجموعة من أشجار الجوز فخمة المنظر.

من هذه القرية حصلنا على الأطعمة، وكانت جولتنا الطويلة التي استغرقت ١٢ ساعة قد فتحت شهيّتنا، وهنا قابلت شخصًا يسمّى أحمد أغا، وهو أحد رجال حافظ باشا، وهو رجل متحضّرٌ، يتمتّع بمقدار كبير من الرقي والذوق، وقد أمر بتهيئة الطعام لنا حتّى نستطيع مواصلة سيرنا.

سكّان هذه القرية اشتكوا لنا بصوتٍ مرتفع عن الأموال الباهظة التي يدفعونها مقابلَ الضّرائب المفروضة عليه، حتّى أنّهم قالوا إنّهم لم يعودوا يملكون شيئًا لتأمين هذه الضّرائب المفروضة عليه.

ثمّ فكّرنا أنّه يمكن أن يكون الكردُ المكلّفون بتوصيل حقائبنا إلى القرية المحددة قد اتّخذوا طريقًا آخر أسهل وأقصر، وأنّهم لن يمرّوا علينا؛ لذا لا داعي لانتظارهم، حيث إنّنا اتّفقنا معهم على قرية محدّدة للاستراحة، وربما يكونوا قد غيروا الطريق، ولهذا صعدنا الجبل مرّة أخرى في تمام الساعة الخامسة والنصف، كما أرسلنا أحدهم ليخبر المكلّفين بإحضار الحقائب أنّنا تابعنا سيْرنا باتّجاه الهدف المرسوم، وفي تمام السّاعة السابعة مساءً وصلنا إلى:

قرية «نرجي Neriji»:

وهذه القرية تعدّ مقرًّا لأحد الأشخاص الأكراد البارزين، ويسمّى «حاجي زلال أغا»، وقد استقبلنا هذا الرجلُ بترحيب كبير، وعرض استضافتنا، وأمر بتجهيز عشاء مناسبٍ لنا، والذي لم نكن في حاجةٍ شديدة إليه؛ حيث إنّنا كنّا قد تناولنا الغذاء منذ ساعتين في قرية آغارون، وحتّى هذا الوقت لم تظهر أمتعتنا، ولذلك بتنا فى العراء، ومن حُسن حظّنا أنّ الجوّ كان حارًّا لدرجة أنّنا لم نحتج لأيّ غطاء، وهذه المسافة التي قطعناها في عشر ساعات قدّرها الكرد بثماني ساعات فقط، وربّما ذلك لأننا كنّا نسير قليلًا على الأقدام وقليلًا على ظهر خيولنا، كما أنّنا كنّا نتوقّف عدّة مرّات منتظرين أمتعتنا التي لم تصل.

ولقد استغرقت مسيرتنا اليوم مع خيولنا نحْو ١٥ ساعة ونصف حتّى وصلنا إلى قرية آغارون، بالإضافة إلى ساعة ونصف حتّى وصلنا إلى قرية «نيرجي»، وأنا في كلّ جولاتي ورحلاتي لم أمرّ قطّ بهذه الصّعوبات والأماكن الخطرة من قبل.

حيث أنّه سيكون من السّهل على عدّة أنفار أن يقطعوا الطريق على جيش جرّار في هذه المناطق الخطرة، وسيكون من الصّعب سحب المدفعية فوق هذه الممرّات شديدة الانزلاق وكثيرة المنحدرات والمخاطر، ومع ذلك فقد سمعت أنّ سلسلة جبالِ خارزان أكثر وعورةً وخطورة، ولا يستطيع أيّ حيوان محمّل بالأمتعة اجتيازها ماعدا البغال فقط، حيث إنّها تتمتّع بقدرة عجيبة على اجتياز هذه المخاطر.

الخامسُ من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

في الصّباح الباكر من هذا اليوم وصلتْ حقائبنا، وكانت خيولنا مرهقة؛ لذا لم نستطع المضيّ أبعدَ من قرية «أغارون» بالأمس، أمّا المكلّفون بتوصيل حقائبنا فقد قوبلواَ بأفضلَ معاملة من أهل القرية، بناءً على أوامر أحمد أغا، وقد علمت أنّ بعضَ خيولهم قد انزلقت من حوافّ الجبال، ولكنها لم تصَبْ بأيّ أذى، وكذلك حقائبنا، وهذا في حدّ ذاته يعتبر معجزة، أمّا حقيقة الأجهزة التي معنا فلم تصبْ بأيّ ضرر.

وقد استضافنا رئيسُ عشيرة كرديّ عجوز، وهو أحدُ مَن قاوموا جيوش رشيد محمد باشا، فقام بحرق منزله، ففرّ إلى الجبال، واتّخذ منها بيتًا وأمانًا له، ولكنه أجبر بعد ذلك على الاستسلام؛ حيث حجز في ديار بكر لمدّة عام كامل، ثمّ أرسل مدّة أخرى إلى مكانه الأصلي؛ ليقيم مع أهله وإخوانه، واستعادَ سلطته السابقة، ولكنه وجد نفسَه دونَ مال أو بيت، وقد تفرّق مساعدوه، ومات اثنان من أبنائه نتيجة لمناخ ديار بكر.

كما أنّ بصره قد ضعُف، وامتلأت عيناه بالماء الأبيض، وهذا المرض لا علاجَ له إلّا الجراحة، وقد طلب منّي مرافقي في الرّحلة الدكتور «ديكسون»، ولكنّه شعرَ بألم كبير وخيبة أمل عندما علم أنّه لا يمكن معالجته سوى بالجراحة، وأخبره الدّكتور ديكسون أنّه ينبغي عليه أنْ يسافر إلى القسطنطينية لإجراء العملية، ولكنه قال إنّه لا يستطيع أنْ يسافر إليها، وإنّ هذا السفر خارج حدود إمكانياته ووسائله.

وقد كان الحاج أغا لا يتحدّث التركية إلّا نادرًا، ولكنه يتحدّث الكردية الدارجة في ديار بكر؛ لذا كان يستخدم كاتبَه ليترجم الحديث بيننا، وعندما سألته:

لماذا تصدّى وقاوم رشيد محمد باشا الرجل الذي يتمتّع بصلاحيات كثيرة من الملك مع أنّه يبدو رجلًا حكيمًا، ولا بدّ أنّه كان يعلم أنّه لن ينجح في هذه المقاومة اليائسة؟ فقال لي إنّه لا يوجد أيّ شخص من أفراد عائلته أو آبائه خضع أو استسلم في أيّ زمن لسلطة الباشوات، ولم يدفعوا أيّ ضرائب للسلطان؛ لذا فهو لا يعلم لِمَ يريدون إجباره هوَ على أن يقوم بذلك؟!.

وعندما رآنا جميعًا نقرأ ونكتب، حيث أنّه كان يجلس دائمًا بالقرب من خيامنا؛ سألنا إذا كنّا جميعًا نتقن القراءة والكتابة؟ فأجبته قائلًا: إنّ معظم أبناء ريفنا الإنكليزي يعرفون القراءةَ والكتابة، فقال لي إنّه لا يحتاج إلى القراءة والكتابة، وإنّما يحتاجُ إلى تعلّم فنون القتال والأسلحة، حيث إنّه لا يمرّ عليه يوم واحد دون أن يدافع عن ماله أو عرضه أو نفسه، أو للانتقام من كلّ مَن سبّب له أيّة آلام، وأضاف في حسرة واضحة.. وقد ظهرت على وجهِه ملامحُ الألم نتيجة لأنّه أعزل، وقد تحولت حياته إلى هذه الحالة المزرية؛ أنّه كان فِي مقتبل شبابه يملك الكثيرَ من الخيل والمال والرجال والأسلحة، ولكن كلّ شيء زال اليوم، وأصبح مجردًا من كلّ هذه المسائل، ولذلك فهو في أمسّ حاجةٍ إلى القوّة التي ترفع من شأنه حتّى يصبح وضعُه مقبولًا؛ نظرًا لوضعه السابق.

أمّا زوجته فقد كانت طويلة، وتتميّز بصفات كثيرة أفضل من الرجال، حيث قالت لي إنّها عندما كانت ترى زوجَها يهاجم في منزله أو بين عشيرته وأهله، كانت تقفُ دائمًا إلى جانبه، حتّى أنّها كانت تحشو الأسلحة بالرصاص في نفس الوقت الذي يمطرهم فيه المهاجمون بوابلٍ من النيران.

وهذه المميّزات تمتاز بها جميعُ النساء المقاتلات في كردستان، فهم لا يهربْنَ من المعارك كسائر النساء، وإنّما يقاتلْنَ مثلهم مثل الرجال، ولهنّ دورٌ فعّال في كلّ

المعارك، وقد سمّي «حاجي أغا» نسبة لجدّه الذي حجّ في مكة المكرمة، ومنذ هذا الوقت وقد انتقل هذا اللقب بين أبناء الأسرة.

ويبلغ حاجي أغا حوالي السّتين من عمره، وهو طويل وقويم البنيان، ويبدو واضحًا من مظهره أنّه كان رجلًا قويًّا في صباه، ويستحقّ أن يكون رئيسًا لعشيرة متمرّدة.

وعندما كنّا هناك كان أحدُ رجاله مصابًا بجرح من شظايا قذيفة أثناء معركة عشيرة خارزان مع الحكومة العثمانية، ولحُسن الحظّ لم يكنِ الجرح عميقًا، فوصف له الدّكتور ديكسون علاجًا، وسرعان ما التأم الجرح، وقد كان الحاج كريمًا جدًّا معنا، وزوّدنا بأشياء كثيرة مثل الحليب والخراف والأطعمة والخبز.. إلخ.

وتقديرًا لهذا الكرم الشّديد أهديته شالًا إنجليزيًّا فاخرًا وبعض المناديل المطبوعة في القسطنطينية، علمًا بأنّ الكرد يحبّون هذه المناديل بشدّة، وقد لفّ رأسه بهذه المناديل.

وحضر إلينا في الليل ليودّعنا، حيث إنّنا نوينا أن نغادر في صباح اليوم التّالي، وقد اعتذر كثيرًا عن مقابلته الجافّة لنا، وقال أيضًا إنّه بحث كثيرًا عن فرس أصيل ليهديه لنا، ولكنّه لم يجدْ ما يليق بي، فشكرتُه كثيرًا، وأكّدت له أنّه استقبلنا أفضلَ استقبال، وأنّني سعيد كما لو أنّه أهداني هذا الفرس الأصيل، وأنني مكتفٍ بالهدايا التي أخذتها.

قرية نيرجي:

تمتازُ هذه القرية بموقع جميل، حيث أنّها تستظلّ بقمّة جبل يطلّ على الحقول الخضراء التي تنحدر باتّجاه نهر «قولب صو»، ويحيطها أعدادٌ كبيرة من أشجار الفاكهة المتنوعة.

وبجوارها يقعُ وادٍ صغير يوجد به شلالٌ جميل يتدفّق منه الماء العذب، فتحصل القرية على مياهها منه، وتروي حقولها الخضراء.

معظمُ الصّخور هنا جيرية، أمّا الأرض فهي صخريّة وصلبة، وأينما وجدت أماكنُ صالحةٌ للزراعة فإنّها تحرث وتزرع.

أمّا مناخ هذه القرية في الشتاء فليس قاس، ولكن الصّيف هنا حارّ، ثمّ يصبح ألطفَ إذا هبّت عليه بعض النّسمات العليلةً التي تشرح الصدور.

والشّتاء هنا قصير، ونادرًا ما تتساقط الثلوج، ولا تغطي الأرض لفترة طويلة، ويشير البارومتر الذي بحوزتي أنّ ارتفاع هذه القرية عن الأرض يبلغ ٣٥٥٠ قدمًا عن مستوى سطح البحر.

والحصادُ هنا قد انتهى تقريبًا، وانتشرت الأنواع المختلفة من الفاكهة، أمّا الأعناب والبطيخ المزروعة هنا لم تنضج بعد.

وعندما سألتُ عن الضرائب الباهظة التي يشكو منها الناس من أحمد أغا أجابني قائلًا:

إنّهم محقّون، وقد زاد الأمر عن حدّه، وقد اقترب الناس من المجاعة، ولا يستطيعون دفع الضرائب. وقال أيضًا إنّه يعتقد أنّ حافظ باشا يجهل هذه الحالة، وإلّا فإنّه لن يتوانى عن إصلاح هذه الأمور. وحمّل هذه المشكلة كلّها على عاتق «سعد الله باشا» حاكم ديار بكر، وحتّى الآن لم يتجرأ أحد أن يخبر حافظ باشا بهذه المشكلة.

وأعتقد أنّ أحمد أغا محقٌّ في هذا الكلام، فهو شخصٌ تركي غريب مكلف فقط بجمع الضرائب، كما يبدو عليه الإنسانية والتحضّر. وقد عرض عليّ أنْ يصاحبني فوافقت، كما أرسل الحاج أحمد أبناءه معي.

السّادس من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

استيقظنا في وقت باكر للغاية لمغادرة القرية، ومواصلة رحلتنا، وبالرغم من هذا وجدنا الحاج مقبلًا علينا ليودّعنا ويتمنّى لنا التوفيق، وكان مازال يلفّ رأسه بالمناديل والشّال الذي أهديتهم له بالأمس.

امتطينا خيولنا وارتقينا إلى الجبل الأشمّ في تمام السّاعة الخامسة صباحًا، متّجهين نحْو الغرب لنهبط إلى ضفّة نهر «قولب صو» الذي عبرناه، ثمّ قطعنا سلسلة من الجبال المنخفضة المغطّاة بأشجار البلوط القصيرة ذات الثمار المتعددة الأنواع، ثمّ عبرنا جدولًا صغيرًا يسمّى «ياق صو Yak – Su» ولاحظت أنّ المناخ هنا مختلف نوعًا ما، وعلى ضفاف النهر رأيت أشجارَ الدلب الشرقية، وأشجار «أجنوس كاستوس»، أمّا الحقول القريبة فقد كانت مزروعة بالقطن.

وفي تمام العاشرة صباحًا وصلنا إلى:

قرية «دارا كول Dara Kul»:

ترتفعُ هذه القرية بمقدار ٢٩٩٣ قدمًا عن مستوى سطح البحر، وتقع على الضفّة العليا لنهر مهمّ يسمّى «ساروم صو– Sarum Su» أي نهر السيف، وحوضه متّسع للغاية، وينقسم الجدولُ إلى عدّة قنوات، وقد كانت مياهه صافية لدرجة أنّني رأيتُ في قاعه العديد من الحفر المربّعة المعدّة على امتداد واحد لزراعة العنب، وقد سمعت أنّ أعناب هذه المناطق يكون ممتازًا وناضجًا.

ونهر «ساروم صو» مثل الأنهار الأخرى التي اجتزناها، يصب في نهر دجلة ويتّحد معه في منطقة الجزيرة، وإذا أردنا الذّهاب إليها من هنا فإننا نستغرق رحلة تبلغُ مسير ثمانية أيام.

يقيم في هذه القرية حوالي ٦٠ أسرة، منها إحدى عشرة أسرة أرمنيّة فقيرة للغاية، وتقوم بالعمل لدى باقي الأسَر من المسلمين، وتقع هذه القرية في مقاطعة «أليج Alijch».

وعندما سألت الأرمن عمّا إذا كانوا قد انضمّوا إلى المسلمين في مقاومة رشيد محمد باشا، فأجابوني بأنّهم أجبروا على ذلك من قبل المسلمين.

أمّا أحمد أغا فقد أخبرني بالعكس تمامًا، وقال إنّهم كانوا لا يقلّون عن المسلمين بسالة وعنادًا في المقاومة.

تربةُ هذه القرية طينية بيضاء متحجّرة جدًّا، ولكنْ نظرًا لوفرة الماء هنا، فإنّه من السّهل ريّها.

المنازل هنا مبنيّة من القطع الطّينية التي يمكن تقطيعها بسهولة. والطقس هنا جافّ، وقد صادفنا بعض العواصف الرّملية الشديدة التي سبّبت ارتفاع الغبار والأتربة في الجوّ حتّى أصبحت كالغيوم.

وبعد القليل من زخّات المطر تخلّصت السماء من هذه الغيوم.

السّابع من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

وصلنا إلى بلدة اليجه، وتعني (العين السّاخنة)، وكانت الرحلة إليها سهلة في يوم قطعنا خلاله حوالي ١٠ إلى ١١ ميلًا، كانت السّماء صافية، والجوّ يبعث في أرواحنا بهجة وسرورًا، بعد أنْ كانت السّماء ملبّدة بالغيوم التي نتجت عن العاصفة الرّملية بالأمس، وكان ابن الشّيخ هو الذي تولّى أداء واجبات أبيه الرسمية إذ كان الشّيخ حينها في إحدى مهمّاته بمدينة ديار بكر، وقد اختار لنا مكانًا رائعًا لنقيم فيه خيامنا، وسط حديقة غنّاء تبعد عن المدينة نحْو ميل، وتتوسّطها عين مياه، وتكثر فيها أشجارُ الفاكهة، كان المكان أكثرَ من ساحر، يطلّ على سهل فسيح أخضر ممتدّ إلى مرمى البصر، وكانت اليجه ترتفع عن سطح البحر بـ (٣٧٧٩) كما قاسها لنا البارومتر.

كان ابنُ الشّيخ يعرف القليل من التركية. زارني عبدي بيك في زيارة مجاملة، وهو الابنُ الأصغر للبيك المستقلّ الراحل حسين. أمّا شقيقه الأكبر فكان يقضي فترة إبعاد إجباريّة في منطقة أدريانبول (ADRIANOPOLE) ولهم شقيق آخر يعمل ضابطًا برتبة رائد في الفوج الثابت في ديار بكر.

وزارني أيضًا شقيقُ شيخ الجامع المسمّى «عيسى بيك»، وقد كان شيخ الجامع في مهمّة في ديار بكر، وأنابَ عنه ولده، وعيّن لنا مكانًا نقيم به وسط إحدى الحدائق الساحرة.

قصبة اليجه أو العين الساخنة:

يقيمُ بهذه القصبة ٧٥٠ عائلة مسلمة، ٢١٣ عائلة أرمنية، ولم يكن الأرمن هنا من المزارعين أو الملّاك، إنّما يعملون في المصانع اليدوية للأقمشة القطنية الخشنة،

حيث يتمّ جمع القطن من الريف، وجزء من خربوط وأرضروم، ويجلب ليستخدم في هذه المصانع، ومدينة خربوط هذه متّسعة مثل مدينة أضنة، أمّا مدينة أرضروم فهي مثل مدينة خوي الإيرانية من حيث الاتّساع، وكانت أسواق اليجه صغيرة وفقيرة لا يوجد فيها شيء من المنتجات الأوروبّية، وكان بالمدينة أربعُ عيون مائيّة ومسجدان.

وعندما التقينا بعيسى بيك سألته عمّا إذا كان سكّان هذه القصبة الآن أكثر رضا عن حكم البيك الحالي، أم أنّ الحال كما كان خلال عهد البيك السابق؟ فأجابني قائلًا:

نعم، إنّهم الآن يتمتّعون بالهدوء الذي حُرموا منه أيّام البيك السابق، كما أنّ المسلمين أكثر سعادة من ذي قبل.

أمّا عن أحوال الرعيّة فهم مثقلون حاليًا بدفع الضرائب أكثر مِن أيّ وقت مضى، وأضاف أنّهم في حالةٍ بائسة، ولا يتوقّفون عن الشكوى، فمثلًا في العام الماضي دفعوا ضريبةً سنويّة قدرها (٨٠) ليرة، ودفعوا خراجًا يتراوح بين ست ليرات وثلاث الليرة عن كلّ ذكر.

لقد سمعت الكثيرَ عن هؤلاء البيكات المستقلّين من (آل هازير اليجه) و(خيني) في سنجق تريكي؛ لذا فسوف أحدّثكم عنهم قليلًا:

أوّلًا: رجب بيك

لقد كان هذا البيك يحكُم (٦٠) قرية، وكان في خدمته أكثرُ من ثلاثمائة فارس، يدفع لهم رواتبَ منتظمة، وقد كانوا مسلّحين على أكمل وجه، هذا إلى جانب أنّه كان يستطيع جمع (٧٠٠) فارس آخر، وحوالي (٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠) فارس من

المشاة المسلّحين بالسيوف أو البنادق، وقد كان رجب بيك أكثرَ البيكات الثلاثة ثراءً ونفوذًا.

وقد حصل على هذه الثّروة الطائلة عندما سطا على ممتلكات ثلاثة أو أربعة باشاوات من ديار بكر، كما نهب العديدَ من القوافل الغنية. ومن المعروف أن هناك العديدَ من هذه العمليات الإجرامية تُرتَكب باسمه، ولكنّه بريء منها، وهو حاكم بكوية هازيرو.

وعندما قام رشيد محمد باشا بحملته قاومه رجب بيك ببسالة، ولكنه أخضع في نهاية الأمر، وتمّ نفيه إلى منطقة أدريانوبل Adrianople، ومازال حتّى الآن مقيمًا هناك، وتقوم الحكومةُ بجمع العوائد المالية لمنطقته وممتلكاته الخاصّة، ويأخذ منها كلّ شهر ١٨٠ ليرة.

ويُقال إنّ الدّفاتر الرسمية تدلّ على أنّ المبالغ المستوفاة أكثر من مبالغ التقاعد الممنوحة له.

ثانيًا: بيرام بيك

وهو بيك أليجه، وقد خلفَ والده حسين أغا الذي توفّي فور اندحاره من قبيل رشيد محمد باشا وقوّاته، ويقضي بيرام بيك فترة من النفي الإجباري في منطقة أدريانوبل Adrianople، وتحتوي هذه البكوية على ٧٠ قرية، ويمكن للبيك فيها أنْ يجمع ٣٠٠ فارس، وحوالي ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ من المشاة في فترة قصيرة، ويتسلّحون بالسيوف والبنادق.

وقد كان بيرام بيك يجمعُ الكثيرَ من العوائد المالية، غير أنّه كان ينفقها على أتباعه حتّى يوطّد صلاته معهم، ولهذا فإنّ هذه البكوية لا تحتوي على مبالغ احتياطية حاليًا.

ثالثًا: تمیربیك TEMIR BEG

وهذا البيك يحكم بكويه خيني KHINI، ولكنّه منفيّ حاليًا في منطقة أدريانوبل مع البكوات الآخرين، وقد كان هذا البيك يستطيع أن يجمع ٢٠٠ فارس، وحوالي ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتلٍ من المشاة المسلّحين كالباقين، وتحتوي هذه البكوية على ٦٠ قرية، ولقد كان تمير بيك مثل بيرام بيك تمامًا، حيث أنفقَ جميع العوائد المالية على أتباعه وأبناء منطقته.

وقد عقدَ هؤلاء البكوات الثلاثة حلفًا فيما بينهم، وكانوا ينعمون بالسلام في بعض الأحيان مع مضيفي حاجي زلال أغا، ولكنّهم كانوا كثيرًا في حالة من الخلاف معه، فقد كان أقلّ منهم أتباعًا.

ربّما ذلك لأنّه كان يقيم في الجبال، حيث الموقع الآمن الحصين ممّا ساعده على حماية أتباعه، وردع أعدائه بشدّة.

وكان البكوات الثلاثة منذ حوالي خمسة عشر عامًا في نزاع مستمرّ مع عدوّهم اللّدود ميرزا أغا، الذي كان يقيم في المنطقة المسمّاة بانوكا BANUKA، وهي ليستْ بعيدة عن هازيرو HAZERO، وكان لديه فقط ١٠٠ فارس، ولكنّه كان يستطيع أنْ يجمع حوالي ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ مقاتل مسلّحين بالبنادق خلال عدّة أيّام، كما أنّه كان يقيم بجوار رئيس عشيرة سليفانلي SILIVANLI الكردية، ولهذا فقد كان بإمكانه أن يجنّد ٥٠٠ فارس إضافي.

وفي جميع معاركهم كان من النّادر أنْ يتقابل الأعداء في ساحة قتال مفتوحة، وكان الهجوم على قرية يتوقّف على تحديدها مسبقًا، فيلتقي المخالفون في ميعاد محدّد، ثمّ يفاجئون هذه القرية، وينهبون كلّ ما يقابلهم، وطبعًا كان الدّفاع عن القرية يتمّ وبسرعةٍ مَهولة، لينقذ ما يمكن إنقاذه، ولكنْ بعد فوات الأوان،

وبعد ضياع الكثير من الأرواح البريئة، وطبعًا لا بدّ أن يقوم الطّرف الثاني بأخذ الثأر بنفس الطريق السّابقة، فتزداد الخسائر ولا يتوقف الثأر.

فمثلًا في الخريف السّابق، وبعد جمع المحاصيل مباشرة حدث هجوم عنيف ونهبتْ وسُلبت المحاصيل، ومؤكّد أنّ الغزاة كانوا يتوقّعون الحصول على غنائم كثيرة في هذا الوقت، وقد دافع الأرمن والمسلمين عن أنفسهم وأموالهم جنبًا إلى جنب، حيث إنّ الأرمن كانوا يتلقّون معاملة حسنة مثل التي يتلقّاها المسلمون من رؤسائهم، وكان معظمهم سكّان القرى التّابعة لميرزا أغا من الأرمن.

وقد لاحظنا أنّ المسلمين هنا يدفعون سبعة ليرات سنويًّا، ولا يدفعون أية ضرائبَ أخرى للبيك، أمّا المسيحيّون فيدفعون ستة ليرات وثلثا ليرة كخراج للبيك سنويًّا، بالإضافة إلى حصّتهم من ضريبة الساليانة، وأنا أعتقد أنّ المسلمين في هذا الإقليم معفون من الضرائب السنوية.

لقد قام رشيد محمد باشا بدحْر هؤلاء البكوات بشدّة وعنف، حتّى أنّه قد أحرق منازلهم، وعندما سمع باقي البكوات بأمرِ استسلام ميرزا أغا رفعوا الراية البيضاء، وهُم موقنون أنّ المقاومة لن تفيدهم.

وبما أنّ هؤلاء البكوات منفيّون، فقد نعم الأهالي بالهدوء والأمان، وبالرغم من زيادةِ ضرائبهم إلّا أنّهم شاكرون على أنّهم لن يواجهوا تلك المصائب مرّة أخرى، فإن كان عليّ أن أختار بين دفع ضرائب باهظة، وبين التعرّض للسطو والقتل لاخترت الضّرائب، وبما أنّ الحالين سيئان؛ فهُمُ الآن يشتكون من هذه الضرائب الباهظة، ولا يشكرون ربّهم على نعمة الأمان.

وبعد أنْ تبادلت هذه الأحاديث الشّيقة مع عيسى بيك، تركنا كلا من أحمد أغا وابن مضيفنا الحاج زلال أغا، وعادَا إلى منزليْهما.

الثّامن من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

قبل طلوع الفجر أقبلَ عليّ ابنُ شيخ الجامع، مرتديًا الشّال الذي أهديته إيّاه بالأمس مقابل الغذاء الذي زوّدنا به بكلّ لطف، وانطلقنا من تلك الحديقة التي خيمنا بها متّجهين إلى وسط المدينة التي تقع تحت منحدر صخري شامخ من الحجر الجيري، وهو يطلّ على وادٍ مليء بأشجار الفاكهة التي تروى من خلال الغدران المائية التي تنحدر من كلّ أنحاء المنحدر الشامخ.

منظرُ هذا السّهل يبهج نفسي ويروي روحي، وبالرّغم من جودة موقع هذه القرية، إلّا أنّ بيوتها في حالة خربةٍ للغاية، وقد شاهدت قصر البيك المحترق، ولاحظتُ أنّه كان بناءً ضخماً وواسعًا وفخماً للغاية، وغيّرنا مسارنا نحْو الغرب حسبَ ما تشير إليه البوصلة، وكانت على يميننا سلسلةٌ من الجبال، وبعد مسير ثلاث ساعاتٍ مررنا بقرية أرمنيّة كبيرة عبارة عن وادٍ أخضر فسيح مليء بالعديد من أشجار الفاكهة والحدائق الغناء والحقول المزروعة بالخضروات المختلفة، ويخترقهم جدولٌ صافٍ يترقرق فيه الماء السلسبيل.

الجوّ هنا معطّرٌ برحيق الفاكهة والأزهار وشتلات الخضروات المتنوعة. وقبل أنْ أصل هذه القرية، وبعد أنْ وصلتها لاحظت أنّ طبيعة الأرض صلبة وصخرية، ولاحظتُ أنّ محاصيل الحنطة كانت خفيفة، وكان الفلاحون يحصدون المحاصيل في نشاط وهمّة، وبعد أن تجوّلنا لمدّة خمس ساعات وصلنا إلى:

قصبة خيني Khini:

ووجدْنا أنّ أمتعتنا قد وصلت إلى هذا المكان قبل وصولنا بفترة طويلة، وقد قدّرت المسافة التي قطعناها اليوم بحوالي ١٨ إلى ٢٠ ميلاً.

ووجدنا حديقةً جميلة وكثيرة الظلّ، وخيّمنا بها تحت ظلال أشجار الفاكهة، وبمجرّد وصولنا أمر شيخُ الجامع (قايايا) الأرمن بتزويدنا بكلّ ما نحتاجه، وقد اشتكى أصحابُ البغال قائلين إنّ البغال أرهقت من المسيرة التي قضتها فوق الجبال المطلّة على داركوش الليلة الماضية.

وطلبوا منّي أن آذنَ لهم بأن يستريحوا يومًا، وقد وافقتُ بسعادة، حيث إنّني كنتُ أريد من صميم قلبي أنْ أقضي يومًا في هذه المنطقة الجميلة، وكما لاحظت مدى كرم وتحضّر شيخ الجامع.

القرية:

تضمّ هذه القرية ٣٠٠ عائلة من المسلمين، و١٥ عائلة من الأرمن، وأخبرني قايايا أنّ الأرمن هنا فقراءُ للغاية، وأنّ الضرائب المفروضة عليهم تزداد بطريقة مستمرّة حتّى تصل إلى ٣٠٠ ليرة، وقد أصبحت أحوالُهم المعيشية في تدهورٍ تام، حيث أنّهم عرضةٌ للابتزاز، لكنّهم ينعمون الآن بالأمن والسلام.

وقد علمتُ أنّ الأرمن لم يشتركوا في مقاومة حملة رشيد محمد باشا، فقد تركوا أسلحتهم عندما طلب منهم الباشا ذلك، ولا يعمل الأرمن في الزراعة هنا، ولكن بعضهم يمتلك بعضَ بساتين الكروم والحدائق التي يرسلون فواكهها إلى ديار بكر لتباعَ بها، وتبعدُ ديار بكر عن هنا بمسافة ١٢ ساعة سيرًا باتجاه الجنوب الغربي من القرية، يعمل الأرمن هنا في الغزل واللفّ للأقطان المحلية والأقمشة الخشنة التي تقدّر بـ١٢٠ جومة في المدينة بأكملها، وتنتج حوالي ٣٠ ألف قطعة قماش سنويًّا، ويتمّ بيعها في القرى المجاورة للاستهلاك المحلّي، ويرسل بعضها إلى موش وديار بكر، وتجلب الأقطان من خربوط، وأرضروم، لتصنع هنا.

ويوجد في هذه القرية ماءُ عين وفيرة المياه تزوّد النهر المسمّى عنبار صو بأغلب مياهه.

والعنبارُ هو المكان الذي تحفظ به الحنطة، وعينُ المياه الموجودة هنا محاطة بحوض من الحجر، وينابيع عليها بعض القناطر الصغيرة، وفي قاعدة أحد الجوانب يوجدً ماءٌ صافٍ وعذب.

وعندما وضعنا فيه جهازَ قياس الحرارة أشارَ إلى أنّ درجة الحرارة تبلغ ٥٧ درجة فهرنهايت، وبما أنّ تلك الينابيع تخرج من الصخرة، فهذا يعطينا فكرة عن درجة الحرارة المنخفضة لطقس هذه القرية.

وأعتقد أنّ هذا الاحتمال أكثر صحّة بما أنّ الينبوع الموجود في اليجه أعطى نفسَ درجة الحرارة عندما قسناه، علماً بأنّ ذلك النبع ينبع من صخرة جيرية كبيرة، وقد علمتُ من الأهالي هنا أنّ ماء هذا العين يكون دافئًا في فصل الشتاء، وحارًّا في فصل الصيف، وهذا يدلّ على أنّه يحتفظ بدرجة حرارته، علماً بأنّ قرية خيني ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ٢٩٢٤ قدمًا.

بعدَ وصولي إلى هذه القرية مباشرة زارني شيخ الجامع شريف بيك، وهو من أهالي ديار بكر، وكان رجلًا فاضلًا، دمثَ الخلق، وقد أصدر أوامره بتلبية كلّ ما نحتاج من طعام وشراب.

ذهبتُ إليه لأردّ له الزيارة، وقد لاحظت أنّ موقع إقامته بائسًا للغاية، وقد أخبرني أنّه يقوم بترميم غرف الحريم في منزل البيك السّابق الذي أحرق، وأخبرني أيضًا أنّ حافظ باشا عند عودته من خارزان مضى من هنا إلى سيفان معدن SIVAN MADEN، وهو منجمٌ معدني كان يعمل بمساعدة من الأوروبّيين، ويقع هذا المنجم على الطّريق العام بين خيني وبالو، وقد أطلعني البيك على بعض النّماذج من

خامة المعدن التي تستخرج منه، وهذا ليس اكتشافًا جديدًا؛، فقد كان هذا المنجم يعمل من قبْل، وأضاف أنّ الحديد المستخرج من هذا المنجم ليس بالجودة العالية لذلك تخلّوا عن فكرة استغلاله، وترك المشروع بأكمله.

وقد سألني شريف بيك بضعَ أسئلة عن إنجلترا قائلًا:

هل إنجلترا أفضلُ مِن هذا القطر الذي أقيم فيه؟ فأجبته قائلًا:

إنّ هذا الأمر لا يحتمل مقارنة، حيث إنّ إنجلترا كلّها مزروعة بشكل جيد، أمّا أراضيكم فهي صحراءُ جرداء بالنسبة لإنجلترا، كما أنّ أهالي إنجلترا حرفيّون وأذكياء ويبحثون باستمرار عن التطوّر والتقدّم، أمّا هنا فالنّاس- وقد أبدى شريف بيك رأيه عن النّاس هنا قائلًا: إنّ النّاس هنا متخلفون وغير أذكياء، حتّى أنّهم لم يدخلوا العربات إلى المنطقة حتّى الآن، بالرغم من دخولها باقي أجزاء القطر، كما أنّها مصنوعة خصيصًا لمثل هذه المناطق- ثمّ أكملت حديثي قائلًا:

إنّ تخلّف الناس هنا يعود إلى طبيعة الحُكم الذي يتولّى زمام الأمور في البلاد، وليس ناتجًا فقط عن غبائهم وعدم ذكائهم، حتّى إنْ كانوا أذكياء، وحقّقوا كسبًا ماديًّا كبيرًا، وحقّقوا إنجازات عظيمة؛ فسرعان ما ستنتهي هذه الإنجازات بسبب جشع وجور الحكّام المستبدّين الطغاة، وهذا في حدّ ذاته قد يحطّم معنوياتهم ورغبتهم في التقدم والإبداع.

وافقني شريف بيك على آرائي، وأضاف أيضًا أنّ الأهالي هنا عندما يصبحون أغنياء يتحوّل حالهم، ويصبحون عرضةً للغرور والمفاخرة لدرجة أنّهم ينسون واجباتهم.

وضربَ لي مثلًا بهؤلاء البكوات في المنطقة المجاورة قائلًا:

أولئك البكوات، منتفخو البطون بالثّروات والأموال الكثيرة، الذين سرعان ما ينقلبون إلى متمرّدين.

فقاطعته قائلًا:

لو كانت هناك حكومةٌ عادلة تمتلك سلطةً صحيحة، فإن كلّ الدوافع للتمرّد عليها- والتي أعتقد أنّها ليست إلّا دفاعًا عن النفس في ظلّ الظّروف الشاذة والقاسية المفروضة عليهم- فإنّ البكوات كانوا لن ينجحوا في تحقيق استقلالهم.

ثمّ ردّ شريف بيك على كلامي قائلًا:

آملُ أن يصبح القطرُ خاضعًا لسيطرة حكام وسلطات معينة قانونيًّا، وأن ينعم المواطنون يومًا ما بنعمة السّلام، وهذا سينشر الرخاء والخير، فهذه هي النتيجة الطّبيعية للأوضاع الجديدة.

لقد لاحظتُ خلالَ حديثي مع شريف بيك أنّ آراءه عن طريقة الضغط على النّاس وإخضاعهم عن طريق إفقارهم ممّا يجعلهم رهن إشارة حكامهم؛ هي نفس طريقةُ الأتراك لفكرة الحكم في الحفاظ على إخضاع الناس للسلطة.

وللأسف الشّديد إنّ هذه الطّريقة المتبعة في السيطرة على الناس هي نفسها التي عملت على تدهور أوضاع القطر، وهي التي جعلت الناس يعيشون هذه الحياة البائسة.

وبينما كنت جالسًا مع شريف بيك نتحاور ونتبادل هذه الأحاديث الشيقة أقبلَ علينا صرّاف ديار بكر، وقد أراد أن يستردّ مبلغ ٢٥٠ ليرة التي استدانها شيخ الجامع لشراء هدايا بمناسبة تعْيينه في منصبه الجديد، وأعتقد أنّ الصرّاف قد توقّع أن يستردّ المبلغ في الحال؛ نظرًا لأنّ السالیانه كانت ستفرض على النّاس لهذا السبب، أي أنّ هذه الضريبة تفرض على هؤلاء المساكين ليست بسبب متطلّبات عاجلة ومهمّة، بل لإشباع جشع ونَهَم الباشوات الطغاة الظالمين.

وقد أهديت شريف بيك هديةً مناسبة مقابلَ المجاملات اللطيفة التي تلقيتها منه.

العاشرُ من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

غادرنا المدينة بعد أنْ قضينا فيها يومين هادئين استراحت فيها البغال المحمّلة بالأمتعة، وكذلك عرفت أشياء كثيرة وشيقة، اتّجهنا نحْو الغرب، وعلى بعد ساعة ونصف سيرًا وصلنا أقصى نقطةٍ في سهل خيني، ثمّ دخلنا خلف سلسلة من الجبال، ثمّ خرجنا لنجدَ أنفسنا في مواجهة سهلٍ جميل جيد الحراثة، وبعد ثلاث ساعات ونصف وصلنا إلى ضفافِ نهرٍ يجري من جهة الشّمال خلال شقّ في الجبال، وعلى بُعد ميلين ينحرف هذا النّهر جهةَ الغرب، ثمّ ينساب جهة الجنوب ليعبر قرية أرمنية تسمّى زبينه ZIBENEH، وفي هذا الوقت يصبح اسمه زبينه صو، وقد علمت أنّ مصدرَ مياه هذا النّهر هو من السلسلة الجبلية التي في جهتها الثانية يجري نهر مراد جاي، وتسير هذه السّلسلة الجبلية في خطّ متوازٍ مع مسار النهر.

هبطنا من الضّفة العالية للنهر إلى حوضه لنعبره خوضًا، وقد كانت مياهه صافية، والتّيار شديدًا وسريعًا، وفي وقتٍ من الأوقات يتّحد النهر بقناة عميقة لا يتجاوز عرضها ٥٠ قدمًا، وفي مكان آخر يتفرّع إلى عدّة قنوات فوق حوض رملي واسع.

واصلنا سيْرنا على طول الضّفة اليمنى من النهر وعلى الجهة المقابلة يستدير بعيدًا نحْو الجنوب، على جرف شاقولي عالي من الصّخر الخارج من الجدول كنتوء، شاهدنا عددًا من الكهوف محفورة في الصخور، وقد كانت على ارتفاع كبير من الماء، ولم يكنْ بالإمكان الوصولُ إليها دونَ مساعدات كبيرة، تركنا النهر وامتطينا صهوةَ مرتفع آخر، واستمرّ سيْرنا فوقه، وكان يمتدّ أمامنا بشكل واسع، وقد تغطت أجزاء كبيرة منه بحقول ضخمة من الحنطة، ورأيت العشرات من

المزارعين منشغلين بالحصاد، ورأيت أيضًا حقولًا عديدة مزروعة بالذرة، مررنا بقرية قريبة ثمّ دخلنا واديًا ضيقًا في أقصى الجهة المقابلة حتّى وصلنا إلى:

قرية بيران:

لقد وصلنا إلى هذه القرية بعد جولةٍ استغرقت ستّ ساعات ونصف الساعة، وقد قدّرنا المسافة التي قطعناها بحوالي ١٦ إلى ١٨ ميلًا.

تقعُ قرية بيران في حلق وادي يطلّ على سهل جميل صغير، ورأيت في أسفل هذه القرية حقولًا مزروعة بالخضروات، وقد كنّا ننوي التّخييم هنا، إلّا أننا لم نجد مكانًا خاليًا من المزروعات لننصبَ فيه خيامنا، ولهذا اضطررنا أن نقيم في منزل أحمد أغا رئيس القرية، وقد كان عائدًا لتوّه من سفره إلى أركهان معدن ARGAHAN MADEN، وقد أخبرني أنّ حافظ باشا موجود الآن في مدينة خربوط.

يقيمُ بهذه القرية ٩٠ أسرة من المسلمين و ٨٠ أسرة من الأرمن، وهذه القرية هي واحدةٌ من الخمسين قرية التي يملكها بيك منطقة إيكيل، وهذا البيك خاضع دائمًا لسلطة محافظة أركهانا معدن، ولكنّه بخلاف البكوات الآخرين لم يكن ممّن ينهبون أموالَ رعيتهم، ولهذا فقد كان الناس يشعرون بالأمان والسّلام في ظلّ سلطته.

وقد لاحظتُ من مظهر الرّيف المحيط بالقرية أنّ أهلها يعيشون حياة سهلة وميسورة، وأنّ أوضاعهم المادية جيدة.

ولكنّ أحمد أغا أخبرني أنّهم كانوا كذلك في الماضي، ولكن منذ أن فرض عليهم الضّرائب الباهظة تبدّل حالهم، وأصبحت أحوالهم تتدهور شيئًا فشيئا، فلقد فرض عليهم مؤخرًا تجهيز ٥٠٠٠ عبوة من الفحم النباتي إلى منجم أركهانا معدن، وهذا بالطّبع يجعل القرية تخسر ٢٥٠ ليرة، يتقاسمها أهالي القرية بالتكافل.

وعندما سألت أحمد أغا هل هذه التّجهيزات بدلًا عن ضريبة السالیانه؟ أجابني قائلًا:

لا، إنّ ضريبة السالیانه، أو أيّ ضريبة أخرى، تدفع إلى جانب هذا المبلغ. وأضاف أنّ الفحم النباتي يصنع في الجبال الواقعة إلى الشمال، ونتيجة ذلك أصبحت الغابات تتناقص بشكل ملحوظ.

وشاهدتُ أطلال كنيسة أرمنيّة تقع على أعتاب القرية، ولم يبقَ منها سوى أحد الأقواس الذي يعطي انطباعًا بأنّ بناءها كان ضخمًا للغاية، ولكنّه كان متعرجًا، وغير مستوى البناء.

وأثناءَ تواجدي في القرية التقيتُ باثنين من اليهود من أهالي حلب يعملون لدى تاجريْن من اليهود أيضًا، وقد جاءوا المدينة لبيع المنتجات الحلبية واستبدالها بالجوز والمكسرات، وقد شحنوه إلى رؤسائهم في حلب.

الحادي عشر من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

استيقظتُ مبكّرًا قبل أن تشرق الشّمس تحسبًا لطول رحلتنا، حيث إنّ الوجهة التي نتّجه إليها كانت منطقةً جبليّة شديدة الوعورة، كما أنّه لم يكن هناك مكان أو قرية بين قرية بيرات ومنجم أركهانا لنستريح فيه، بدأنا تحرّكنا في تمام الساعة الثانية وأربعين دقيقة صباحًا قطعنا وهدًا صخريًّا وعرًا، وهبطنا نحْو جدول كان ينساب باتّجاه المنطقة الجنوبيّة الشرقية، وبعد مسيرة ساعة من هذا الجدول وصلنا إلى جدولٍ أكثرَ أهمية يسير بنفس الاتجاه، ومن هذا المكان بدأت طبيعة الأرض تصبح جبلية.

ثمّ وصلنا إلى حافّة جبل شديد الانحدار، ويقع مباشرة في الجهة المقابلة للمنجم مع فرع ديار بكر مع نهر دجلة الذي يفصل بينا المنحدر من هذا الجبل، وعبرنا النّهر عن طريق جسرٍ شبه متهدّم، ونزلنا إلى المنجم خلال هذه المسافة التي قطعْناها لم نرَ الكثيرَ من الأراضي المزروعة حتّى الأراضي القليلة التي كانت مزروعةً كانت تقع بالقرب من المنجم، وكانت التّلالُ المحيطة تتكوّن من طبقات طباشيريّة اللون، متفتّتة دونَ أيّة مزروعات، وهذا المنظر جعل رحلتنا هذا اليوم مملّة وغير مبهجة.

وصلنا المنجمَ في تمام السّاعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، واستغرقت مسيرتنا ٩ ساعات كاملة، بالرّغم من أنّ المسافة التي قطعناها لم تزدْ عن ٢٥ ميلًا، ولم تصلْ أمتعتنا إلّا في السّاعة الثالثة بعد الظهر، أقمنا في بيت أحد المسئولين عن المنجم، وقد كان رجلًا متحضّرًا، وقد اضطررنا لذلك لأنّنا لم نجد أيّ مكان يصلح لإقامةِ خيامنا، وقد أشار الباروميتر أنّ هذه المنطقة ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ٣٦٤٤ قدمًا.

الثّاني عشر من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

خرجنا من المدينة قاطعين واديًا منه إلى طريقٍ واسع وهو تكملة للطريق العسكري الذي بدأ من منطقة سامسون.

وقد بدأ عملُ تنفيذ هذا الطّريق رشيد محمد باشا، ولكنّه توقّف عند قمة الجبل المطلّ على سهل خربوط، أمّا باقي الطّريق فقد أكمله حافظ باشا حتّى يسهل المرور من فوق تلك السّلسلة الجبلية الوعرة الشديدة الانحدار، وبعد مسيرة ثلاث ساعات خرجنا من تلك السّلسلة الجبلية، ونزلنا إلى سهل جميل جدًّا قاطعين جدولًا صغيرًا لا يبعدُ كثيرًا عن منبعه، وهذا الجدول هو الفرعُ الرئيسي لمنطقة ديار بكر الذي يصبّ في دجلة، ومنها يدور حول الجبال مستقبلًا في مساره مياهَ جميع الفروع المنحدرة من سلسلة الجبال التي قطعناها، وقبل أن نصلَ إلى المنجم، يكون قد تحوّل إلى نهر كبيرٍ جدًّا بسبب مياه الروافد التي صبّت فيه هنا وهناك.

قطعنا السّهل، ودخلنا في وادٍ صغيرٍ منعزل حتّى وصلنا إلى قرية كردية صغيرة تدعى كيزين:

قرية كيزين kizin:

الأشجارُ الباسقة تحيطُ بهذه القرية من جوانبها، لقد كان يبدو على هذه القرية أنّ سكّانها يتمتعون بحالةٍ معيشيّة جيّدة رغم بعدها عن الطريق، حيث وصلنا إليها بعدَ مسيرة ستّ ساعات من (اركهانا معدن) وهي مسافة تقدر بنحو ١٥ ميلًا، والقرية يسكنُها حوالي ٣٥ أسرة كرديّة من الواضح أنّهم ميسورو الحال لكثرة

البساتين والأراضي المزروعة حول القرية، وعندما سألتهم إنْ كان ما أظنّه صحيحًا أجابني مضيفي قائلًا:

إنّ مرور الكثير من الزّوار على هذه القرية يكلّفها مبالغ طائلة كما أنّهم يدفعون حوالي ١٦ ليرة كلّ عام ضريبة ساليانه، ولكنّهم يملكون كميّات كبيرة من الأغنام والماشية، بالإضافة إلى الحقول الكثيرة التي تحت الحراسة.

ولهذا لم أقبل من السكّان سماع أيّ شكوى من الضرائب أو غيرها لأنهم يملكون ما يكفيهم، ولأنّني واثق أنّهم لا يعانون من أيّ نقص في الأموال.

خلال تواجدي في هذه القرية أقمتُ مع رئيس القرية، ولم يكن هذا أوّلَ لقاء لنا، فلقد كنت أعرفُه من قبل، وجلسنا معًا نتذكر ذكريات الماضي الجميلة التي جمعتنا معًا، ووجدت أنّه مازال كما كان من قبل رجلًا حسنَ الخلق، وعرض عليّ تقديم المساعدة وتلبية كلّ ما يتمكّن من مطالبنا.

الثّالث عشر من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

تركنا قرية كيزين وهبطْنا إلى قاع الوادي الذي تقع فيه هذه القرية، ولمحنا عن بعدٍ بحيرةً زاهية تسمى بحيرة كولجيك GOLGIK.

ثمّ خرجنا متّجهين نحْو الطّريق العام المؤدّي إلى خربوط، ومن قمة السلسلة الجبلية التي قطعناها لمحنا منظرًا مبهجًا، وهو سهل خربوط الأخضر، الذي يعدّ أحد أفضل الأراضي الزراعية الموجودة في تركيا بأكملها، وقد كانت الحقول مليئة بالثمار النّاضجة التي تلوح للمزارعين بحصادها.

سلسلةٌ من التّلال الواطئة الصغيرة خارجة من السلسلة الجبلية العالية التي تقع عليها خربوط، التي تهبط قليلًا عبرَ السّهل وتقسمه إلى قسمين، ومن الناحية الشرقية القصوى يدخلها نهر مراد جاي الذي يغادرها مرّة أخرى عبر ثلمة في الجبال باتجاه الزّاوية الشمالية الشرقية للسهل. وهذان القسمان عامران جدًّا بالسكان، وجميع الأراضي الصّالحة للزراعة مزروعة، وفي حقيقة الأمر أنّ هذه المنطقة من أخصب وأغنى المناطق في تركيا، هذا إلى جانب أنّها أكثر المناطق كثافة سكانية أيضًا.

ثمّ وصلنا إلى قرية أرمنية تسمّى كونك KONEK، بعد أربع ساعات سيرًا، وتناولنا فطورنا، بينما أرسلنا أحدَهم ليخبر حافظ باشا أنّنا وصلنا إلى المنطقة، واسترحْنا لمدّة ساعة، ثمّ واصلنا تحرّكنا مجدّدًا في تمام الساعة التاسعة صباحًا، وبعد ساعتين ونصف وصلنا إلى:

قرية ميرزيه Merzih:

عيّن الباشا لنا حديقةً كبيرة نقيم بها خيامنا، ثمّ أرسل إلينا مائدة إفطار ساخنة على الطّراز التركي، وأعطانا بعضَ الخيام والأثاث، وكلّ ما نحتاج إليه؛ بل وعيّن

بعض الأشخاص ليقوموا بخدمتنا وتلبية طلباتنا، وباختصار شديدٍ لقد غمرنا هذا الرّجلُ بلطفه وعنايته وكرمِه، فلم يكن هناك ما نحتاجه إلّا وقدّمه لنا قبل أن نطلبه.

هي عبارة عن قريةٍ صغيرة في السّهل، تقع على بُعد ميليْن من مدينة خربوط، ترتفعُ عن مستوى سطح البحر بمقدار ٣٦١٨ قدمًا، وقد اختارها الباشا بنفسه لتصبح مقرًّا لإقامته.

يوجد بها قصرٌ كبير كان يخصّ إسحق باشا، وهو الباشا السابق الذي أعدم بأمرٍ من رشيد محمد باشا، لم أشاهد أيّ مسكن هنا يدلّ على أنّه قد يتّسع لإقامة الباشا، ويشمل الحريم أيضًا، ولكنّني عرفت أنّ مسكنه له فائدة إضافية وهو أنّه قريبٌ من المعسكر.

منذ أنْ وصلنا هذه القرية أنا وجميعُ رفاقي في الرحلة أصبنا بحمى شديدة، وبما أنّنا فقدنا الأمل في الشّفاء؛ فقد قرّرنا أن نرحل إلى مكان أفضل مناخًا، وأنقى جوًّا، وبالرّغم من مدى كرم الباشا معنا، إلّا أنّنا لم نستمتع بهذه الرحلة كثيرًا بسبب مرضنا، فقد كانت قصيرةً ومتعبة، حتّى أنّ الباشا نفسه، وضابطًا أوروبّيًّا كان يشرف على تدريب الجيش في المنطقة قد أصيبَا أيضًا بالحمى، ولهذا لم أقتنع بهذه الزيارة القصيرة، ولم أستمتع بصحبةِ هذا الرجل الفاضل الذي غمرنا بكرمه، وبذل كلّ ما بوسعه لجعل زيارتنا أكثر متعة.

لقد اتّخذ الباشا إجراءاتٍ مهمّة وكثيرةً حتّى يزوّدنا بكلّ ما نحتاجه حتّى نصل إلى موش بكلّ راحة، فبعث مراسله الشخصي معنا ومعه مراسلين آخرين لمصاحبتي، وقد كنّا حقًّا في حاجةٍ ملحّة لهم، حيث إنّنا جميعًا كنّا مرضى، ونحتاج هذا الميهمندار الفطن، (المضيف).

الخامس والعشرون من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

غادرنا قرية ميرزيه في السّاعة السادسة صباحًا، وبعد رحلة استغرقت ٤ ساعات في هذا الجوّ الحارّ متّجهين نحْو الشرق، وصلنا إلى:

قرية عاليشان Alishen :

عندما وصلنا إلى هذه القرية وجدنا أنّ أربعة من رفقائنا قد أصيبوا بالمرض ممّا جعل رحلتنا أصعب، وكان من المستحيل أنْ نواصل تقدّمنا في صباح اليوم التّالي، ففي موقعنا الجديد استطعتُ التخلّص من بعض منغّصات إقامتنا في ميزريه، ولكنّ درجة الحرارة كانت بمثابة عامل ضاغط.

كما أنّ طبيعة الأرض الطينية البيضاء ساعدت على انعكاس أشعة الشمس والأتربة، وهذا ما أكثر من انزعاجنا، فعرضَ علينا المراسل الخاصّ للباشا أن ينقل المرضى في عربات خاصّة، وقال: إنّه من الأفضل لنا أنْ نسافر في الليل بعيدًا عن أشعّة الشمس المرهقة، وأنْ نقوم نسير إلى بالو في مرحلة واحدة؛ لأنّ مناخ بالو بارد، ونقي، ويساعد على الشّفاء من المرض، كما أنّ هذا السهل سيعرّضنا لحرارة مرتفعة.

تقعُ هذه القرية في السّهل، يحدّها من الجنوب الطريق المؤدي إلى أركهاها، ويحدّها من الشمال الثلمة الموجودة في الجبال التي يجري من خلالها نهر مراد جاي، متّخذًا مسارًا حتّى يلتقي مع نهر قره صو أو غربي نهر الفرات، أعلى مدينة كابان kebban- meden.

تبعدُ هذه القرية عن النّهر مسافة ساعتين، ويقيم بها ١٠٠ عائلة مسلمة، وضريبة السالیانه المفروضة عليهم تقدّر بستين ليرة إلى جانب ضريبة أخرى مقدارها ٥ قروش،

أي تساوي شلنًا واحدًا من كلّ كيلة أو كيلو من الحنطة، و٣ قروش عن كيلة الشعير، والكيلو هنا مساوٍ لـ ٩ باتمان أو ١٤٨ إيبس Ibs.

تزرع في هذه القرية مختلفُ أنواع الحنطة بالإضافة إلى القطن والكتان، التي تستخرج زيوتها، وتستخدم في الإضاءة.

كلّ قروي هنا يملك ثورَيْن لحرث الأرض، وبقرتَيْن أو ثلاثة، وبعض الخراف، ويرسلون القطعان إلى الجبال للرّعي خلال النهار، ولكن المراعي هنا قليلة.

ولهذا فإنّ الأهالي يحتفظون بكميّات كبيرة من العلف المجفف في الزرائب، وكلّ الأراضي هنا مزروعة، وقبل أنْ يقوم رشيد محمد باشا بحملاته التأديبية للكرد في هذه المنطقة، كانت الفوضى عارمة، وعمليات السّطو منتشرة، وكان الأهالي لا يشعرون بالأمان، أمّا الآن.. فقد اختلف الوضع تمامًا.

السّادس والعشرون من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

وافقْنا على اقتراح المراسل الشّخصي للباشا، وتطبيقًا لهذا الاقتراح، فقد وصلتْ بعد الظّهر عربتان، وضعنا في كلّ عربة مريضيْن، أمّا نحن فقد امتطينا خيولنا بعد مغادرةِ العربتيْن بساعة واحدة، وبعد ابتعادنا عن قرية عاليشان بمسافة تزيد عن ميل واحدٍ دخلنا قرية أرمنيّة كبيرة تسمّى هوكاسور، وعلى سفوح الجبال الموجودة على يميننا كانت توجد عدّة قرى تحيطها الأشجار الباسقة من كلّ مكان، عبرنا أنف السّلسلة الجبلية التي يجري حولها النهر الذي على يسارنا، ثمّ هبطنا الوادي الذي تقع فيه قرية تيلكيه TILKEH، وصلنا هذه القرية عند منتصف الليل واسترحنا فيها حتّى طلع الفجر.

واصلنا مسيرنا مرّة أخرى حتّى وصلنا بعد مسيرة أربع ساعات إلى بالو، ومن تيلكيه يمتدّ السّهل ليصل ضفاف مراد جاي على بعد حوالي ميل واحد.

تابعنا مسيرَنا بجانب تلك السّلسلة الجبلية إلى أن هبطنا إلى النهر إلى الأسفل من الجهة المقابلة لمدينة بالو.

ثمّ خرجنا من النّهر لنرتقي جبلًا على سفوحه تنتشر الحدائق الغناء الواسعة، قطعنا هذه الحدائق مستظلّين بأشجار الفاكهة الجميلة؛ حتّى هبطنا مرّة أخرى إلى ضفاف النهر، وبعد مسافة حوالي ميل أعلى الجدول، عبرنا النهر من فوق الجسر سائرين على ضفّة اليمنى لمسافة نصف ميل، ثمّ صعدنا هضبة شديدة الانحدار باتّجاه المدينة الواقعة على الجبل والمستظلّة قمّة شامخة، يوجد فوق هذه القمة قلعة قديمة.

كان بيك المدينة غائبًا، فأرسل أخوه صرّافه لاستقبالي عند الجسر، وقد قدّم لنا اعتذارًا خاصًّا لعدم مجيء شقيقه لاستقبالنا شخصيًّا لأنّه مريض.

لقد كان البيك يشرفُ على العمليات في منطقة سيفان معدن التي سمعت أنّها تبعُد عن هنا بـ ٨ ساعات فقط، ونصل إليها من هنا عن طريق سلوك ممرّ جبلي وعرشاتٍ وضيف.

أخذني الصّراف إلى منزله، حيث أقمت هناك، وكان منزلًا واسعًا يظلّ على النّهر مشرفًا على الحقول الزّاهية المنتشرة على ضفافه.

وأثناء عبوري الجسر قفزَ ثلاثة رجال من أعلى الجسر إلى النهر، ثمّ قطعوا النّهر سباحة إلى الضّفة، وعندما وصلت إلى نهاية الجسر جاءوني يطلبون منّي هديةً على هذا العرض الذي قدّموه، فقد قفزوا في النهر من على ارتفاع ٤٠ قدمًا، وقد كان التّيار سريعًا، ويبلغ عرض النهر ما يزيد عن ١٠٠ قدم.

وبما أنّ عبور النّهر على ظهر الأحصنة غير آمن، ما بالكم بالقفز فيه، لقد كانتْ دعامات الجسر موصولةً ببعضها البعض بواسطة ألواح خشبية بشكل سيّئ، وبدون إحكام، وهذه الدّعامات هي فقط أقدمُ الآثار المتبقية من البناء القديم للجسر. وبينما أنا على الجسر نظرتُ إلى البارومبتر فعرفت أنّ ارتفاع هذه المنطقة عن سطح البحر يقدّر بـ ٢٨٩ قدمًا، أمّا في مدينة بالو فقد كان ارتفاعنا عن مستوى سطح البحر يقدّر بـ ٣٢٩٢ قدمًا، ومن المدينة أعلى النهر توجد قناة مضغوطة في فتحة ضيّقة بجانب الجبل، ترتفع على نحْو خطر من ضفاف النهر، وفي بعض الأجزاء لا يزيد عرضُ النهر عن ٣٠ ياردة، وفي بعض الأماكن الأخرى يبلغ ثلاثة أضعاف هذا الاتساع.

أسفل مقرّ إقامتي عند النهر رأيت رجلًا يعبُر النهر بحمار، ولكنه نجح في عبور النّهر بسبب الاستدارات العديدة التي قام بها.

عبورُ هذا النهر يتطلّب معرفة جيدة بأماكن الخوض فيه، حتّى يتمكن من العبور دونَ خطر.

أربعةُ أكلاك انحدرت إلى أسفل النّهر أثناء وجودي في بالو، وقد كانت هذه الأكلاك مصنوعة من الأغصان المدعومة بأكياس منفوخة مصنوعة من جلود الحيوانات، وقد كانت محمّلة بالفحم النباتي، وكان في كلّ واحدة رجل يحمل مجدافًا ليوجّه الكلك، بعد وصولنا بالو بيوم التحق بنا زملاؤنا المرضى، وقد استردوا صحتهم وأصبحوا في أتمّ استعداد لمواصلة الرحلة على ظهور الجياد.

مدينة بالو:

يقيمُ في مدينة بالو ١٠٠٠ عائلة، من بينها ٤٠٠ عائلة من الأرمن، ٦٠٠ عائلة من المسلمين، العائلات الأرمنيّة هنا تعمل في الصناعة أو التجارة العامة، وتعمل في هذه المدينة ٢٠٠ جومة في إنتاج الأقطان المحلية، ويوجد بها أيضًا مصبغة ومدبغة جلود.

وكما يحدث دائمًا، لقد اشتكى الأرمنُ من ارتفاع الضرائب، ويمتلك المسلمون مزارعَ الكروم والبساتين ومعظم الأراضي الزراعية هنا، أمّا الأرمن فنادرًا ما تجد أحدَهم يملك بساتين أو أراضٍ زراعية. إنّ الطريق المباشر من هنا إلى أرضروم مغلَق تمامًا لمدّة ثلاثةِ أشهر بسببٍ الثلوج، والمسافة من هنا إلى أرضروم بمسيرة قافلة تقدّر بثمانية أيام و٤٢ ساعة.

مسارُ النّهر شرقي وغربي، ولهذا قدّرت المسافة من خربوط بـ ٣٦ ميلًا باتجاه الغرب بواسطة البوصلة.

التّاسع والعشرون من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

عنْ مغادرتنا مدينة بالو اجتزنا المدينة من تحت القلعة فوق السلسلة الجبلية التي هبطنا منها تدريجيًّا من على منحدرٍ نحْو سهل واسع جيّد الحرث، تنتشر على أطرافه قرى عديدةٌ محاطة ببساتين الفاكهةً والكروم.

وقد كانت وجهتنا حسبَ البوصلة باتجاه الشمال والشمال الشرقي، وبعد مسير ساعة ونصف وصلنا قريةَ أرمنيّة تسمّى حشمت HOSHMaT، تبعد هذه القرية عن مدينة بالو بمقدار خمسة أميال فقط، ومن هذا المكان يتفرّع طريق أرضروم من ذلك الذي سلكناه باتّجاه الشمال، وفي الجهة المقابلة للسهل، باتجاه الشمال الغربي يوجد دير أرمنيّ في قرية تسمّى هباب HABAB، هذا السهل يحدّه من جهة الشّمال سلسلة من التّلال المنخفضة، ويجري خلف هذه السلسلة النهر المسمّى بيريزسو PEREZ-SU الذي ينبع من سنجق خيجي KHIJI في (باشوية) باشلق- أرضروم، ليصبّ في نهر مراد جاي على بعد ٣ ساعات أسفل مدينة بالو. ولقد سمعت أنّ هذا النهر أحدُ الأنهار المهمّة، إلى جانب أنّه من الممكن خوضه في موسم الصيف.

غادرنا قرية حشمت في تمام الثامنة صباحًا، وبعد ساعتين من المسير وصلنا أقاصي السّهل، وبعد أن دخلنا أرضًا هضبة، وبعد مسيرة ساعة وصلنا إلى:

قرية ميزيريه:

قبل أن ندخلَ هذه القرية بمسافة قصيرة وجدنا أعيانها مقبلين علينا لاستقبالنا، أمّا أمتعتنا والرّجال المرضى فكانوا قد سبقونا إلى هذا المكان لأنّهم تحرّكوا قبلنا خلال الليل، لذا فعندما وصلنا وجدنا خيامنا منصوبة تحت ظلال أشجار الفاكهة.

المنظرُ هنا جميل، ويبعث في روحي السّرور، حيث كان يطلّ على الوادي الأخضر والجبال المقابلة.

وقد كنّا نرى جبال دبوجيك DUJIK من بعيد بوضوح تام، وقد كانت مكسوّة ببرقعٍ لامع من الثلوج، وقد لاحظت أنّ درجة الحرارة هنا منخفضة ممّا أدى إلى تحسّنٍ كبير في الجوّ، ظهر هذا بوضوح في تحسن مرضانا.

تقع هذه القرية على ارتفاع ٥٢٥٤ قدمًا عن مستوى سطح البحر، ويقيم بها حوالي ٥٠ أو ٦٠ عائلة من المسلمين.

وممّا يبدو عليهم – استنتجت – أنّ حالتهم المعيشية جيدة جدًّا، حيث أنّهم يرتدون ملابسَ أنيقة وشوارعهم نظيفة، كما أنّني لم أرَ أيّ تكدّس للقمامة أمام البيوت، وهو المظهر المعتاد في كلّ المدن التركية.

وصلني رسالة من بيك بالو، يدعوني فيها لزيارة منجم سيفان SIVAN-MINO، لقد كانت الرسالة باللغة الفرنسية، كتبها أحدُ الأوروبّيين العاملين هناك، ويبدو أنّها موجّهة إلى مسافرين روس، ولكنّني فهمت أنني المقصود فيها، فبعثت رسالة باللغة الفرنسية أيضًا معتذرًا عن عدم استطاعتي للذهاب إلى هناك، لأنّني قد تقدّمت كثيرًا في رحلتي ولا أستطيع الرجوعَ إلى الخلف.

لقد علمت أنّ الخامة المستخرجة من منجم سيبان، هي حديد غني، وعلمت أيضًا أنّ المنجم يُدار من قبل مهندس فرنسي يدعى شاتلون CHATILLON، ولكنّه مرض بشدّة في الخريف الماضي، وعندما كان في طريقه إلى القسطنطينية توفّي في المدينة المسماة سامسون SAMSUN، ومنذ هذا الوقت توقف العمل في منجم سيبان.

الثّلاثون من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

تركنا قرية ميزيره في تمام الساعة الخامسة إلّا ربع صباحًا، ثمّ هبطنا الجبل من الجهة التي تقع عليها القرية، وتوغلنا في الوادي لفترة قصيرة، ثمّ عبرنا لنصعد الجبل من جهة اليسار، لنسير من فوق خط خشن مكسو بالصخور الضخمة المستديرة.

وعلى قمة الجبل رأينا ينابيعه مياه عذبة ومراعي، ثمّ نزلنا من الحافة وعلى مسافة قصيرة من الأسفل لمحنا بعض الخيام، وبعد مسيرة استغرقت ثلاث ساعات ونصف على قرية ميزيره، وصلنا إلى الخيام، وعرفت أنّهم من قرية شيفلي CHEVLI التي كنّا متّجهين إليها، وعلمت أنّهم يمضون هنا فصل الصيف ليحصلوا على الماء والكلأ، ثمّ هبطنا من هذا المكان إلى وادٍ ضيّق تنتشر فيه الأشجار المختلفة، ويوجد في قاعه المراعي، ويوجد فيه أيضًا غديرُ ماء عذب، ولكنّه خال من المنازل.

وكلّما اقتربنا من عمق الوادي كلّما ازدادت كثافة الغابات، وأخيرًا دخلنا سلسلة جبالٍ مليئة تمامًا بأشجار البلّوط، وقد تمكّنت هنا أنْ ألاحظ الأنواع المختلفة التي تنتج المنّ، وأيضًا التي تحمل العفص الجوزي، ولاحظت أيضًا أنّ الأشجار هنا ليست ضخمة.

إنّ هذا الإقليم المطوّق بالغابات، والكثير من المداخل والمصاعد ومدارج النّزول والشديد الانحدار؛ هو إقليمٌ شامخ، وهبوطه من هناك كان تدريجيًّا، وقد صاحبتنا الغاباتُ حتّى وصلنا إلى القرية التي تبتعد عن خيامنا بمسافة ثلاث ساعات ونصف.

وبعد وصولنا بفترةٍ طويلة وصلت حقائبنا، وقد قدّرت المسافة من هنا إلى ميزيره بعشرين ميلًا باتّجاه الشرق، الذي أشارت إليه البوصلة.

قرية شيفلي chevli:

هذه القرية هي مقرّ إقامة بيك الجيباكجور jabakjur أو جيباكجور chibokchur، وتعود هذه المنطقة إلى باشلق أي باشوية ديار بكر، وقد سمعت أنّها تبعد عن هنا بمسافة ٢٤ ساعة سيرًا، وعلمت أيضًا أنّ نهر مراد جاي يبعد عن هنا بمسافة ساعتين ونصف نحْو الجنوب، ويقال إنّ به بعض الأماكن التي يمكن عبوره منها خوضًا خلالَ فصل الصيف، كما أنّ الطريق من هنا إلى هناك جيد، ويؤدّي إلى وادٍ، ولكنْ بعد عبور الجداول فإنّ الطريق إلى خيني يمرّ من خلال سلسلةٍ جبلية وعرة، شديدة الانحدار، وهي تكملة لجبال موش.

وتقع قرية شيفل كما يبدو في وادٍ ضيّق نحتته المياه، وعلى ضفاف جدول صغير.

يقيمُ في هذه القرية ١٥٠ عائلة، نصفهم من الأرمن، والنصف الآخر من المسلمين، ويبدو من مظهرهم العام أنّهم لا ينعمون بحالة معيشية جيدة، وعندما زارني بيك المنطقة وجدتُ أنّه ليس ذكيًّا، حيث أنّه يحكم ٦٠ قرية، معظمها قرى صغيرة، ولا يقيم بها إلّا عددٌ قليل من الأسر، وقد يصل عددهم بين ٥ أو ٦ أسر.

وقد علمت من البيك أنّهم دائمًا مقمعون من قِبَل جيرانهم الأكثر سلطانًا مثل باشا منطقة موش، وبيك خيجي، وقد اشتكى منهم قائلًا:

«لقد هاجموا منطقتي وسلبوا معظمَ ممتلكاتها، وأنا أستطيع أن أجمع مائة فارس وألفًا من المشاة المسلّحين بالبنادق للمعركة، ولكنّهم عندما يهاجموننا نجد أنّهم أقوى بكثير، ولا نجد أمامنا مفرًّا إلّا الهروب إلى الجبال، ونحمل معنا كلّ ما نستطيع حمله، أمّا باقي ممتلكاتنا فنتركها تحت رحمة الغزاة.

وقد كان الحال هكذا حتّى جرّد منّا أفضل وأجمل مهورنا وخيولنا، والآن اختفت هذه الحالة من الفوضى والخوف، ولكنّنا مازلنا نشعر في داخلنا بعدم الأمان، ومازالت نتائجُ هذه المعارك تؤثر فينا حتّى الآن.

النّاسُ هنا يدفعون الضّريبة المعروفة بالساليانه التي تتراوح بين ٢٠ إلى ٣٠ ليرة، وهذا ليس مرّة واحدة، بل خمس مرّات في العام الواحد. وكالعادة لقد اشتكى الأهالي من الضرائب الكثيرة.

سكّان هذه المنطقة من الأرمن يعملون في الزّراعة، ولكن إنتاج الحنطة والشّعير ليس وفيرًا، لدرجة أنّه لا يلبّي احتياجاتهم المحلية، أمّا التبن والحطب فهما متوفران بكثرة، ويحصلون عليهما من الجبال المجاورة.

وجميعُ أهل القرية يملكون حوالي ألف رأس من الأبقار والثيران والأغنام والماعز والجاموس.

والطّبقة الفقيرة في هذه المنطقة تعمل في جمع الأصماغ من الجبال المجاورة، ويتمّ بيعها إلى جانب أصواف الماعز إلى تجار ديار بكر وبالو الذين يقدّمون للمنطقة لشراء المنتجات المحلية.

إنّ أشجار البلّوط في المنطقة الجبلية تنتج محصول المنّ مرّة كلّ ثلاث سنوات، وقد كان من المتوقّع أن يحصلوا عليه هذا العام، حيث إنّ المناخ كان مناسبًا، إلّا أنّهم لم يحصلوا عليه.

نزلتُ إلى النّهر لأسبح قليلًا وتركتُ ساعتي على الضفة، وبعد أن سبحت واستمتعت بالماء خرجتُ بعد ثلاث ساعات لأكتشف أنّ ساعتي قد سرقت،

أخبرت مراسل الباشا الذي كان يرافقني، فذهب وأخبرَ بيك المنطقة، اعترف أحدُ الأطفال أنّه أخذها، ولكنّه لم يستمتع بها كثيرًا، حيث أخذها منه شخص أكبر، وعدنا البيك أنّه سيجدها ويرجعها لنا، ومضت ساعة، ولم أرَّ أي شيء، فعاد المراسل مرة أخرى للبيك، وهدّده قائلًا:

إذا لم ترجع تلك السّاعة لصاحبها في الحال، سوف أوثق يديك وقدميك، وأرسلك مخفورًا مع أحد السّعاة إلى حافظ باشا.

وقد أسفر هذا التهديدُ بالنتيجة المرجوّة، فاستردت ساعتي، وهذا الأمر يدلّ على مدى مهابة وسلطة حافظ باشا على النّاس حتّى في هذه المنطقة النائية المتخلّفة من المنطقة، وبالرّغم من أنّ الباشا لم يظهر هنا، ولم تظهر قواته أيضًا إلّا أنّهم يهابونه ويطيعونه.

الأوّل من آب/ أغسطس، عام ١٨٣٨

تركْنا قرية شيفل، وتابعنا مسيرنا، وقد كان هذا اليوم طويلًا وشاقًّا، وعبرنا جبال وعرة، لدرجة أنّ حقائبنا فضّت بعد منتصف الليل، لنتابع تحرّكنا في الساعة الخامسة صباحًا، هبطنا من الوادي إلى السّهل الذي ينفتح على جدول المدينة الذي يتخذ جدولًا مهمًّا آخر.

والذي ينحدر من سلسلة الجبال التي اجتزناها قبل وصولنا قرية شيفل أنّ هذا السّهل صخري جدًّا، وجزء كبير منه مغطّى بالشجيرات الصغيرة النامية تحت الأشجار الكبيرة، وبعد أنِ اجتزنا هذا السّهل دخلنا بين الجبال، وخلال مسارنا دخلنا واديًا جميلًا مليئًا بالغابات وأشجار الفاكهة والمراعي الخضراء التي يجري خلالها نهرٌ صغير، ليصبّ في النهر المسمّى كونلوك صو GUNLUK SU، وهذا الاسم مشتقّ من اسم المنطقة نهر مراد جاي، إنّ هذا النّهر ينبع من المنطقة الشمالية الشّرقية، حيث يسمّى هناك باسم المنطقة التي ينبع منها.

عبرْنا هذا الوادي، ثمّ صعدنا سلسلةً عالية طويلة حتّى وصلنا إلى:

قرية آشاغار ASHAGHAR:

تسمّى هذه القرية أيضًا باسم باكين كوك السفلى PAKENGOG، قطعنا هذه المسافة التي تقدّر بأحدَ عشر ميلًا في ثلاث ساعات ونصف، أمّا أمتعتنا فقد اتخذت طريقًا آخر أقلّ وعورة وجبلية، ولكنّه غير مباشر، ويلتف خلال الوديان.

تقع هذه القرية في مكان جميل جدًّا تحيط بها المنطقة المغطاة بأشجار البلوط والصنوبر من كلّ جانب، ويحدّها من الجهة الجنوبية سلسلة جبال شامخة جدًّا تغطّيها الثلوج حتّى فصل الصيف، وأعتقد أنّ ارتفاعها لا يقلّ عن ١٠٠٠٠ قدم.

يقيم في هذه القرية حولي ٥٠ إلى ٦٠ عائلة كردية، وهي تتربّع فوق مرج أخضر، ويوجد بالقرب منها ينبوع ماء بارد، محاطٌ بالأشجار من كلّ جانب، وعند هذا النبع قدّم لنا السّكان أشهى وأطيب طعام إفطار تناولته في حياتي كلها.

تركنا هذا المكان وانطلقنا صعودًا تدريجيًّا، وبعد ساعتين وصلنا إلى:

قرية يوكاريه YOKAREH:

وتسمّى هذه القرية أيضًا باكين كوك العليا upper PAKENGOG، وتقع على بعد ٥ أو ٦ أميال من قرية باكين كوك السفلى، وقد أشار البارومیتر إلى أنها ترتفع بمقدار ٥٢٠٤ قدمًا عن مستوى سطح البحر.

عندما وصلنا إلى هذه القرية وجدنا خيامنا مُقامة تحت أشجار الجوز الباسقة الضّخمة والمرتفعة، وقد كانت هذه الأشجار الضّخمة منتشرة في هذا المكان، وهذا الوادي مليء بالخضرة والظلّ التي تفترش أعنابه القرية، فتضيف إلى جماله جمالًا.

بينما نحن هنا علمْنا أنّ جميع سكّان القرية خرجوا إلى مراعيهم الصيفية طالبين للمرعى، فذهب مرافقنا الكردي وأحضرَ بعضهم، وبعد قليل من الصعوبة حصلنا على ما نحتاج من طعام وفاكهة، وخلال تواجدي هنا اكتشفت أنّ أهالي هذه القرية مختلفون تمامًا عن القرية التي سبقتها، حيث أنّهم غير متحضرين، ولا يمكن السّيطرة عليهم، فعندما وصل مراسل الباشا الذي كان يقوم ببعض الإجراءات الضّرورية، رفض عجوز كردي ذو لحية بيضاء قاسي الملامح أن يزوّدنا بأي شيء، وعندما وبّخه أحدُ مرافقينا قال إنّه سوف يجمع أهالي القرية ليرمونا خارج القرية كالخنازير.

وعندما علم مراسلُ الباشا بهذه الوقاحة أمر بشدّ وثاق ذلك الرجل، وهدّده أن يرسله إلى حافظ باشا ليعاقبه على هذا التصرّف، فأنكر الرجال كلّ ما قاله من إساءات،

ولكنّ مراسل الباشا تركه على هذه الحالة لمدّة ساعتين أو ثلاثة، حتّى أشفقت عليه، وتشفّعت له عند مراسل الباشا بعد أن أخذت منه وعدًا ألّا يعامل أيّ زائر على هذا النّحو مرّة أخرى، فعفا عنه مراسل الباشا وتركه.

وقد علمت أنّه قبل حوالي شهر قام بيك القرية السّفلى بالهجوم على القرية العليا، وأجبر سكانَها على إعطائه ٧٥ ليرة كفدْية، ولم يكتفِ بذلك بل قام بذبح عدد من أغنامهم وإطعامهم لأهل قريته، ونهب عددًا آخر منها.

جاء رئيسُ القرية العليا، وطلب من مراسل الباشا أن يأذنَ لابنه بمرافقته ليعرض هذه المشكلة على حافظ باشا شخصيًّا، وقد علمت أنّ هاتين القريتين في نزاع دائم ومشاكل لا نهاية لها، ونظرًا لأنّ عدد سكّان القرية السفلى أكبر عددًا من سكّان القرية العليا، فإنّهم دائمًا ما يتعرضون لأكبر قدرٍ من الخسائر والمعاناة نتيجة لقلّة عددهم.

وسوف أخبركم الآن بشيء قد حدثَ لي في قرية شيفلي:

عندما كنت أتجوّل في قرية شيفلي ومررتُ ببيت القاضي، رأيت مهرة جميلة، ووقفتُ أشاهدها في إعجاب، وكانت تقف أمام بيته، وبعد قليلٍ أرسل لي القاضي ليخبرني أنّه مستعدّ أن يهديني هذه المهرة إنْ كنت معجبًا بها، فلم أقبل هذه الهدية، وبعدها علمتُ أنّ مختار القرية قد اشتكى لمراسل الباشا من القاضي قائلًا:

«لقد أخذَ القاضي منّي هذه المهرة لأنّني قتلت رجلًا أرمنيًّا قبل عشر سنوات، ومعها أيضًا أخذ سيف وبندقية».

فوعَدَه مراسل الباشا أنّه سيجبر القاضي أن يردّ له هذه الأشياء.

وهذا الأمر يدلّ على شيء واحد وهو أنّ هذه المنطقة من البلاد وضعها غير مستقرّ، وتحكم بالقانون الفردي والفضفاض.

الثّاني من آب/ أغسطس، عام ١٨٣٨

غادرنا قرية باكين كوك العليا قبل السّاعة الخامسة صباحًا. واتّخذنا طريقًا وعرًا، ثمّ بدأنا نصعد سفحَ جبل باتجاه الجنوب الشرقي.

وقد كان هذا الجبلُ أحدَ سلاسل الجبال المكسوّة بأشجار البلوط الصغيرة، وبعد ٤٥ دقيقة وصلنا إلى قمّته، وواصلنا سيْرنا عليها لمدّة نصف ساعة، وخلال مسيري هناك رأيت الكثيرَ من القطع البركانية اللامعة المسمّاة السيج، وقد كان كبيرة الحجم، أمّا أراضي القرية فكانت من الطين الأحمر القاني.

ثمّ هبطنا عبر طريق تكسوه الأحراش، ممّا جعلنا نستغرق وقتًا طويلًا في الهبوط، استمرّ هبوطنا على هذا المنحدر الجبلي الصخري حتّى وصلنا إلى النهر المسمّى «تختا كوبري» TAKHTAH KOPRI أي النهر ذو الجسر الخشبي، ينبع هذا النّهر الشمال، ثمّ يصبّ في نهر مراد جاي في المنطقة التي تبعد ثلاث ساعات خلف المكان الذي عبرنا فيه النهر خوضًا.

يجري هذا الجدول خلالَ وهدٍ جبلي شديدِ الانحدار، وضفافه مغطاة بالأشجار ذات الظلّ، وقد كان التيار سريعًا، وقاع المياه غائرًا، ويبلغ عرضه ما يزيد عن ٣٠ ياردة.

بعدَ عبورنا هذا النّهر لاحظتُ أنّ الأرض التي تحيط به كانت من نفس طبيعته، أمّا الأراضي التي تقع أسفله، فقد كانت خصبة ومزروعة بشكل ممتاز.

وقد رأينا من بعيد قريتيْن، ولكنّنا لم ندخلهما، قطعنا السهل، ثمّ وصلنا إلى:

قرية بو غلام BOGHLAM:

تبعد هذه القرية من قرية باكين كوك بمسافة ١٢ ميلًا، قطعناها في أربع ساعات ونصف، وقد لاحظتُ في الجهة اليسرى من طريقنا وبين الجبال المنخفضة المحاذية لهذا السّهل؛ قمّةً تبدو كفوّهة بركان خامد، وقد كانت مُنخفضة عن تلك القمّة التي وجدت فوقها القطعُ البركانية اللّماعة، وقد كانت على بعد عدّة أميال من تلك القمّة.

يحكمُ هذه القرية مختار، وتحتوي على ٦٠ عائلة من الكرد، وعندما علم المختار بوصولنا هيّأ لنا إفطارًا شهيًّا للغاية، وكلّف ولديه الشّابين بخدمتنا وتلبية كلّ احتياجاتنا، وقد كان هذان الولدان الكرديّان في غاية الوسامة والرقة وحسن الخلق.

تناولنا في غرفة مُلحقة بالجامع، وقد كان هذا الجامع يحتوي على حوض صغير مليء بالماء البارد الذي يزوّد به من نبع عذب مجاور، بعد أن استرحنا قليلًا تركنا قرية أبوغلام، واصطحبني ابنُ المختار، وتسلّقنا واديًا جميلًا به قرية جميلة، وبعد قليل وصلنا إلى قمّة السلسلة، ورأينا من فوقها سهلَ موش، ونهر مراد جاي الذي كان يتعرّج ويلتوي بحدّة على طول السهل.

وبعد حوالي ساعتين سيرًا وصلنا إلى:

دير جانكيري CHANGERI:

يقبل على هذا الدّير العديدُ من الحجّاج الأرمن، وينسب هذا الدير إلى يوحنا المعمدان، ويطلق عليه الأرمن سيرب كارابيد SURP-CARABED، وقد سمعت أنّ جزءًا من جيشه محفوظٌ في حقيبة موضوعة إلى مذبح هذه الكنيسة، وقد اكتسب هذا الديرُ منزلته العالية في نفوس الأرمن لأنّه يضمّ رفات ذلك الرجل المقدس.

ويعتقد النّاس أنّه يمتلك مقدرةً إعجازية كبيرة في الشفاء من العديد من الأمراض.

هذه الكنيسة قديمة جدًّا، ويقال إنّها قد شيدت في عام ٣٠٤ ميلادية، وهي عبارة عن بناء صخريّ كبير، لا تحتوي على أيّ لمسات معمارية جميلة، وتبدو عليه الكآبة بسبب نوافذها الصّغيرة التي لا تدخل إلّا القليل من الضوء، تقف هذه الكنيسة وحدها في أرض رحبة وواسعة.

وهي تحتوي على العديد من الغرف لإقامة الحجّاج، بل وتحتوي على اصطبلات لتأوي خيولهم.

يحيطُ بهذه الكنيسة حوائطُ صخرية قويّة البناء، ومرتفعة للغاية، وتمتاز بتصميمها الحصين الذي يحميها من أي غزوات أو حروب.

حتّى أنّه أثناء حرب روسيا، وعندما اتّخذ الأرمن جانب الروس؛ احتلّ الأكراد هذه الكنيسة، وأقاموا بها لعدّة أشهر، وقد سمعت أنّهم قاموا بنهب كنوزها، وأحرقوا ورموا الكثيرَ من مخطوطاتها النّفيسة في النهر، وعندما وقعت معاهدة أدريانوبل صدرَ فرمانٌ سلطاني بإعادة الأموال المسروقة إلى الكنيسة، ولكن كان معظمها قد دمّر، ولهذا لم تستعدّ الكنيسة إلّا القليل من هذه الممتلكات.

يقيم بهذه الكنيسة العديدُ من القساوسة الذين لا يبدو عليهم حسن الخلق، ويبدو أنّهم لا يتمتّعون بالكثير من الثّقافة والعلم، وقد كانوا كثيري الشكوى من تناقص عدد الحجاج سنة بعد أخرى.

وتمتلك هذه الكنيسة قريتين، عوائدهما قليلة كما يبدو، وتعتمد هذه الكنيسة اعتمادًا تامًّا على تمويل الحجاج، وأهل التقوى من المتديّنين المتطرفين، وكلما ذهبت إلى مكان يحدّثني الناس عن مدى قدسيّة هذه الكنيسة، وعظم أجر مَن يؤدّي

فيها طقوس الحج، ولكنّني أصبتُ بدهشة كبيرة عندما سمعت شكوى تناقص الحجاج، نظرًا لأنّ الجميع يقدس هذا المكان.

لقد سمعت الكثيرَ من هذه التقارير التي تحكي عن مدى ثراء هذا الدير وعن عددِ الغرف المخصّصة للحجّاج، وعن المعاملة الحسنة التي يعامل بها الحجاج من قبل القسس والرهبان، ولهذا خاب أملي كثيرًا عندما اطّلعت على الغرف ولم أجد غرفةً واحدة نظيفة لأقيم بها، فقد كانت كلّها قذرة ومهدمة.

ولهذا كان من الأفضل أنْ ننصب خيامنا على بقعةٍ مظلّلة بالأشجار العالية وعلى مقْربة منابع عذبة من الماء خارجَ هذا الدير على منحدر تل، وأثناء تواجدي هنا لاحظتُ القيام ببعض التّرميمات في الدير، وقد استخدم عددٌ كبير من العمال لعمل تلك التّرميمات في أقرب وقتٍ ممكن، وقد كان عملهم الرئيسي يقوم على قطع الأحجار.

وقد لاحظتُ أنّ النساء لم يستبعدنَ من هذا الملجأ الرّهباني، حيث رأيت نساء كثيرات في فناء الدير.

وفي كلّ عام يقام في هذا الدّير مهرجان في يوم يوحنا المعمدان السنوي، ويحضره الكثيرُ من الناس مختلفي الأجناس والأديان والطوائف، ويأتي إلى هنا العديدُ من سكان الأرياف المجاورة.

وفي مهرجان هذا العام (عام ١٨٣٨) تشاجر كرديّ ومسيحي معًا وتبادلَا الصّفعات واللّكمات، وشهرت الأسلحة وجرتْ محاولاتٌ للسرقة.

ونتيجة لهذا الشّجار قام الناس بوضع أشيائهم داخل الكنيسة، وعلى الرغم من هذا الخوف والهلع الذي ملأ قلوبَ الناس إلّا أنّ القليل من الممتلكات فقط،

وهكذا توقّف المهرجان السنوي، وجاء خورشيد بيك شقيق أمين باشا بنفسه ليستعيدَ الأمن والنّظام بين الكرد وسكان الكنيسة.

لقد كان الرجلُ الأرمني صاحب البغال التي استأجرناها لنقل أمتعتنا مازال يعاني من الحمّى التي أصابته في خربوط، فحاول بكلّ يأس وإيمان مطلق أنْ يحتمي بجثمان يوحنا المعمدان، ظنًّا منه أنّه يستطيع شفاءه، إلّا أنّه لم يلاق أي تحسّن، فرجع خائبًا ليأخذ الأدوية التي وصفها له الدكتور ديكسون، أمّا الطباخ المرافق لنا فقد كان متديّنًا جدًّا، ومبهورًا بشدّة بقداسة المكان، لدرجة أنّنا عانينا كثيرًا في إخراجه من الدير وإقناعه بإعداد الطعام لنا.

أخذ بعضُ المرافقين لنا خيولنا إلى قرية قريبة من ممتلكات الكنيسة، وتركوها تمرحُ في المروج الواسعة للبرسيم الذي كان قد قطع ونقل إلى مكان آخر.

وفجأة، وبينما كان الرجال يستريحون قليلًا، هوجموا من قبل بعض القرويين الذين ضربوهم ببعض الصّفعات من أيديهم الثقيلة جدًّا، ممّا أدّى إلى إصابتهم إصابات بالغة.

وفي هذا الوقت كنتُ قد أرسلت مراسل الباشا ليخبرنا باشا منطقة موش بقرب وصولي، ولذلك أرسلت مراسلًا آخرَ للقبض على هؤلاء القرويين، ولكنه لم يوقفهم حيث وجد القرويين قد فرّوا للجبال القريبة.

ولهذا لم أجدْ أمامي حلًّا غير أنْ أقدّم طلبًا لرئيس الدّير للقبض على المجرمين ومعاقبتهم، فما كان منه إلّا أنْ جاءني بشخصين بريئين، وقال لي:

إنّ القرويّين الذين هاجموا رجالك قد فرّوا للجبال، ولكنّي أصرّيت على أن يقدّموا لي متّهمين في الصباح، وسيمثلون أمامي، وسوف آخذهم معي إلى أمين باشا ليعاقبهم بدلًا منهم.

الثّالث من آب/ أغسطس، عام ١٨٣٨

حلّ الصّباح ولم يحضرْ لي رئيس الدير سوى رجلٍ واحد، ولكنّ المعتدى عليهم أخبروني أنّ هذا الرجل قد شهد الاعتداء عليهم، ولكنّه لم يشارك فيه، وهكذا فهمت أنّ القسس لا يريدون تسليمَ المعتدين لي، ولهذا فقد امتطيتُ صهوة فرسي، وأجبرت رئيسَ الدير لمصاحبتي كما قال سابقًا، وبعد مرور نصف ساعة من المسير، وجدت رئيسَ الدير يطلب منّي فرصة أخرى قائلًا:

إذا سمحت لي أنْ أعود إلى الدّير فسوف أقبض عليهم جميعًا وأرسلهم إلى موش خلال يومين.

فوافقتُ دونَ تردّد على هذا العرض، وظننت أنّه سيفي بوعْده هذه المرة، ولكنني خابَ أملي لأنه لم يفِ بهذا الوعد أبدًا.

واصلنا مسيرنا لمدّة ساعتين حتّى وصلنا إلى منطقة «زيارت»، وتسمى أيضًا منطقة الحج، تقعُ هذه القرية في سهلٍ على مسافة صغيرة إلى حدّ ما من سفح الجبل.

يقيم بها أربعون عائلة من الأرمن، كما يتوفّر بها مرابع شتوية لحوالي ٢٠ أو ٣٠ عائلة كردية خلال موسم الشتاء.

واصلنا تحرّكنا خارجين من قرية زيارت، وبعد أن عبرنا الجدول الذي يجري بالقرب من قزل آغاج KIZIL-AGHAJ، مررنا بالقرب من قرية باكينكوك PAKENGOG، وقد ذكرنا هاتين القريتيْن من قبل أثناء طريقنا إلى مدينة خربوط.

وقبل أنْ نصل إلى قرية جيفرميه CHEVERMEH معسكرنا القديم، قابلنا مبعوثًا من أمين باشا، ليعرض علينا الإقامة في منزل خورشيد بيك،

ولكنني رفضت هذا العرض، وأصررتُ على الإقامة في الخيام المنصوبة في الهواء الطلق خارج القرية، مؤكّدًا له أنّني أريد الإقامة في قرية آريش بان ARISH BAN التي تقع بالقرب من سراي الباشا.

وصلنا إلى هنا بعد جولةٍ استغرقت أربع ساعات من زيارت في جوّ حارّ جدًّا، وقد قدّرت المسافة بين المنطقتين بحوالي ١٢ ميلًا.

وقد كان هذا الطّريق جيدًا، ولهذا تركنا أمتعتنا خلفنا لتصل بعد فترة من وصولنا، وأقمتُ في منزل محمد بيك رئيس القرية وأحد أقرباء أمين باشا، تناولنا وجبةَ إفطار شهيّة، بينما كنّا ننتظر وصول خيامنا، وقد كان كلّ من محمد بيك وشريف بيك قد وصلا في الصّباح إلى هنا، حيث كانا في تبليس، وقد أرسل أمين بيك في طلبهما لمشاورتهما في بعض الأمور، أمّا مراد بيك فقد كان وصوله متوقعًا بين لحظة وأخرى من خينيس.

لقد اجتمع هؤلاء الإخوة للتّباحث في الوضع الجديد الذي أصبح عليه أمين باشا، حيث تحوّلت باشويّته إلى حافظ باشا، وأيضًا لأنّهم يريدون جمع الأموال لشراء أفخر الهدايا لتكريم رئيسهم الجديد، وحتّى يضمنون تعيين أمين باشا مرّة أخرى على نفس الباشوية.

بعد وصولنا لهذه القرية مباشرة جاءَ كلّ من مراسل الباشا ورئيس الحرس التابع لأمين باشا للتّرحيب بي، وقد أخبرني مراسل الباشا أنّ حافظ باشا يصرّ على أن أكون في عناية محمود بيك، وأنْ يلبي كلّ احتياجاتي.

وبعد ساعتين من وصولنا وصلتْ حقائبنا، وقمنا بنصبِ الخيام في مكان قريب من القرية.

الطّقس هنا حارٌّ وقاسٍ خلال النّهار، وعند حلول الليل يصبح ألطف قليلًا، ولكنّ أكثر شيء كرهتُه هناك هو البعوض الذي جعل إقامتي هناك بغيضة، وطوال فترة إقامتي هناك كنت أتبادل الزّيارات مع أمين باشا الذي كان يستقبلني بكلّ حبّ ومودّة، كما زارني شريف بيك أيضًا، وعرض عليّ بإصرار أن أقيم في منزله عندما أصلُ إلى تبليس، حيث كان من المتوقّع أن يصل إلى هناك فور وصولي؛ لأنّه كان يريدُ الذّهاب إلى منزله، بعد أن يذهب أمين باشا إلى مقرّ حافظ باشا مباشرة، والذي كان سيقطع المسافة في وقت أقلّ بكثير عمّا سأقطعه أنا.

السّابع من آب/ أغسطس، عام ١٨٣٨

لقد غادرنا أريش بان إلى جليس، وبمجرّد ركوبنا الخيول التحق بنا رجلٌ من أتباع شريف بيك الذي أخذ يلعب دورَ الميهمندار، أو الرّجل المضيف، ولكننا اكتشفنا بعد فترةٍ ليست طويلة مدى التغيير، وإنّنا قد خسرنا مراسل الباشا المرافق ذا الأخلاق الكريمة.

بدأنا نسير نحْو الشرق، على امتداد الحافة الجنوبية لسهل موش، وبعد ثلاث ساعات توقّفنا بالقرب من قرية خاص كوي KHASS-KOI، وقد قمنا بهذه المسيرة القصيرة حتّى نقسّم الطريق إلى بتليس بطريقة تمكّننا من الوصول إليها خلال ثلاثة أيام فقط.

لقد كان الطريقُ من آريش بان منبسطًا تمامًا، وقد كانت المسافة تبلغ حوالي ٩-١٠ أميال في مسيرة نحْو الجنوب الشرقي، ثمّ إلى الشرق، وعلى سفوح سلسلة جبليّة كانت التربة مفروشةً بالحصى، ولكنّ الطريق بدأ يتحسّن عندما اقتربنا من النّهر، وفي الأجزاء المنخفضة من السّهل لاحظت العديد من حقول القمح التي في طور النّضوج، بالرغم من هذا الصيف الذي كان حارًّا وجافًّا.

تحتوي هذه القرية على ١٥٠ أسرة أرمنيّة، وتوفر مرابع شتوية لأربعين أسرة كرديّة، ويوجد بها كميات هائلة من التّبن الذي تستعمله الأسر، ومن الغريب أنْ يلاحظ الزائر تلك الأكداس من التّبن الموضوعة فوق أسقف البيوت المسطحة ممّا يعطي الزائر انطباعًا أوليًّا أنّه قد وصل إلى القرية، وقد كان هذا التّبن مضفّرًا على شكلٍ هرمي منظم بدون رأس.

اشتكى لنا القرويّون كالعادة من الضّرائب الثقيلة الملقاة على عاتقهم، وكذلك لتوفير المرابع الشّتوية التي حوّلتهم إلى فقراء تقريبًا، ولولا هذا العبء الثقيل لكانوا الآن ينعمون بحياة مريحة، فمثلًا العام الماضي كان عليهم أن يدفعوا ٨٠ ليرة لتوفير العلف للماشية؛ لأنّ الشّتاء في العام الماضي كان أطول من المتوقع.

وقد قُتل اثنان من إخوة رئيس القرية في نزاع حدث بينهم وبين بعض الضّيوف، وقُبض على القاتلين، وأرسلا إلى قائد حامية أرضروم، وقد قام بدوره بإعدامهما على الفور، ومنذ ذلك الوقت وشقيقهما الثالث مختفٍ خوفًا من أن يجده الأهالي ويأخذون بثأرهم منه.

لقد كان منزلُ البيك هو المنزلَ الوحيد ذا الطّابقين، وقد كان مظهره الخارجي لا يوحي بتوفّر أسباب الرّاحة به، وعندما وصلنا إلى هنا كان البيك ذاهبًا إلى لقاء أمين باشا في موش، وهو أحدُ أقاربه أيضًا، ولهذا جاء ابنُه ليرحّب بنا ويعرض علينا خدماته.

واصلنا سيرَنا لمسافة ثلاث ساعات عبْر الجبال المحاذية للسهل من جهة الجنوب، وتقع هذه المنطقة ضمن سهلٍ ممتدّ تعود ملكيته إلى بيك خارزان. وهو يقيم على مسافة ٢٦ ساعة إلى خلف المنطقة قبل الاندحار الأخير للخارزانيين على يد قوّات حافظ باشا، وقد قال لي ابن البيك إنّ عملية إقامة معسكر هنا لا تحول دون الخطر، حيث إنّنا نقيم خيامنا دونَ الاستفادة من حماية بيت من البيوت الكبيرة، وذلك لأنّ الخازرانيين كانوا يقطعون هذه المنطقة ذهابًا وإيابًا عبر الجبال المطلّة لممارسة السطو وسرقة الأغنام ليلًا.

وقال لي ابن البيك أيضًا:

إنّ عملية جزّ الرؤوس هنا كانت شائعة جدًّا؛ لأنّ الأرمن الذين يمثلون ثلثي سكان المنطقة لم يشتركوا في الصّراع، أمّا الخارزانيين فقد كانوا منقسمين فيما بينهم،

أمّا البيك وجماعته، فقد وقف إلى جانب حافظ باشا، أمّا سكان المناطق الجبلية الأكثر وعورة فقد قاوموا حافظ باشا وقواته ببسالة شديدة.

وأضاف أيضًا أنّ الهجوم كان سيفشل تمامًا لو لم يكنْ هؤلاء الخارزانيين منقسمين فيما بينهم.

عسْكَرنا بالقرب من مكان تملؤه أكوامٌ من سنابل الحنطة، وكانت العربات التي تجرّها الجواميس المحمّلة بالغلال تصلُ المنطقة باستمرار، ولاحظت أنّ عجلات العربات تدور حول محور، في حين أنّ المحور مثبّت بشكل قوي على العجلة، ويدور معها، وقد ظننت أنّني اكتشفت أنّ هؤلاء الفلاحين على درجة كبيرة من الذكاء إلّا أنّ ابن الباشا أخبرني عندما أشرتُ إلى اختلاف هذه العربات بالنسبة للفلاح قائلًا:

إنّ هذه العربات التي كنت أعتقدُ أنّها من أفضل الأنواع هي على العكس تمامًا، فهي رخيصة جدًّا، ولا تدوم طويلًا، فخلال عامين أو ثلاثة سوف تتلف، أمّا العربات الأخرى قد تستعمل لأكثر من عشرين عامًا فقط إذا بدّلت المحاور عند الاستعمال، كما أنّ عجلاتها تقوى باستعمال القضبان الحديدية، ولها إطارات حديدية أيضًا، ويصل سعرُ زوج الإطارات إلى ٥ ليرات تقريبًا، وقد قلت له بدوري إنّه يسهل سحبُ هذه العربات الرخيصة والتي يبدو أنّ محدّثي اللبق كان منتبهًا لها جيدًا، وعندما أشرت إلى المتانة المتزايدة لهذه المحاور إذا قويت باستعمال قضبان حديدية، ووضع حقائب حديدية للعجلات؛ أجابني قائلًا:

لا يوجد هنا حدّادون للقيام بذلك، كما أنّ العجلات الجيدة تجلب من أرضروم جاهزة، وتثبت على العجلات التي تصنع هنا، أي العربات، كما أنّ العربات الأكثر شيوعًا تصنع في هذه المنطقة أيضًا، وقد أخبرني أنّ صنع العربة يكلف حوالي ١٥ ليرة، ولا يستخدم في صنعها سوى الخشب، حتّى المسامير الحديدية لا تستعمل بها.

التقيتُ هنا أيضًا بجابي الخراج، وقد أخبرني أنّ المبلغ الكلي للخراج المجموعة لكافّة أنحاء الباشوية هو ٤٦٠ حافظة نقود، بها ٢٣٠٠ ليرة، ولا أستطيع أن أقدر هكذا العدد الكلّي لنفوس المنطقة، حيث إنّ هناك مقاييسَ مختلفة تعتمد لجباية هذه الضّريبة، فكلّ جماعة تدفع الضريبة حسب مقياس معين، ولكن يمكنني أنْ أخمّن أنّ عددَ الذّكور هنا حوالي ١٢ ألف شخص، ممّن تزيد أعمارهم عن أربعة عشر عامًا، وهذا الآن الخراج لا يشمل مَن هُم أقلّ من ١٤ عامًا، أمّا الأطفال هنا فعددهم كبير جدًّا جدًّا، وقد كنّا في معظم الأحيان عندما نصل إلى أيّ قرية نجد أفواجًا كبيرة من الأطفال لاستقبالنا، ومعظمهم أمّا عراة تمامًا أو نصف عراة يرتدون ملابس رثّة ومرقّعة، وقد لاحظت أنّ عددَ أطفال هذه القرية كبيرٌ بشكل غريب، وإذا لم يسبب سوءُ التغذية والألبسة غير النظيفة والمناخ القاسي والأمراض السارية المستوطنة، بالإضافة إلى عدد موجود إسعافات طبية، وإذا لم تسبب العوامل التي ذكرتها من قبل الموت الطبيعي لهؤلاء الأطفال؛ فإنّ عدد السكان سيزداد بنسبة كبيرة جدًّا.

بدأنا نتحرّك مع ضوء القمر، حتّى نتلافى حرارة النهار، تاركين القرية، وفي تمام السّاعة الواحدة والثلث وصلنا قرية آريشدر Arishdir، ثمّ عبرنا نهر قرة صو الذي لا يتجاوز عمقه إلى ما فوق ركبة الإنسان، أمّا عرضه فيبلغ ١٥ قدمًا.

وبعد مسافة ربع ساعة سيرًا عبرنا آهخيفونك Ahke vonk لنعبر نهرًا صغيرًا يصبّ في نهر قره صو الذي وصلنا مرّة أخرى بعد نصف ساعة سيرًا، ثمّ سرنا على ضفافه، واجتزنا بعد ذلك نوخ Nokhn، وبعد صف ساعة وصلنا إلى مارنيك Marnik التي تقع بالقرب من النهر.

وجميعُ هذه القرى التي ذكرناها- باستثناء نوخ الكبيرة- أرمنية وصغيرة، إنّ المسافة من خاص كوى إلى مارنيك قدرناها بسبعة أميال.

خارجين من مارنيك، عبرنا نتوءًا جبليًّا خارجًا من سلسلة جبلية تمتدّ إلى العمق باتّجاه منطقة السهل، ثمّ هبطنا إلى البحيرة ودرْنا حولها، ثمّ انطقلنا عبر فضاءٍ يمتلئ بالمراعي الكثيفة، وحقول الحبوب ومزارع الفاكهة، وهنا التقينا مرة أخرى بنهر قرة صو، الذي خضناه لندخل إلى:

قرية موشاك شير mushak-shir:

تحتوي هذه القرية على خمسين عائلة من الأرمن، وهي إحدى ممتلكات شريف بيك التبليسي.

وقد قدّرنا المسافة من مارنيك إلى هنا بحوالي ستة أميال باتجاه الجنوب الشّرقي، ثمّ إلى الشرق طبقًا لما أشارت له البوصلة.

أقمْنا خيامنا في شرق القرية، بالقرب من أرض مخصّص لدراسة الحنطة في مكان حارّ جدًّا ومكشوف، وقد اخترناه لأنّه بعيد عن الماء لنتجنب حشرة البعوض، وقد كان أمامنا سلسلة جبال نمرود داغ، وإلى الجنوب وعلى الجانب الآخر الذي تكثرُ فيه المستنقعات، توجد قرية كردية تسمى نورشين nurshin، وتستمرّ سلسلة جبار نمرود تقريبًا باتجاه الشمال والجنوب، ولكن نهايتها تقطع بسلسلة جبال عريضة تسمّى كيركو داغ kerku dagh، التي تستمرّ باتجاه الشرق والغرب، وقد لاحظت أنّ سفوح هذه السلسلة الجبلية تميل إلى السواد نتيجة لشدّة كثافة الغابات الموجودة عليها، كما أنّ قمّتها مسطّحة، وتشبه فوّهة بركانٍ خامد.

إنّ الطّريق يجري خلال تجويف يقع بين جبال كيركوداغ وسلسلة الجبال المحاذية لسهل موش من الجهة الجنوبية، والذي يستمرّ في اتجاه شرقي علي طول بحيرة وان.

التّاسع من آب/ أغسطس، عام ١٨٣٨

استيقظنا في الصّباح الباكر، وغادرنا قرية موشاك شير، درنا حول السهل الكثير المستنقعات، الذي يقع بين هذه القرية والقرية الأخرى المسمّاة نورشين، وبعد مسيرة نصف ساعة وصلنا مرّة أخرى إلى نهر قره صو، وعبرناه من هنا لآخر مرّة، إنّ هذا النّهر قادم من الشّمال، ويلتفّ حول قاعدة سلسلة جبال نمرود، والوهاد والوديان التي يتمّ عن طريقها تصريف مياهه.

واصلنا تحرّكنا لأكثر من ساعة حتّى وجدنا أنفسنا أمام قرية نورشين، ولكننا لم نصلْ إليها بعد، وكانت تبعد عنّا بمسافة ميل واحد تقريبًا.

يقيمُ بهذه القرية الكرد، وهي تغطّي مساحة شاسعة، كما أنّ منازلها متفرقة بين الحقول والبساتين، منظر هذه القرية جميلٌ للغاية، حتّى أنّني أعتقد أنّها أجمل القرى الواقعة في هذا الجزء من القطر، فمجرّد النّظر إليها يبعث في قلبي مزيجًا من السّعادة والمتعة.

ومِن هذا المكان ارتقينا هضبةً جميلة تقع بين سلسلتي الجبال، لنعبر قرية صغيرة، يوجد بالقرب منها خان مهدم يسمّى برج الكافر Kafir-Borj، ولكنني علمت أنّ جميع سكانها مسلمون.

وهناك تفاجأنا بلقاءِ بعض اليزيديين الكرد الذين جاءوا من خيامهم الواقعة على سفوح جبل نمرود داغ، وقد كانوا يتّجهون إلى تبليس، وكان أحدُهم يعرف القليل من اللغة التركية.

وعندما تبادلت معه الحديثَ أخبرني أنّهم ليسوا من المسلمين، وأنهم يشربون البراندي، ولسببٍ ما ظهر وكأنّه يدّعي نوعًا من الوشيجة مع النصارى،

وهذه الفكرة شائعةٌ بين المسلمين كما يبدو، أي أنّهم يعتقدون أنّ أفضل ما في العقيدة المسيحية هو أنّه من المسموح لهم أنْ يتناولوا المسكرات في أيّ وقت، دونَ عقاب أو قيود.

وقد سمعت من الأتراك أنّهم مندهشون من استغلالنا لعقيدتنا لنشرب الخمر، باعتدال كبير وبحرية تامّة.

بعد حوالي ساعتين سيرًا من نورشين، ومن الجهة المقابلة للنهاية الشرقية القصوى لسلسلة جبال كيركو، تحرّكنا باتجاه الجنوب، ونزلنا إلى وادٍ ضيق، وهبطنا منه تدريجيًّا ليقودنا إلى تبليس، إلى النقطة التي غيّرنا فيها اتجاهنا نحْو الشرق، وعلى كلّ جانب من هذا المكان كان هناك سلسلةٌ من الجبال الشاهقة التي يخترقها نهرٌ يجري في وادٍ ممتلئ بصخور البازلت الشّاقولية المقطوعة في قاع الوادي، ويتساقط الماء من مكانيْن تقع فوقهما صقالتان صخريتان، تصل بين جانبي الوادي.

ولكنّ حجمَ الماء في هذا النهر كان قليلًا، ولا يعطي فخامة لهذه الشّلالات الصّغيرة.

خلال اتّجاهنا إلى بتليس رأينا العديدَ من الخانات الكبيرة ذات البناء الصلب، ولاحظتُ أنّها متآكلة، وتساءلت عن السّبب في ذلك، حتّى سمعت أنّ السبب هو أنّه في وقت الشّتاء تهبّ رياح شديدة من هذا الممرّ لتدفع خلال الوديان بقوّة شديدة، وعندما يصاحبها سقوط الثلج فإنّ هذا الأمر يعرّض المارّة لخطر كبير، ولهذا يكون من الخطر اتّخاذ هذا الطريق العام خلال تلك الأيام.

وقد علمت أنّ هذه الخانات قد بُنيت خصيصًا لتكون ملجأ لكلّ مَن ينقطع عليهم الطّريق أثناء هبوب تلك العواصف الثلجية، ولهذا فإنّ القرويين في هذه المنطقة ملزمون بالبقاء هنا خلال تلك العواصف ليزيلوا العوائق،

ويساعدوا الأشخاص والقوافل المحاصرة وتزويدهم بالطعام، وفتح الطّرق والممرات لإنقاذ المحاصرين، وتهدم وإهمال هذه الخانات دليلٌ قويّ على تدهور أحوال التجارة، وإهمال الحكام المحليّين لأقلّ حقوق مواطنيهم حتّى في توفير ملاجئ لهم، وهذا بالطبع أمرٌ مشين.

إنّ صخور هذا الوادي ناعمة وخفيفة لدرجةٍ تجعله يشبه الزّجاج المتناثر من فوّهات البراكين، وقد تركت حوافر الخيول المارّة من هنا أخاديد عميقة وكثيرة هنا، وأعتقد أنّ هذه الصّخور من المؤكّد أنّها ذات أصل بركاني.

نحنُ الآن على بُعد ساعتين وعشرين دقيقة من فتحة الاستدارة نحْو تبليس، وقد قدّرت المسافة من موشاك شير إلى هنا بمقدار ١٥ أو ١٦ ميلًا، لقد سبقنا دليلنا الكردي إلى المدينة ليبلّغ عن وصولنا. وقبل أن ندخل المدينة كان الصّراف الذي يعملُ لدى شريف بيك في استقبالنا، ودعانا بكلّ لطف لزيارة سراي البيك.

إنّ وادي بتليس يجري تقريبًا نحْو الشّمال والجنوب، وهو عبارة عن وهد يتفرّع من الغرب، وآخر إلى جهة الشّمال الغربي، ووهد آخر إلى الشّرق. وفي منطقة اتّصالهم بالوادي الرئيسي تقع مدينة بتليس التي ترتفع عن مستوى سطح البحر بمقدار ٥١٥٦ قدمًا، وفي وسط قمّة المدينة توجد صخرة مرتفعة على نحْو مفاجئ، وعلى قمّتها توجد بقايا قلعة متهدمة.

كانت هذه القلعة فيما مضى مقرًّا لإقامة أمراء بتليس السابقين في قاعدتها الشّرقية تجد البازار (السوق)، أمّا الشّوارع التي تصطفّ على ضفاف الجداول المنسابة خلال الوادي والوهاد، والتي تمتدّ إلى الأعلى لتعطي المدينة شكلًا غريبًا، وتغطّي منطقة واسعة تتشابك فيها الحدائق الداخلية التي تحيط بالبيوت ممتدّة باتساع إلى بطن الوادي، وترتفع الصخور الجرداء الجيرية هنا وهناك ليصل ارتفاعها إلى أكثرَ من

ألفي قدم أعلى الوادي، أمّا قاع الوادي فيمتلئ بكثافة بالحدائق الغنّاء وبساتين الفاكهة المتنوعة التي تروى عن طريق الجداول والينابيع.

وهذه المدينة ذاتُ المظهر الأثريّ الغريب تتمتّع بموقع ممتاز، فالارتفاع الهائل للجبال وخضرة الوادي البهيجة والزهور العطرة المختلفة الأنواع والألوان التي يراها النّاظر من شرفة قصر شريف بيك، وجميعُ هذه الأمور تتجمّع لتمنح المكان مظهرًا جميلًا وجذّابًا يسحر العيون، ويبهج الأرواح.

أمّا صخرة القلعة التي ترتفع بشكل شاقولي إلى نحْو ٥٠ إلى ٦٠ قدمًا، وحوائطها العالية التي يزيد ارتفاعها عن ٣٠ قدمًا من قمّة الجبل التي تحيطها كما يحيط العقد بعنق المرأة الجميلة ليزيد من جَمالها وروعتها.

إنّ هذه القلعة المحكمة البناء التي تنتشر على جدرانها فتحات صغيرة كانت قبلَ استعمال المدافع من الحصون المنيعة.

والمدخلُ الوحيد لهذه القلعة هو الممرّ الشّديد الانحدار الضيّق، المحمي بعدّة بوّابات قوية، وخلال هذا الجدار الخارجي يبدو الكلّ كتلة من الخرائب، ونادرًا ما تجد أحدًا يرغبُ في الإقامة بهذه القلعة، ولذلك لا يقيم بها سوى عائلة أو عائلتين لجأوا إليها للهروب من الدّمار الشامل، وأقاموا في بعض مراحيضها الخارجية، وهم بالطبع من العوائل الفقيرة.

إنّ أسواق هذه المدينة عامرةٌ وشاملة، وتحتوي على كلّ ما يحتاجه الإنسان، وهي ممتلئة بالدّكك والأسطح الصغيرة، وتستعمل سقوفها كممرّ عامّ للمشاة، ويمرّ من خلال هذه الأسواق طريقٌ ضيّق للغاية، لدرجة أنّه لا يتّسع لمرور أكثر من شخصيْن معًا، وهذه الأسواق عادةً ما تكون مزدحمة بحيث يكون التجوّل خلالها شاقّ جدًّا.

يوجد في أسقف هذه الأسواق فتحاتٌ صغيرة لتسمح بمرور ضوء الشمس، ويحتوي السّوق على خانيْن كبيريْن وجيّديْن، مخصّصيْن لاستضافة تجار الجملة القادمين من خارج المدينة.

وتنتشر الجسورُ ذات القنطرة الواحدة على القنوات المائية التي تسهل العبور دونَ مزاحمة للانتقال بين جانبي المدينة.

يقيمُ في المدينة ألفَا عائلة من المسلمين، وألفُ عائلة من الأرمن، وتضمّ المدينة ثلاثةَ جوامع تعلوها مآذن عالية، بالإضافة إلى اثنتي عشرة تكية تعود إلى الدّراويش المولويّين. ويبدو أنّ مدينة بتليس تعتبر مركزًا رئيسيًّا لروّاد التصوف الإسلامي.

والبيوتُ هنا لها سقوف مسطّحة، ومشيّدة من القرميد، ويستعمل بها الحجر البركاني، الذي يمكن البناء من تركيبته اللينة، وجميع البيوت هنا مبنيّة من الحجر المذكور، الذي يتمّ قطعه على شكل مربّعات ثمّ يستخدم الطين كملاط لتلصق الأحجار مع بعضها البعض بدلًا من الأسمنت.

لقد كان بكوات بتليس دائمًا يتمتّعون بالقوّة والثراء، ولهذا تمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم الذاتي، حتّى جاء عهدُ والد أمين باشا الذي قام بإخضاعهم بالقوة لسلطته.

ومنذ هذا الوقت أصبحت بكوية بتليس مرتبطةً بباشوية موش، وقد سمعت أنّ شريف بيك يحكم أكثرَ من ثمانين قرية، أي أنّ مقاطعة تمثل حوالي ثلث باشوية موش.

وعندما كان للبكوات حكمُهم المستقلّ قاموا بسك عملة معدنية، وحتى الآن مازالت هذه العملة متداولةً في بتليس وأطرافها. إنّ مدينة بتليس كما ذكرت من

قبل تتمتّع بموقعٍ أثري رائع للغاية ومهمّ جدًّا، ولكنّني لم أتمكّن من معرفة المزيد من المعلومات عن تاريخها أو عن الذي أسسها.

وقد قابلت هناك أحدَ الأرمن المطّلعين على أحوال تاريخ المدينة، كما قال لي، وقد أخبرني ببعض الأمور عن تاريخ المدينة القديمة، حيث قال:

لقد قرأت تاريخ تبليس، وأنا أتذكّر فقط أنّ اسمها القديم كان سلام سور salam sur، أمّا اسمُ مؤسّسها فكان إسكندر، وقد كان ملكًا ملحدًا.

يقعُ هذا المنزل في مكان ساحر، عبارة عن نتوء بارزٍ من الجبل باتجاه الجنوب الذي يطلّ من منتصفه عبر حلق الوهد الذي يطلّ على جهة الشرق، إنّ سطحَ قمّة هذا النتوء مشغولٌ ببناية كبيرة تنحدر من حيطانها الأرضية بشكل مفاجئ، ويطلّ من الغرب على المدينة، أمّا من الشرق فيطلّ الوادي الذي يتّحد مع الوادي الرئيسي تحت النهاية الجنوبي لأنف الجبل.

إنّ هذا الموقع المرتفع يعلو الوادي بمقدار ٣٠٠ قدم، ولهذا فهو يتمتّع بنسيم رطبٍ وعليلٍ طوال الصيف، على العكس المدينةُ التي تكون بالأسفل مضغوطة بحرارةٍ القيظ.

لقد بنى شريف بيك هذا القصر، وانتهى من بنائه قبل حوالي عامين، هو بناء خشنٌ واسع، يوجد في وسطه قاعة رباعيّة الزّوايا وعين ذات مياه وفيرة، تقع على الجانب المقابل للمدخل، يوجد به ثلاثة أجنحة مخصّصة للاستعمال.

وهناك الجانبُ الذّكوري من مؤسّسة البيك، ويضمّ جلوسه واستقباله، أمّا الجناح الرّابع فهو مخصّوص لحريم البيك، أمّا الطابق الأرضي، فيحتوي على مخازن الطّعام واصطبلات الحيوانات، وغرف الطابق العلوي يدخل إليها من خلال

صالة مفتوحة تطلّ على القاعة، ونوافذ المنزل كبيرة، وتنتشر على الحوائط الخارجية للمبنى، فتطلّ على مناظر بهيجة وفسيحة.

ويوجد في مركز كلّ غرفةٍ من الغرف عددٌ من المصاطب المكسوة باللباد النّاعم، وفي نهايتها يوجد عددٌ من الكوشات، وداخل غرف الجلوس توجد غرفة أخرى داخلية، عادة ما تكون مشغولة بضيوف البيك.

خصّص لنا البيك غرفة الاستقبال، وبعد وصولنا مباشرة إلى هنا قدّمت لنا وجبة إفطار فاخرة للغاية، وأثناء تناولنا الإفطار كان ابنُ البيك الذي يبلغ الرابعة أو الخامسة من عمره، يقف على خدمتنا وخلفَه مباشرة شخصٌ أرمني من خدم البيك، وقد كان ابن البيك جالسًا على مقعده في وقارٍ وهدوءٍ وكأنّه رجل كبير، ويقوم بكلّ واجبات المضيف، وقد فهمت من ذلك أنّ الكرد يعلّمون أبناءهم هذه العادات منذ طفولتهم، وحقًّا لقد كان يتقنُ دورَه بشدّة.

لم يكنِ البيك قد وصل من موش بعْد، وقد كان وكيله أيضًا غير موجود، وكان عددٌ من الخدم والمتطفّلين، ولهذا كان القصر خاليًا من الجلبة التي تتواجد عادة في مقرّات إقامة البكوات الكرد.

كانت الشّمس حارقة، والذّبابُ لم يكفّ عن إزعاجنا، ولكن الهواء يصبح لطيفًا إذا تواجدت في مكانٍ ظليل، أمّا في السّماء فكان الطقس لطيفًا وجميلًا، والجوّ هادئًا وصافيًا، ودرجةُ الحرارة منخفضة بشكلٍ واضح، وعندما كانت الشمس تغرب كنّا نصعد سطح المنزل حتّى ننام.

إنّ الحرارة هنا ليست ضاغطة إلّا في الأماكن التي لا تسمح بهبوب النسمات التي تهبّ عادة باتّجاه قاع الوادي، وقد علمت أنّه في موسم الشتاء تتساقط الثلوج بغزارةٍ في الوديان بعمق كبير لدرجةٍ تجعل المواصلات تتوقف، وكذلك الاتصالات.

وقد سمعت أنّ البيك لم يخرج خيوله من الإصطبلات لمدّة أربعة أشهر نتيجة لكثافة هطول الثلوج، وتوقّف حركة النقل والمواصلات.

الفاكهة الشّائعة غزيرة هنا، وتتوفّر الخضروات حتّى تفيض عن حاجة السكان، ولكنّنا لم نجد أيّ نوع من الفواكه التي تتحمّل الحرارة في مدينة بتليس نفسها.

والغريبُ هنا أنّه بالرّغم من قلّة محصول الحنطة في بتليس إلّا أنّها متوفّرة جدًّا في الأماكن المحيطة بها وبأسعار معتدلة جدًّا، وفي الحقيقة أنّ هذه المنطقة تحتوي عل كلّ ضروريات الحياة بوفرة وبأسعار مذهلة.

وفي ليلة الجمعة، قبل غروب الشّمس بقليل، وجدنا فرقًا عديدة من الدراويش في محلّات بتليس المختلفة تبدأ طقوسَها الدينية بصوتٍ مرتفع، ويصاحبها النقر على الدّفوف، كانت أصواتهم في البداية عاليةً للغاية، ولكنّها بدأت تهدأ مع مرور الوقت حتّى أصبحت تشبه الأنين، استمرّت هذه المدائح الدينية لمدة ساعتين، وأنا أسمعُها من القصر بوضوح تامّ بالرّغم من بعد القصر عن هذه التكايا، ولكنني لم أستسغِ الأصوات العالية والنّقرات الرتيبة للدفوف في نفس الوقت.

وصلَ شريف بيك إلى المدينة بعد يوم من وصولنا، حيث ترك موش بالأمس فقط، وقد استغلّ الليل ليسافر حتّى وصل إلى نورشين في الصباح، وتحرك منها بعد الظّهر، وعند انكسار حدّة الحرّ واصل سفره، وهكذا وصل إلى بتليس قبيل غروب الشمس.

كنّا قد تناولنا وجبة العشاء قبل وصول البيك، وكانت زيارته الأولى لنا في الجناح المخصّص لنا، تبادل معنا بعض الأحاديث اللطيفة، وقد يعدّ الطباخون لنا العشاء مرّة أخرى، وتشاركنا معًا في تناول ذلك العشاء الفاخر، ثمّ صعدنا إلى سطح المنزل

لنستمتع بالهواء العليل، وفي الليلة التالية تحدّثنا مرّة أخرى على السطح، وكانت هذه آخر ليلة نقضيها هنا.

استيقظنا في الصّباح الباكر لنغادر المكان، وقبل مغادرتي مباشرة خرج البيك من جناح الحريم ليودّعني، وتناولنا معًا قدحين من القوة، لقد استقبلني هذا الرجل بكلّ كرم ولطف، ولبّى جميع متطلباتي. ولكنّني عندما أردت أن أهديه شيئًا ضئيلًا لم يقبلْه منّي، ولهذا فقد وعدته أنْ أرسل له مسدّسين إنجليزي الصّنع مع بعض البارود عندما أعود إلى أرضروم، وهذا طبعًا هدية منّي له، وأنا متأكّد أنها هدية لا يمكنُ لأحد رفضها.

تعتبر مدينة بتليس مركزًا تجاريًّا هامًّا، وهي من أكثر وأهمّ المراكز التجارية التي زرتها أهمية، ومع ذلك فإنّ مبادلاتها التجارية ليست واسعة كما يجب، كما أن استهلاك البضائع الأجنبية هنا محدود جدًّا إن لم يكن معدومًا، ولا يوجد هنا أي أنواع قهوة سوى القهوة المسمّاة موخا Mokha، وهي تستعمل هنا وتجلب من بغداد، وتستعمل صبغة النّيلة المستوردة من شرق الهند بكميات قليلة، في أعمال مؤسسة لصبغ الأقمشة، والتي تزوّد بصورة عامة بمتطلباتها من خلال أرضروم أو إيران، وقد وجدتُ هنا الأقمشة الإنجليزية- الشيت- غير المقصورة الألوان، وتباع هنا على نطاق واسع.

أمّا الشّالات الإنجليزية فالإقبال عليها أقل، والأقمشة المطبوعة والحرير ذو الألوان المختلفة، وأقمشة الساتان، وكميات قليلة من السّكر المصفى، فتجارتها هنا أقلّ نشاطًا.

وأظنّ أنّ هذه البضائع التي ذكرتها هي كلّ البضائع الأجنبية الموجودة هنا، ولكنّها تستهلك بشكل رئيسي في مصانع دمشق وحلب وديار بكر.

تنتج الأقمشة القطنية هنا على نطاقٍ واسع، وتجلب من كلّ أنحاء القطر لتصبغ باللّون الأحمر هنا، ومعظم الأقمشة المصبوغة هنا ترسل إلى الأماكن البعيدة من القطر، كما ترسل أيضًا إلى جورجيا، وتشتهرُ هذه المنطقة بالألوان المشرقة والبرّاقة لأقمشتها المصبوغة.

وتصبغ هنا أيضًا بعض الأقمشة الأوروبّية، ولكنّ الأقمشة المحلية هي العصبُ الرئيسي لما يرد إلى مصابغ المدينة.

إنّ مصنع الأقمشة الشيت القصيرة يضخّ إنتاجه بشكل واسع في أنحاء القطر، والقطن المستعمل هنا يزرع معظمُه في مناطق شيرفان إلى الجنوب، وخارزان إلى الغرب، ويستورد بعضه من منطقة خوي khoi الموجودة في إيران.

وبالرّغم من ندرة القطن هنا، وندرته في إنجلترا، وبالرّغم أيضًا من أنّ الغزل هنا كلّه يدويّ، ويغزل بالطّريق الأكثر شيوعًا، ومع ذلك فإنّ قماش الشيت يباع بأسعار رخيصة، ولديّ بعض الشكّ أنّ المصانع الإنجليزية قد أقيمت خصيصًا لتنافس هذا المنتج المحلي الرّخيص، ونتيجة لانخفاض النوعية وكثرة القطن المستعمل، وكذلك كثرةُ النّفقات على نقل هذه البضائع غير المعبّأة في أكياس، كما أنّ السّعر التنافسي المنخفض هو نفسه، فبالرّغم من كلّ هذه الأمور إلّا أنّ إنتاج قماش الشيت القطني لا يتعدّى أكثر من بضع مئات الألوف من القطع، كما أنّ النفقات المضبوطة لا يمكن الحصولُ عليها بدقّة في مثل هذه المنتجات.

وعلمتُ أيضًا أنّ المادّة التي تستخدم في الصباغة باللون الأحمر تنتج في شيرفان، وأنّ العفص يجلب من جبال كردستان إلى الشرق والجنوب من المنطقة، ويمكن أيضًا جمعُ كميّات كبيرة من الصّمغ من الجبال القريبة، وهناك نوعان من النّباتات التي يستخرج منها الصمغ:

أوّلًا: النّباتات ذات الوردة البيضاء، وينتج هذا النّبات صمغًا ذا لونٍ أبيض يرسل معظمه للخارج.

ثانيًا: النّباتات ذات الوردة البنفسجيّة اللّون، ويستخرج منه الصمغ ذا اللون البني، ويستعمل كلّه محليًّا داخل تركيا، وهذا لأنّه أقلّ جودة من الآخر.

لقد أخبرتكم من قبل أنّ هناك نوعيْن من الصمغ، وهما الأبيض والبني، ولكنه لا يجمع إلّا بطريقة واحدة.

يقوم بعضُ الأشخاص بجمع الصّمغ عن طريق التجوّل في الجبال، حيث يجمعون الجذورَ من الأرض، ثمّ تشقّ هذه الجذور حتّى تخرج المادة اللّزجة منها، التي تتصلّب خلال يوم أو يومين، ثمّ يعود هؤلاء الأشخاص لجمعها.

إنّ هذه الحرفة عادةً ما تدرّ دخلًا بسيطًا؛ لذا لا يعمل بها الكثيرُ سوى كبار السّن والنّساء والأطفال؛ وذلك لأنّهم لا يعرفون مهنةً غيرها، ولُحسن الحظّ أنّه كلما زادَ طلب الصمغ يزدادُ سعره، وهكذا تزدادُ أجورهم، ولهذا يزداد عدد الأشخاص الذين يجمعون هذه المادة؛ ممّا يؤدّي إلى جمْع كميّات كبيرة من هذه المادّة، وهذا أيضًا لأنّها متوفّرة بكثرة في جميع الجبال الكردية.

الثّالث عشر من آب، عام ١٨٣٨

غادرنا مدينة بتليس الجميلة، متّخذين طريقنا نحْو الشمال، وسلكنا نفس الوادي الذي سلكناه عندما جئنا إلى تبليس، وبعد خروجنا منه مباشرة وصلنا إلى:

رشواك خان Rashwak Khan:

وتسمّى في بعض الأحيان علي ماني ali mani نسبة إلى قرية تقع بالقرب منها، إنّ هذا الخان في حالةٍ يُرثى لها، إذ أنّه مهمَل ومتهدّم، ولم يبقَ منه سوى بعضُ الأطلال التي توحي بأنّه كان بناءً ضخماً وواسعًا جدًّا، بل وذا أسسٍ صلبة، ولكنّه نتيجة للإهمال خرب، وأصبحت سقوفُه المقنطرة متداعية، أمّا غرفه وممرّاته فهي مليئة بالأنقاض.

وبينما كنّا نتوغّل في أعماق السّهل، رأينا عنْ بُعد من جهة اليسار جبل كيركو داغ، النّهاية المتقاطعة مع جبل نمرو داغ، أمّا على يميننا فكانت هناك سلسلةٌ جبلية عبارة عن السّلسلة الجبلية التي تطلّ من الجنوب على سهل موش.

وبالرّغم من أنّ وادي بتليس يقطع هذه السّلسلة، إلّا أنها تستمرّ متّخذة وجهتها الأصلية نحْو الشّرق ملتفّة حول سواحل بحيرة وان.

وقبل أنْ نهبط إلى تادفان tadvan دخلنا طريقًا أجوف يتخلّله خطّ طويل من الصّخور المهجورة تسمّى جمال تادفان، مغروزة في الأرض.

لقد سمعت أثناءَ تواجدي في بتليس أنّها كثيرة الشبه بالجمال، ولكنني عندما رأيتها اكتشفت أنّها ليست إلّا بعضَ الصّخور المشوهة ولا تشبه صفَ جمال ولا

أيّ شيء آخر، كما أنّ هناك معتقدًا خرافيًّا مرتبطًا بتقاليد لا معنى لها، تستطيع منفردة أنْ تصنع أو ترى من خلالها أي شبه.

وفي الحقيقة أنّ الأجزاء المكوّنة لهذه الصّخور قد تشوّهت بسبب عوامل الجوّ والتّعرية، والتي قاومتها الصّخور ذاتها، بالرغم من أنّها في الأساس عبارة عن قذائف بركانيّة مثل التي رأيناها ونحن نهبط وادي تبليس.

وبعد مسيرة ربع ساعة تقريبًا وصلنا إلى:

قرية تادفان Tadvan:

تقعُ هذه القرية بالقرب من بحيرة، ويقيم بها حوالي أربعون أسرةً من الأرمن، ويوجد بالقرب منها نتوءات بارزة تتسلّل نحْو البحيرة مباشرة، ويبدو كأنّها بقايا حصن قديم.

تبعُد هذه القرية عن مدينة بتليس بمقدار ١٠ أميال تقريبًا باتجاه زاوية شمال الشرق. أمّا البحيرة التي تقع بالقرب منها، فقد وجدت مياهها مالحة، والسّاحل رمليًّا، ومكسوًّا بالحصى، ولهذا لم أكنْ متأكّدًا أنّني على ساحل بحر حقيقي، إنّها لا تشبه البحيرات، وقد رأيت عليه أيضًا صخورًا زجاجية صغيرة تغطي بعض أجزاء الساحل، وكانت هذه الصّخور دائرية الشّكل، وتشبه كرات الفلّين، ووجدت أيضًا بقايا صخور بركانية هناك.

عندما وصلنا إلى هذه القرية كنّا نريد الاستراحة لبعض الوقت، ولكننا اكتشفنا أنّ أمتعتنا لم تصل بعد، ولهذا أرسلت بعضَ الخيّالة للبحث عنها، ولكنهم عادوا وأخبروني أنّها قد سبقتنا في الذّهاب إلى أحد الأماكن التي تقع ضمن خطتنا، ولهذا اضطررنا إلى متابعة تحرّكنا، فتحرّكنا من قرية تادفان في السّاعة الثالثة بعد الظهر، وامتطينا خيولنا لنصل إليهم؛ استدرنا حول خليج تادفان، وفي القمّة وجدنا قرية

أوزتاك التي تقعُ على بعد ميلٍ من الساحل، وبعد مغادرتنا للبحيرة قطعنا سلسلة من الجبال لنهبط إلى الوادي المسمّى كوزل ديره، أو الوادي الجميل، وإنّه حقًّا اسمٌ على مسمّى، فهو يتمتّع بمنظر خلّاب غاية في الجمال، حيث توجد به أشجار باسقة شديدة الخضرة، وزراعته كثيفةٌ تبهج القلوب، أمّا ينابيع المياه فهي متشكلة هنا لتكون منظرًا ساحرًا أخّاذًا، لا أستطيع وصفَ كلّ هذا الجمال بالكلمات، ولكنه جمال لا يقدّر بثمن.

تقعُ على سواحل البحيرة أيضًا قرية تسمّى إيلمانلي elmanli أو قرية التفاح، وعلى بُعد مسافة قصيرة منها نحْو الشمال صعدنا واديًا لنعبر قرية كردخان kurdkhan، التي تغطيها ظلال الأشجار الكثيفة.

وبعد صعودنا إلى أعلى الغابة شاهدنا قرية ساراج saraj، التي تقع بالضبط تحت السّلسلة الجبلية الرئيسية لجبال آرجيروش داغ arjerosh، قطعنا هذه السلسلة لنصلَ إلى سهل يضمّ العديد من القرى، ويحيطها من كلّ جانب أشجار الجوز العالية الجميلة، وتوقّفنا أخيرًا في قرية آفاتاك avatak التي تبدو كأنها أكبر قرى هذا السّهل، وهنا علمنا أنّ حاملي أمتعتنا قد مرّوا على هذه القرية، ولكنهم استمرّوا في التحرّك للأمام، وبالرّغم من أنّنا وخيولنا قد أرهقنا وأصابنا التّعب، كما أنّ الليل قد بدأ يخيّم علينا، إلّا أنّنا لم نجد مفرًّا من اتّباعهم، ولهذا هبطنا باتجاه البحيرة، واستمرينا في السّير بعد ذلك على طول السّاحل الصّخري، الذي كان يعلو البحيرة أحيانًا، وينخفض عنها أحيانًا حتّى يصل إلى خطّ التماس معها.

ونحنُ في الطّريق منهكين ومرهقين قابلنا دليلَ حاملي أمتعتنا عائدًا إلى قريته، ولكنّنا أخذناه معنا مرّة أخرى ليدلّنا على مكانهم، وفي تمام الساعة التاسعة مساءً وصلنا إلى:

قرية كارزيت Garzit:

تبعد هذه القرية عن قارية تادفان بمقدار ١٨ إلى ٢٠ ميلًا، وتبعد عن مدينة بتليس بمقدار عشر ساعات كاملة.

ويقيمُ بها حوالي ١٠ أو ١٢ أسرةً من الأرمن، بالإضافة إلى قرية أخرى تسمّى سيرب، وتقع هذه القرية الأولى في مكانٍ تغطّيه ظلال الأشجار الكثيفة العالية في سهلٍ صغير مُحاط بسلسلة جبلية مدوّرة تقع في مواجهة البحيرة، وتمتاز بمنظر بديع خلّابٍ.

لقد بقي حاملو أمتعتنا في هذه القرية، وعندما وصلنا إليها كان الوقت متأخرًا، وكنّا متعَبين لدرجة أنّنا لم نستطعْ تحضير العشاء، ولهذا تناولنا قدحًا من الشاي، وتمدّدنا على الأرض دون حتّى أنْ ننصب خيامنا، وفي هذا الوقت أخبرني الرجال أنّهم كلّما مرّوا بقرية أخبرهم أهلها أنّنا قد سبقناهم؛ بل وتركنا لهم وصية أن يلحقوا بنا دون أيّ توقّف، ويا لها من خُدعة رخيصة فعلها أولئك القرويّون، ولم تكن أوّل مرّة نواجه فيها هذا الأمر؛ لأنّهم دائمًا يظنّون أنّنا لن ندفع لهم ثمن ما سيقدم لنا من غذاء أو احتياجات، فكانوا يفضّلون أن يخدعونا، ولهذا ظلّ رجالنا يتقدّمون وهُم يصدّقون كلّ ما يُقال لهم حتّى وصلوا إلى هنا، وهبط عليهم الليل، وتعبت خيولهم من طول السّفر، فقد قطعوا كلّ المسافة من بتليس إلى هنا، أمّا نحن فمِن حُسن حظّنا أننا استرحنا قليلًا في قرية تادفان، كانت المسافة التي قطعناها تبلغ ١٨ إلى ٢٠ ميلًا.

لقد كنت أريدُ أنْ أمنح نفسي وأمنحَ رجالي استراحة بعد هذه السفرة المتعبة في اليوم السّابق، ولكنّني لاحظت أنّ هذه القرية بائسة جدًّا وقذرة جدًّا، ويبدو على سكّانها أنّهم يحتاجون لكلّ الضّروريات التي سنحصل عليها.

وفي كارزيت يسكن حوالي ١٠ أو ١٢ أسرة أرمنية، وثمّة قرية أخرى تدعى سيرب surp، وتقع في سهل صغيرٍ تحيطه سلسلة جبلية مستديرة أمام البحيرة، وتظلّه الأشجار الباسقة، وكان المشهد ساحرًا يأخذ العقل، لكن مع الأسف كنّا مضطرّين لمواصلة السير.

ولهذا تحرّكنا مرّة أخرى، تاركين السّهل واتّخذنا طريقًا يسير على طول المنحدر الجبليّ المغطّى بأشجار البلّوط القصيرة والكثيفة، وكانت البحيرة من تحتنا بمياهها الزّرقاء الصافية التي تزيد الطريق جمالًا.

مررنا بالقرب من قارب يحمل خشبًا، ويسير قرب الساحل، وبعدها مباشرة لمحْنا من بعيد القرية المسمّاة ديدي بيكره deedebekreh التي تقع بالقرب من البحيرة، وكنّا على بُعد مسافة قصيرة منها من جهة اليسار، ولكنّنا لم ندخلها، لأننا سرْنا في اتّجاه المنطقة الجبلية، ودخلنا واديًا لنصل إلى أنف السلسلة الجبلية التي تنتهي إلى وادٍ ضيق وفي نهايته وصلنا إلى:

سهل وقرية كولي goli:

يقيمُ في هذه القرية خليطٌ من الأسَر الأرمنية والكردية يبلغ عددهم حوالي ٣٠ أو ٤٠ عائلة، وقد لاحظت أنّ هذا السّهل مزروع بطريقة جيّدة جدًّا، أمّا القرية فكانت المراعي الخضراء تحيطها من كلّ جانب، تبعد هذه القرية عن البحيرة بمسافة نصف ساعة، ولكنّها لا تظهر من هنا لأنّها تقع خلف سلسلة من الجبال العارضة.

تقع هذه القرية تحت حكم الأغا المسمّى خان محمود، ويقيم في منزل مصمت البناء، ولكنّه شامخ ولا توجد له أيّ نوافذ خارجية، وله مدخل واحد، أمّا سطح المنزل، فيوجد حوله المتاريس، وتوجد في حوائط المنزل بعض الفتحات.

وأعتقد أنّ تدابير الحماية المتّخذة هنا أصبحت غير مجدية ولا فائدة لها، لأنّ خان محمد قد اكتسب سمعةً قويّة وتأثيرًا كبيرًا، اعتبارًا بأنّه محتفظ بقوة شرطة نظاميّة قويّة، لقد التقينا هنا بمرافق قائد حامية أرضروم.

عبرْنا سهل كولي وصعدنا سلسلة من الجبال المكسوّة بالكامل بأشجار البلوط، ثمّ سرْنا على طول سلسلة أخرى تطلّ على البحيرة من ارتفاع شاهق.

وبينما نحن فوقَ هذه الجبال رأينا خطًّا من الأراضي الفسيحة، ولكنها غير محروثة، وتجري بداخلها بعضُ الخلجان، ممتدّة إلى الخارج، إلى جهة الشمال الشّرقي، ومن خلفهم كانت الجبالُ مرتفعة بشموخ، لقد توغّلنا نحْو الداخل خلفها، وكان دليلُنا هو أحدَ أتباع خان محمود الذي تطوّع للعودة معنا ليدلّنا على الطريق بعد أنْ كان دليلًا لمرافق قائد الحامية الذي قابلنا سابقًا.

هبطنا إلى حضن الوادي، وعبرنا قرية نارينجاس naringas، ثمّ رأينا أسلفها قريةً أخرى تسمّى بيليو peleu، ثمّ ارتقينا إلى الجبل مرّة أخرى، وكان إلى يسارنا سلسلةٌ من الجبال العالية. وبعد انتهائنا من صعود الجبل وقع أمام أبصارنا وادٍ ضيّق جدًّا تقع أعلاه قرية أرمينيّة تسمّى خان جيك khanjaik، وهي تضمّ ديرًا يحمل نفسَ اسمها، سلكنا طريقًا ضيقًا شديد الانحدار لنهبط إلى الجدول الذي يقع في بطن الوادي، والذي يقع أسفلَ تلك القرية، وهنا التقينا برئيس الدير الذي عبّر لنا عن مدى أسفه لعدم مرورنا على الدّير، وقال إنّه قد أحضر بعض المرطبات عندما علم أنّ بعض الغرباء سيمرّون من هنا.

من المعروف أنّ المسافرين لا يعودون أبدًا إلى الخلف، وهكذا هو حالنا؛ لذا لم يكنْ من المعقول أن أعودَ إلى الدّير، وذلك لأنّنا مازال أمامنا طريقٌ طويل يجب أن نجتازه اليوم، ولهذا واصلنا مسيرنا.

وأثناءَ توغّلنا في أعماق الوادي مررنا بقرى عديدة، وصادفنا قافلة تقف على جانبِ الطّريق ليستريح أفرادُها وحيواناتهم، وقد علمت أنّهم قد جاءوا من وان، ويتّجهون إلى بتليس.

توقّفنا عند قرية نور كوخ nurkukh، وأردت أن أستفسرَ عن بعض الأشياء، وللإجابة عن أحد أسئلتي أخبرني أحدُهم أنّ هناك قاربًا يمرّ من هذه المنطقة ذهابًا وإيابًا، بين جزيرة آختمار akhtamar وقرية أخرى على الساحل.

لم نبقَ في هذه القرية كثيرًا، واستمررنا في سيرنا آملين أنْ نزور الدير الأرمني الذي يقع في الجزيرة.

وبينما كنّا في نور كوخ أرسلت دليلًا إلى خان محمود ليخبره أنّني أنوي زيارته في اليوم التّالي، وإنّني في طريقي إلى وان، وأعطيت الدّليل الرسالة التعريفية التي أعطاني إيّاها شريف بيك التبليسي المعنونة شخصيًّا إلى خان محمود.

صعدنا الجبل مرّة أخرى لنهبط من الجهة الأخرى، وعبرنا سهلًا كثير المستنقعات لأنّه يقع على أعتاب البحيرة، واقتربنا من السّاحل بالقرب من قرية تسمّى إيش كند Ishkend، ومن هنا سرنا على طول الساحل، حتّى وصلنا إلى قرية أخرى تسمّى آكافانسك Akavansk التي تقع في مواجهة جزيرة آختمار، والتي هي إحدى ممتلكات الدير.

قرية أكافنسك Akavansk:

أقمْنا خيامنا على ساحل البحيرة في مكانٍ مُحاط ببساتين الفاكهة الواسعة من كلّ جانب، وأمامنا البحيرة الزرقاء.

لقد كان المسئول هنا يشرفُ على تفريغ البضائع في المخازن الموجودة على الجزيرة من محاصيل ومنتجات الأراضي التي يملكها الدير، وقد كان يخصّص قاربًا قديمًا لهذا الغرض.

لقد كان هذا القاربُ يأتي إلى الجزيرة مع الفجر، ويرجع في المساء محملًا بالبضائع، ويقوم برحلةٍ واحدة كلّ يوم، لقد كنّا ننوي زيارة الدير وقضاء ليلتنا هناك، ولكنّنا تردّدنا بسبب التّأخير الذي كان يصاحب حركات هذا القارب الشراعي سهل الانقياد، والذي لم يكنْ يمتلك أقلّ شروط الأمان والمتانة، لقد كان يعتمد كليًّا على الرّبح ليقطع فقط مسافة لا تزيد عن ٣ أو ٤ أميال.

لقد جعلتنا هذه المخاوفُ نلغي فكرتنا لزيارة الدّير، ولذلك جاء رئيس الدير شخصيًّا لزيارتنا.

لم يكنْ رئيس الدير يتقنُ اللغة التركية، وكان أيضًا عبوسًا وجهولًا، ولم أتوقّع أنْ أستفيد منه بشيء، أو أعرف منه أيّة معلومات قيمة، ولهذا لم أشعر بالأسف لعدم زيارتي للدير.

لقد شكَا لي رئيس الدّير من أنّ خان محمود يفرض ضريبة عالية على عوائد هذه المؤسّسة الدينية، ولكنّه امتدح قوة الشرطة المنتظمة التي يحتفظ بها خان محمود، وقال إنّها قد ساعدت كثيرًا في الحفاظ على أمن المنطقة وسيادة العدل، على عكس الحال الفوضوية التي تسبّب فيها رئيس المنطقة السابق، حيث كانت أحوال المنطقة في عهده في حالة شديدة من الفوضى.

خان محمود:

قبل شروق شمس اليوم التّالي وصلنا رسولٌ خاصّ من خان محمود ليخبرني بعدم ضرورة زيارتنا له؛ لأنّه سيغيب عن منزله في رحلة للصيد.

لقد علمت أنّ خان محمود هو ابن أمير كردي مستقلّ للمنطقة المسمّاة موكوش mukush التي تقع على الطرف الجنوبي لجبال أرجيروش arjerush، لقد آلت ممتلكات هذه الأسرة إلى ابن الأخ الأكبر، ولكن خان محمود وإخوته قد استطاعوا

أنْ يستعيدوا حقوقهم بالقوّة، وتبلغ ممتلكاتهم ما يزيد عن ١٠٠ قرية، والتي كانت تعود إلى باشوية وان، إلى جانب أنّهم قاموا بغزوات عديدة على مناطق الحدود مع إيران ليحصلوا على الغنائم، ومن هذه الغنائم إلى جانب عوائد القرى التي يملكونها تمّكنوا من جمع ثروةٍ كبيرة من الذّهب والأموال، وهكذا استطاعوا أن يجمعوا لهم أتباعًا كثيرين مدْعومين من قبل خان محمود، بالإضافة إلى شجاعتهم، وهكذا نجحوا في تحدّي سلطات باشوات وان، وتصدّوا لانتقام الحكومة الإيرانية منهم.

وأخيرًا وجد خان محمود أنّه من الحكمة أنْ يستميل قائد حامية أرضروم إلى جانبه من خلال إسحق باشا، باشا وان، فأرسل شقيقه إلى هناك لهذا الغرض، وقد استقبله قائدُ الحامية بحفاوة بالغة، وودّعه بنفس الطريقة، وقد علمت أنّه الآن في طريق العودة إلى المنطقة، لا يخاطر خان محمود بزيارة مدينة وان بالرّغم من لقاءاته المتعدّدة مع إسحق باشا في القرى المجاورة لوان، ولكنّه أثناء تلك اللقاءات يكون وسط قوّة مسلّحة يتراوح عددها بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ رجلًا لتأمين حمايته، كما أنّ إخوته يمتلكون مواقع حصينة عديدة.

وأهمّ هذه المواقع هي قلعة المحمودية التي يقيم بها الأخ الثاني لخان محمود، ويسمّى خان عبدال، وقد أصبح هذا المكان أحدَ ممتلكاتهم منذ سنوات قليلة.

ويقيم خان محمود في قلعة باش فانسك التي تقع أسفل السّلسلة الرئيسية لجبال آركيروش، وعلى بُعد ساعة من آكافانسك Akavansk، وقد نصبنا خيامنا هناك، ولكنّنا لم نرَ القلعة لأنّها كانت تقع في وادٍ كثيف الأشجار بعيدًا عن أنظارنا.

السّادس عشر من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

لقد صرفت الرجل العائد إلى شريف بيك التبليسي، أمّا الدليل الذي صاحبنا من كولي، فقد عيّنه سيده ليرافقنا حتّى نصل إلى مدينة وان، وقد سبقنا إلى فاستان vastan، حيث قال إنّ هناك ثمانمائة رجلًا تجمّعوا هناك احتياطيًّا لأنّهم علموا أن هناك نيّةً بالهجوم على خان محمود من قبل بيك منطقة الجزيرة، لقد تمنّى أن يخبرهم بتجنّب إمكانية حدوث إهانة.

غادرنا قرية آكافانسك Akavansk، وبقينا على تماس من البحيرة، وبعد حوالي ساعة سيرًا وصلنا إلى حافة سهلٍ مطوّق بنتوء جبلي، خارج من السلسلة الرّئيسية مطلًّا على الطّريق العام الذي يفصل بين هذا السهل وسهل فاستان، كان يقع طريقنا على طول حافّة الجبل، وفي الحد الأدنى من هذا السهل كانت تقع قلعة فاستان، في مكان يطلّ على السهل كله.

لقد مررنا أسفلَ هذه القلعة تمامًا، ثمّ انحدرنا إلى السهل الذي كان واسعًا وجميلًا. إنّ السلسلة الجبلية الرئيسية ليست سوى امتداد لجبال آرجيروش دا، ولكنهم يطلقون عليها هنا أيردوش داغ Erdosh Tag الذي يخرج منه بصورة مفاجئة بدون أيّ تفرعات عند الحافة.

يبلغ ارتفاع هذا الجبل من سطح السّهل حوالي ٤٠٠٠ قدم، وبالرغم من أننا في فصل الصيف، بل في منتصفه، حيث الحرارة الشديدة؛ إلّا أنّنا شاهدنا قطع الجليد على قمّته.

القرى هنا مُحاطة ببساتين الفاكهة المتنوّعة، وقد كانت منتشرة في جميع أجزاء السّهل العلوية، وعلى طول قاعدة الجبل وأسفلها كانت هناك حقول محروثة ومراعي خضراء.

إنّ الأفواج التي قام خان محمود بحشدها كانت منتشرة في هذه القرى، ولكننا لم نرها ولم نسمع أيّ خبر عنها.

لقد كانت هناك مقبرةٌ بالقرب من قرية فاستان Vastan، وكانت تضمّ ضريحًا إسلاميًّا بارزًا مشيّدًا بشكل جميل، ومنقوش عليه كتابات عربية حديثة الكتابة، طراز هذا الضّريح كثير الشّبه بأبنية أخرى موجودة في أماكن أخرى من تركيا مثل أرضروم، وقيصري وأخلاط، وأنا أعتقد أنّ هذه القبور قد تكون عائدة إلى زمن الخلفاء، ولم أرَ من قبل قبورًا على هذا الطّراز، ومازالت بحالة جيدة من الصيانة والمعمار.

هناك لسانٌ أرضيّ يطلّ على البحيرة، ويشكل خليجًا يسمّى خليج فاستان، وأظنّ أنّ هذا اللسان قد تكون نتيجته الطّمي المتسرّب من نهر كبير يسمى آنجيل جاي، وينبع هذا النّهر من الجبال التي تقع أعلى قلعة المحمودية، خلف هذا اللسان توجد تعلية رمليّة تمتدّ مسافة واسعة عظيمة بحيث يبدو من المحتمل أن يردم هذا الخليج بها؛ لأنّها كما يبدو أصبحت أكثر ضحالة.

واصلنا سيْرنا على طول حافّة البحيرة حتّى وصلنا قرية، دخلناها لنصل إلى قطعةٍ من الأرض تنحدر نحْو قريةٍ أخرى في الوادي الذي ينبع منه نهر آنجيل جاي، لقد كانت قناةُ النهر تبدو عميقة للغاية، بالرّغم من أنّ عمقها لا يزيد عن ١٥ إلى ٢٠ ياردة.

لقد سرْنا على الضّفاف أيضًا حتّى وصلنا إلى منطقة سهل حوض النهر، وعندها عبرنا النهر الذي كانت مياهه تصل إلى ركاب خيولنا، وفي الجهة الأخرى وجدنا قرية تبدو أكبر من القرية السابقة، ومن هناك اتّخذنا طريقًا على مجموعة من التّلال الجيرية الجرداء المنحدرة باتجاه البحيرة، وعبرنا قرية أخرى حتّى وصلنا وادٍ أخضر

على شكل مسرح، من جهة الرّأس كانت هناك قناة لسحب المياه مستترة بحائطٍ من بعض الأجزاء، وقد كانت هذه القناة تنقل المياه عبر جدول إلى مدينة وان من خلال قناة مفتوحة.

وقد علمت أنّ هذا العمل المفيد ينسب بناؤه إلى شيميرام Shemiram أو سميراميس، وهي نفسها البانية المعروفة لمدينة وان، حتّى أنّه في بعض الخرائط يُذكر هذا النّهر باسم سميراميس صو.

ويوجد- أيضًا- بعضُ الينابيع عند رأس الوادي، وهذه القناة تلتفّ حول حدائق آرتميد لتسقيها، وتدور أيضًا حول بعض الطواحين المتناثرة على الطريق الذي يصل إلى مدينة وان.

قرية أرتميد:

عندما وصلنا إلى هذه القرية كانت شبه جزيرة مهجورة لأنّ سكّانها كانوا في الحدائق البيتية، وقد عسْكرنا في بستان فاكهة يتوسّطه دغل أخضر تحت ظلال أشجار الفاكهة الجميلة.

لقد لاحظت أنّ كميّات الفاكهة هنا كبيرة جدًّا، هذا إلى جانب المشمش المجفّف في الشّمس، الذي يُجلَب من أماكن أخرى إلى هنا.

لم أستطعْ تقدير المسافة بين أكافانسك وآرتميد لأنّنا توقّفنا كثيرًا بين القريتين، ولكنّني أعتقد أنها لا تقلّ عن ١٥ ميلًا.

أردت أنْ أرى أيّ مدوّنات هنا، ولكنني علمت أنّ القرية لا تحتوي على أيّ منها، وخلال تواجدي هنا لم أشاهد أيّ مبنى يدلّ على أهميته التاريخية أو المعمارية.

وقد أخبرني أحدُهم أنّ عبد الرازق بيك شقيق خان محمد كان هنا عندما وصلت، وعندما أرسلت له شخصًا ليخبره برغبتي في لقائه، عاد إليّ وأخبرني أنّه

قد غادر القرية للتّو، ولكنّني حظيت بزيارة محاسب إسحق باشا، وقد كان هو الآخر على وشْك المغادرة إلى وان.

فأرسلت معه تحياتي إلى الباشا طالبًا منه أن يجهز لنا مكانًا وسط الحدائق لنعسكر فيه.

وقد زارني أيضًا الحاكمُ المحلي بعد مغادرة محاسب إسحق باشا مباشرة، ورحّب بنا كثيرًا، وهذا الحاكم في الأساس من أهالي حكاري، ولكنّه أمضى في هذه المنطقة ١٦ عامًا، وقد أخبرني أنّ منطقة جولة ميرك تبعد عن وان بمسافة ٤٠ ساعة، وإلى الجنوب منها تقع منطقة هرتوشي التي يديرها الرئيس المقلب أمير هرتوش آغا، أمّا عاصمتها فتسمّى شاه داغ، وتقع على بعد مسيرة ثلاثة أيام من جولة ميرك، كما أن الطّريق إليها سالكًا للغاية.

وفي المساء عاد محاسب الباشا والمشرف على تنظيم حساباته وأمواله إلى المدينة، وهو يحمل تحيّات سيده لنا، وأبلغني أنّ الباشا قد خصّص لنا مكانًا في حديقة طيبة لنقيم بها.

إنّ قرية آرتميد من القرى العامرة بالسّكان، ولكنني للأسف قد نسيت أنْ أسجّل عددَ سكانها.

وفي الصّباح الباكر، جاء إلينا مهروجي؛ أي حامل أختام الباشا ليرافقنا إلى مدينة وان، وأخبرنا بأنّ الباشا يحيينا، ويرحّب بنا بكلّ سعادة، نزلنا من آرتميد إلى سواحل البحيرة، وسرنا على طولها.

وقبلَ وصولنا إلى المدينة التقيت بمجموعة من الضباط الخيالة من الجاندرمة، ومعهم فصيلٌ من الجنود الذين سبقوني إلى الباشا تمامًا عند أسوار المدينة، وقد طلب منّي الباشا أن أمرّ عليه في قصره قبل أن أذهب إلى مكان إقامتي، ولكنني كنت في حالةٍ يرثَى لها، ولم أكن مستعدًّا لهذه المقابلة البروتوكولية، ولهذا أردت

الاعتذار، ولكنّني خشيت أن يكون عدمُ ذهابي سببًا لبعض التكهنات السلبية عني، ولهذا اضطررتُ أن أستجيب لدعوته.

استقبلت في باحة القصر المكشوفة، حيث يوجد ينبوع ماء وخزان كبير للماء خارجها، وكانت في وسطه بجعتان جميلتان تسبحان في خيلاء.

كانت زيارتي قصيرة، وبعد انتهائي منها ذهبنا إلى الحديقة الملحقة بها، وأقمنا خيامنا في مكانٍ مُبهج في الهواء الطلق.

وبمجرّد نزولنا في موقعنا الجديد جاءنا طيغور بيك ابن الباشا ليرحب بنا ويخبرنا أنّ والده الباشا سيزورنا في المساء، ولكنّني اعتذرت منه بسرعة، وقلت له أنْ يخبر الباشا ألّا يتعب نفسه ويزورنا لأنّنا مرهقون من طول السفر، ونريد الاستراحة، وأنّنا سوف نزوره في الصّباح لنشكره على حسن استقباله وكرم ضيافته.

في تمام السّاعة العاشرة صباحًا ذهبت إلى قصر الباشا، وقد استقبلني في الجناح المكشوف، وقد كان الباشا مهذّبًا للغاية في استفساراته وفي عرض خدماته علينا.

لقد كان الباشا في السّتين من العمر وهو من أهالي مدينة وان، وقد علمت أنّه لم يبتعدْ عن حدودها كثيرًا، حتّى أنّه لم يزرِ القسطنطينية من قبل، ويبدو من تصرّفاته وسلوكياته أنّه رجلٌ طيّب وكريم الأخلاق، وقد سألني عن المكان المقارب لبريطانيا من الهند ظنًّا منه أنّهما متجاوران، ثمّ سألني عن مدى سيطرتنا هناك، وعن حجم قواتنا العسكرية هناك، وفي بريطانيا العظمى.

أمّا عندما سألته عن المدينة فلم يزدْ عن الآخرين من أبناء المدينة، ونسب بناءها إلى الملكة سميراميس، ولكنّه أخبرني أنّ البحيرة كانت تمتدّ إلى الجبال البعيدة فيما مضى، ولكن هذا الاعتقاد لا دليلَ عليه، وغير مستند إلى دليلٍ تاريخي، وإن كان هذا الأمر حقيقيًّا، فيجب أن يكون بناءُ المدينة، أو أن المدينةٍ لم تكن موجودة

في مكانها الحالي، ولكنّ كلّ الدلائل تثبت أنّ البحيرة كانت في هذا المكان منذ إنشاء المدينة، ولذلك فإنّ جميع المعلومات التي حصلت عليها من الباشا، لم تكن إلّا مجرّد حكايات لا أصل لها، مثل الحكايات الواهية التي يردّدها جميع سكان القطر عن المواقع الأثرية، لقد كان الباشا متلهفًا إذا كان أحدنا يستطيع فكّ رموز الكتابات ذات الرؤوس السهامية.

أمّا القصر الذي يقيم به الباشا فهو واسعٌ وكبير، وقد بناه جدّه من الحجر والقرميد المجفّف بأشعة الشمس، وبالرغم من مرور نصف قرن على إنشائه إلّا أنّه مازال متماسكًا، وحَسنَ البناء والمظهر، وقد بُنيت البيوت والحيطان من الطين الحر، الذي يتميّز بتماسكه لفترةٍ تصل إلى خمسين أو ستين عامًا بدون ترميم.

وقد عرض علينا الباشا- بكلّ كرم- استخدام الحمّام الخاص في قصره، وكان ابنه طيغور بيك جالسًا بقريةٍ ينتظر كلّ أوامره، وينفّذها على الفور، وهذا الأمر نادرًا أنْ نراه بين الشّعوب الشرقية، وبينما كنت جالسًا مع الباشا دخل علينا الحاجب، وأعلن عن وصول سلطان أغا رئيس عشيرة حيدرانلي الكردية.

وقد انتهزتُ هذه الفرصة، وسألتُ الباشا عن هذا الأمير الكردي، وعبّرت عن رغبتي في زيارته لأنّني كنت متلهّفًا بشدّة لمعرفة شخصية كردية بارزة في دياره، فقال لي الباشا إنّه سوف يزورني في صباح اليوم التّالي، وسوف يصطحب معه سلطان آغا، ممّا سيتيح لي أن أتعرّف عليه شخصيًّا.

هممتُ بالمغادرة، وبينما أنا أخرجُ من القصر شاهدت الأمير الكردي ينزل من على صهوة حصانه، وبرفقته مجموعة من المرافقين.

في صباح اليوم التّالي جاء الباشا بصحبته كلٍّ من طيغور بيك والأمير سلطان آغا، وأجلسهما بجواره، وتبادلنا بعض الأحاديث، وقد أخبرني سلطان أغا أنّنا سنمرّ على موقع خيام عشيرته أثناء رحلتنا، وطلب منّي أن أزوره هناك، لقد كان

سلطان آغا رجلًا متوسطَ العمر، وسيمًا، أمّا عشيرته فقد كانت من أقوى وأغنى العشائر هنا، وقد شعرت أنّ سلطان آغا يشعر بالحرج أثناء وجود الباشا، ولذلك انسحب من مجلسنا وبرفقته طيغور بيك.

بعد فترةٍ قصيرة من الزيارة وجدتُ نفسي وحيدًا مع الباشا، وكان هذا أكثر الأوقات ملائمةً لأطرح عليه بعض الأسئلة عن خان محمود، ووضعه معه، وقد كنتُ أعلم بعض خصوصيات هذه المسألة، ولكنّني أردت أن أعلم وجهة نظره هو، لقد كان الباشا موافقًا على أن تدفع الرعيّة الخاضعين له ولأخيه الخراج للسلطان، وأنّ الضرائب المالية العادية ذهبت حتّى الآن إلى بيت ماله الخاص، وأنّ حصته من الرجال يجب أن تدخل القوّات النظامية والجاندرمة.

وأخبرني أيضًا أنّه قبل عام أو عامين قد سمح لممثل من الباب العالي بدخول منطقته، والقيام بإحصاء للسّكان، ولكنّه لم يوافق على الامتيازات الأخرى التي يطالب بها باشا أرضروم، ولكنّني فهمت أنّه إذا تمّ قبول كلّ هذه الأمور فإنّ كلًّا من خان محمود وخان عبدال سوف يعيّنان كمحافظين في مناطقهم الخاصة.

وعندما أخبرت الباشا بأنّ خان محمود كان يتهرّب من لقائي بالرغم من إبداء رغبتي في مقابلته عدّة مرّات عن طريق المراسلين، فأجاب الباشا مبينًا لي أنّ سبب هذا التصرّف أنّه يريد تجنّب أيّ شكّ بخصوص العلاقة مع شريف بيك؛ أي الباشا الذي يعرف بأنّه خان محمود لا يقيم له وزنًا خاصًّا.

وبالرّغم من تناولنا الكثير من الأحاديث الشيقة، إلّا أنّ أحاديثنا كلها دارت حول موضوع مدينة وان، وكان ملخّصُ هذا الحديث هو:

إنّ سحر هذه المدينة وجمالَها يكمن في الحدائق الغنّاء الكثيفة التي تغطي مساحةً من الأرض تقدّر بأربعة أميال عرضًا، و ٧ أو ٨ أميال طولًا، بين المدينة والجبال المطلّة عليها باتجاه الشرق.

ومعظمُ السّهل مغطّى بأشجار الفاكهة ومزارع العنب والرقي والبطيخ والحقول المترامية، ويتّخذ سكان المدينة هذه البقع الخضراء كنزل صيفي.

والطّرقُ الرئيسية هنا تحفّها المساكن، وجميعها تبدو كقرية واسعة، والحدائق هنا مُحاطة بحيطانٍ من الطين الذي يحجب النّظر، وبما أنّ الأرض هنا سهلية، فإننا نجد الجداول العذبة تجري خلال الشّوارع التي تزين بأشجار الصفصاف والدردار، ولهذا فإنّ المدينة في أشدّ الأوقات حرًّا يسهل السّير في ظلّ أشجارها الكثيفة والجميلة.

ذهبتُ لزيارة الخوجا باشي، وهو رئيسُ الطائفة الأرمنية هنا، وقد سعدت بذلك لأنّني كنت أرغب في معرفة نمطِ حياة أبناء هذه الطائفة، لقد كان هذا الرجل قد فرغ لتوّه من بناء بيتٍ جديد، وقد لاحظت من مظهر منزلِه أنّه ينعم بالرّفاهية مثل أي أرمني من الطبقة العليا.

فقد كان بيته واسعًا للغاية، بالرّغم من أنّ بناءه وأثاثه متواضعان جدًّا، ويقيم في هذا المنزل رئيسُ الطائفة وشقيقه، علماً بأنّ كلًّا منهما له عائلة مستقلّة، يطلّ هذا البيت على المزارع الواسعة والحقول الخضراء عبر مقصورة خاصّة في واجهة القصر الشّاهقة، لا يبدو أنّ البيت يحتاج إلى أيّة ضروريات، ولكنّه لا ينعم بأيّ مظهر من مظاهر الرّفاهية والتحضّر. إنّ النساء هنا يبقينَ في منازلهن، ويقمن بالطهي، ويؤدّين بعض الواجبات الرجالية.

ولا يوجد في البيت خادمٌ ماعدا رجل واحد يقوم بالاعتناء بالفرس أو البغل، أو لمساعدة سيّده أو القيام ببعض الأعمال العادية، ونمطُ الحياة هذا لا يختصّ بأرمن منطقة وان فقط؛ بل هو نمطُ حياة كلّ أرمن القطر، ماعدا في القسطنطينية فقط، حيث تخلّت عن هذه العادات البدائية، وأصبحت متحضرةً بعض الشيء.

لقد ذهبتُ بنفسي لزيارة الكنيسة الأرمنية، وقد لاحظت أنّها لا تختلف كثيرًا عن أيّ منزل عادي هنا، هيكل الكنيسة كان عبارة عن مقصورة كبيرة مرتفعة، مقامة على أعمدة أو جذوع أشجار مشذّبة بالفؤوس تضيء المبنى، ويوجد كوة كبيرة في السّقف، وقد كان المَبنى قذرًا وغريبًا، وقد ألحقت به حديثًا صومعة وضع فيها المذبح المنحوت والملطّخ بأصباغ لا تدلّ على ذوق أو فن.

قطعنا الحدائق بالعرض حتّى وصلنا إلى حافّة الجبال، ووجدنا إحدى الأحجار الكلسية الضّخمة، وعلى صفحتها مدوّنات كثيرة بالحروف المسمارية على سطح أملس، يصل ارتفاعه إلى ١٠ أو ١٢ قدمًا، أمّا عرضه فيصل إلى ٦ أقدام، وعند القاعدة يوجد مهبطُ المسيح، ومن المقدّمة لا يوجد أيّ موضع للصعود على الصخرة، ولكنْ يمكن صعودها عبر تسلّق الجزء الجانبي من الصخور.

وهذا الجزء المثلوم ممسوحٌ تمامًا بسبب عوامل التّعرية والاستعمال، ولهذا كلما أراد أيّ شخص تسلّقه فإنّه يسقط عدّة مرّات، وصفوف الحروف مفصولة عن بعضها البعض، ومحفورة في الصّخرة بخطّ جميل، وحجم الحروف قد يكون في حدود بوصة، ومشكلة جيدًا.

أمّا الجزء الأسفل من الكتابة المسمارية فهو مشوّه للغاية بسبب بعض الزوار المزعجين أو عوامل التّعرية، ولهذا للأسف لا يمكن تدوينها، وعلى العكس تمامًا كان الجزء الأعلى سليمًا للغاية حتّى أنّه يبدو كأنّه قد دوّن بالأمس، ولكن حتّى بدون هذا الجزء يجب أنْ نستعين بسلّم طويل، إنّ هذه الصخرة عبارة عن حجر كلسي صلد.

التّاسع عشر من يوليو، عام ١٨٣٨

كما أخبرتكم سابقًا أنّ الباشا قد سمح لنا باستعمال الحمّام الخاصّ في قصره، ولهذا ففي هذا اليوم بعث الباشا لنا برجلٍ ليدلّنا على موقع الحمّام، وعندما دخلنا الحمّام وجدنا أنّه صغير، ونادر الإحماء، كما أنّ المناشف التي كانت به لم تكن كافية، وبعد خروجنا من الحمّام وجدنا الإفطار جاهزًا، تناولنا الإفطار، ثمّ قمنا بجولة داخل السراي.

يوجد غرفتان للاستقبال في سراي الباشا؛ الأولى غرفة الاستقبال الصيفية، وقد كانت تقعُ في قاعة سفليّة، وهي عبارة عن صالون واسع تتوسّطه نافورة، وقد كان الصّالون مطليًّا بطلاء أصفر فاتح، ولكنّه كان قديماً بعض الشيء.

أمّا غرفة الاستقبال الثّانية فهي الشتوية، وقد كانت مؤثّثة على خلاف الطراز الاعتيادي.

أمّا الحريم فقد كنت متلهّفًا لدخول هذا الجناح، ولكنّه للأسف لم يكن مفتوحًا.

لقد كان السّراي بشكل عام واسعًا، ولكنّه لم يكنْ منظمًا، ولكنه كثير الشبه بمنازل إقامة عظماء التّرك من حيث الحجم أو الخصائص المميزة، ولكنه يختلف عنهم كثيرًا من حيث الترتيب والتنظيم.

بعد أنْ طفنا بالقصر تركناه وذهبنا نستطلعُ الشّوارع، لقد كانت الشوارع ضيقة وقذرةً وغير مستوية، أمّا المظهر الخارجي للبيوت فقد كان متواضعًا، ولكننا في بعض الأوقات كنّا نمرّ ببعض المنازل التي توحي بأنّها كانت منازل لأشخاص ذوي شأنٍ كبير، ولكنّ المظهر العام للمدينة كان متهالكًا وقديماً للغاية.

أمّا الأسواق فقد كانت محدودة، والدّكاكين سيئة، ولا تحتوي على بضائع كثيرة، ولا تحتوي على الكثيرِ من المنتجات الأوروبّية، ولكنّها تحتوي على الكثير من الأزرار الفينيسية التي يستخدمها الكرد في تزيين أثوابهم الملونة.

أمّا الفاكهة فهي كثيرة جدًّا.

يوجد للمدينة ثلاثة أبواب، وقد دخلنا البلدة من بوابة أورطة قابو أي البوابة الوسطى، ومررنا بالقرب من بوابة تبريز، أي البوابة الشرقية، أمّا البوابة الثالثة فتقع على الحدّ الأقصى المواجهة للمدينة، وتسمّى إيسلكه قابوسي أي بوابة الأكلاك، وقد سمّيت نسبة لقرية تقع على ساحل البحيرة، شمال المدينة، وهناك تستعمل القوارب المحمّلة وغير المحمّلة في البحيرة.

ومدينة وان محصّنةٌ بحائطين مزدوجين وخندق، الحائط الداخلي تعلوه الأبراج غير المنتظمة، وتشكّل هذه الحيطان مواقعَ دفاعيّة حصينة ضدّ هجوم الخيالة وحملة البنادق، وقد كان يوجد بين بوّابة تبريز وقصر الباشا فيما مضى ضاحية، وهذا ما يبدو من البقايا المتناثرة للأبنية.

خرجنا من بوّابة تبريز، وتجوّلنا حول النهاية المفاجئة للصخرة، نحْو جانبها المنحدر خلف المدينة لنلقي نظرةً على المدوّنات الرأسية السهام، وهي عبارة عن حفرتيْن مقوّستيْن، محفورتيْن في الصّخر إلى جانب بعضهما البعض، يصل ارتفاعهما إلى ١٠ أقدام، وعمقها ٦ أقدام، وعلى الجانب الأيسر من كلّ واحدة دونت بعضُ الكتابات المحفورة في الصّخر، أمّا الجانب الآخر فقد كان واضحًا تمامًا، علما بأنّ هذه المدوّنات تشبه ما وصفناه سابقًا من كتابات مسمارية، إلّا أنّها أقصر منها بكثير، وقد كان الجزء الأسفل مشوّهًا بالكامل.

غادر الباشا المدينة لمدّة يومين لمقابلة خان محمود في قرية مجاورة لوضع تفاصيل رجوعه إلى صفّ الدولة، وعند عودته بعث لي أمرًا لزيارة القلعة، وذهبنا خلف الصخرة الكبيرة، وخلف الصومعة المقنطرة التي ذكرتها سابقًا كان يوجد كهف عميق، وضع فيه ثلاثة ألواح طينيّة مربّعة الشكل جاهزة للكتابة عليها، كان منها لوحتان عاليتان، حيث كانا أعلى من متناول الرجل ذي الطول العادي، وكانت في وضع جيّد جدًّا، ومحصّنة جيدًا من يد العبث.

أمّا اللّوحة الثالثة فقد كانت في مستوى أدنى من الأخريان، ولذلك فقد كان وجهُها مشوّهًا تمامًا، ولكنّ الثلاث لوحات كانت مثل الصخور التي وصفتها من قبل.

مضينا باتّجاه النهاية الشمالية والشمالية الغربية للصخرة الكبيرة، حيث توجد الفتحة أو المدخل الوحيد للقلعة، وقد كان جزءٌ من السّور قديمًا جدًّا، أمّا الصخور فقد كانت عبارة عن قطع ضخمة، مقطّعة بشكل غير منتظم ومرصوصة مع بعضها البعض كالتي توجد في الأسوار الضّخمة من الطراز اليوناني القديم، ومن المحتمل أنْ يكون هذا جزءًا من قلعة، ويبدو أنّ تيمور لنك قد واجه صعوبة في هدمها عندما احتلّ مدينة وان. وهذا ما فكّرت فيه عندما رأيت مدى صلابة البناء.

دخلنا من المدخل الأوّل، ولاحظت أنّه لا يحتوي على حارس أو بوابة، ثمّ تسلّقنا مرتفعًا شديدًا الانحدار، تقع في أعلاه بوابة يعسكر عندها حارس يقوم بمراقبة النّوافذ، وعندما مرورنا منه قام بفحص أوامر السماح بالاجتياز، ومن هنا صاحبنا فصيلٌ من الجنود لنتقدّم إلى النهاية الشرقية والجنوبية الشرقية للصخرة، ثمّ هبطنا عبر ممرٍّ صغير لندخل إلى الكهوف.

تبعث هذه الكهوف في النفوس قدرًا كبيرًا من الإثارة والفضول، وحبّ الاستطلاع.

كان الكهف الأوّل كهفًا طبيعيًّا، يقف في مواجهة الصخرة المطلة على المدينة، وقد كان طوله ٢٥ قدمًا، أمّا عرضه ١٨ قدمًا، حيطانه مسطّحة، أمّا السقف فقد كان بدائيّ الشّكل، والواجهة الخارجية قد صُقلت أمام الباب، ونُحتت بشكل منتظم داخل الكهف، وعلى الجهة المواجهة للمدخل توجد غرفتان صغيرتان، من اليمين واليسار، مداخله منتظمة وتبدو كأنّها مبنيّة، وفي إحدى الغرف يوجد حائط مبني من الحجر الرملي حولها، يبلغ ارتفاعه ٦ أقدام، ويوجد في الحائط قوسٌ مفتوح وقد حضره تمير باشا بأمل العثور على كنز مخفيّ، ولكنه لم يعثرْ على شيء سوى الأنقاض المتكوّنة في وسط الكهف.

حصلت على مصباح، وأخذت أدقّق في غرف الكهف، ولكنني لم أجد أية حروفٍ أو رسوم على الجدران، ولكنّني وجدت بين الأنقاض بعض قطع الخزف الملتصقة بقطع صوفيّة بنوع من القار. وفي بعض الغرف وجدنا بعض العظام وعندما فحصها الدكتور ديكسون اكتشف أنّها عظام امرأة وصبي.

أمّا الكهف الثاني فلم يتغيّر أيّ شيء في هذا الكهف ما عدا أنّه كان يحتوي على غرفتين داخليتين، وقد وجدت على أرضية إحدى الغرفتين حفرة، ويبدو من حجْمها أنّها كانت معدّة لدفن جثّة شخص ما، وعندما فحصت باقي الكهوف تيقنت أنّها كانت تستعمل كأضرحة.

صعدنا إلى قمّة الصّخرة التي تقع فوقها قلعة إيج قلعة- أي القلعة الداخلية- التي لها مدخل وحائط منفصل، وجزء من الحائط قديم ربّما يكون من نفس تاريخ المبنى الذي وصفته سابقًا.

وأبنية القلعة الداخلية متآكلة وغير مأهولة، ماعدا بعض الرجال يعسكرون بها، وعلى منصّتها توجد بطارية للبنادق من مختلف الأعيرة التي تطلق في مناسبة البيرام beiram أي عودة الباشا إلى دياره، ويوجد أيضًا أعداد كبيرة من البنادق والمدافع موضوعةٌ على الأجزاء المختلفة من القلعة، ولكن معظمها بنادق ومدافع أثرية ومتحفيّة لا تفي بالغرض، ونادرًا ما تجد بينهم من تملك عربة في حالة جيدة، أمّا خارج السور فيوجد ينبوع ماءٍ عذب وفير المياه.

وجدار الحصن مبنيّ جزئيًا من الصّخور، وجزئيًا من الحجارة المحفورة بأشعة الشّمس، وهي أيضًا في حالة متآكلة إلى جانب أنّ بناءها ليس جيدًا بالقدر الكافي ممّا يجعل الحصن يبدو في حالة مزرية.

وقد سمعت أنّ هناك ١٢٠ رجلًا مخصّصين لخدمات المدفعية ويرأسهم ضابط بدرجة نقيب، ويرتدي هؤلاء الرجال زيّهم العادي الذي يرتديه عامّة المدينة، ولا يوجد لهم زيّ خاص، مع أنّني علمت أنّهم يتلقّون ملابس من القسطنطينية.

لقد بنيت هذه القلعة على صخرةٍ عبارة عن كتلة صخرية طويلة وضيقة منعزلة وهي مرتفعة وسط السهل، وتستمرّ نحْو الجنوب الشّرقي، والشمال الغربي، واجهتها الجنوبية الغربية ذات شكلٍ عمودي، أمّا واجهتها الشّمالية الشرقية فتنحدر فجأة نحْو السهول.

وأعلى جزءٍ هذه الصخرة يرتفع عن السّهل بمقدار ٣٠٠ قدم، ويبلغ طول الصّخرة نصف ميل، أمّا عرضها فيختلف من جزءٍ إلى آخر، ففي القمة مثلًا حيث بُنيت القلعة لا يزيد عرضها عن ١٠٠ ياردة، وبالرّغم من قياس المساحة بدقة إلّا أنّ هذا الأمر يبدو صعبًا بسبب عدم استواء السطح.

وهذه الصّخرة عبارة عن صخرةٍ جيرية كبيرة متماسكة وصلدة، والمدينة تغطي الجانبَ المنحدر، بينما يحيطُ بها سور يربط النهايتين بالصخرة.

بعد أن طفنا بالقلعة، وشاهدنا جميعَ معالمها، خرجنا من البوابة المسمّاة إيسكيليه متّجهين إلى المدينة، سالكين الطريق على طولها.

يروي الناس هنا حكاياتٍ جميلةً على أحوال المدينة سابقًا، وكيف كانت أحوالها مزدهرة، وتقول إحدى الرّوايات أنّ هناك رجلًا قضى نهارًا كاملًا عند إحدى بوابات المدينة ليحصي مرور ١٤٠٠٠ فقط من الخيالة من تلك البوابة.

وقد لاحظت أنّ أهالي المدينة يتذكّرون المجد الماضي للمدينة التاريخية بكلّ أسًى وحزن، لقد صادفت رجلًا في السّبعين من عمره، وسألته إن كان يتذكر كيف كانت أحوالُ المدينة فيما مضى، وهل كان سكّانُها أكثر من الآن أم لا ؟ وهل كانت المدينة أكبر حجمًا؟.

فأجابني قائلًا: لا، ليس هناك تغيّرٌ كبير في عدد السكان أو حجم المدينة، ولكنّني أتذكّر جيدًا أنّ السّكان كانوا أكثر ثراءً من الآن، أمّا التجارة فقد كانت في قمّة ازدهارها، خاصّة على أيام درويش باشا، الذي كان يحافظ على استقلال المدينة الكلّي عن نفوذ سلطة الباب العالي، والذي قضى على ثلاثة باشوات تعاقبوا على الهجوم عليه لتحطيم باشويّته وخلعه، ولكنّه أخيرًا وللأسف الشديد قد دحر من قبل سيعرت أو سيرت محمود باشا الذي كان مدعومًا من قبل باشوات أرضروم وقارص وبايزيد.

ومنذُ هذا الوقت لم تعدِ المدينة مزدهرةً كسابق عهدها؛ بل أصبحت تزداد سوءًا حتّى الآن، لقد حدثت كلُّ هذه الأمور قبل اثنتين وعشرين سنة، وقبل هذه الفترة بأربعة عشر عامًا كان درويش باشا يحكم مدينة وان، وكانت في أفضل أحوالها.

يبلغ سكّانُ المدينة مع سكّان الحدائق المحيطة بها حوالي ٥٠٠٠ عائلة من المسلمين، و٢٠٠٠ عائلة من الأرمن.

وتزداد نسبةُ الأرمن على المسلمين في الريف المحيط بالباشوية، وقد علمت أنّ الكثيرَ من الأرمن قد هاجروا من قِبَل إلى القسطنطينية، حيث يعملون هناك كعمّال أو حمّالين أو فنّانين والبعض كصرّافين، ومؤخّرًا أشار السّجل الذي يحتفظ به مسئول هذه الأمّة بأنّ عدد الغياب عن عوائلهم بلغ ٣١٠٠٠ شخص، وفي كلّ عام يعود منهم ٣٠٠٠ شخص إلى عوائلهم، وقسم كبير منهم يرحل إلى القسطنطينية، ويعود ذلك لأنّهم يكسبونً هناك أجورًا عالية تمكّنهم من إعالة أسرهم، كما أنّهم لو دبّروا أمورَهم بمبالغَ صغيرة ووفرّوا الباقي فيمكنهم بعد عدّة سنوات أن يعودوا إلى قراهم للتمتّع بما كسبوه هناك، وبعد نفاد كلّ ما لديهم يعودون مرّة أخرى إلى القسطنطينية للكسب مرّة أخرى، وهذه الممارسة تبيّن مدى توفر الأيدي العاملة هناك، قياسًا للفرص المتاحة.

وبما أنّ عدد السّكان هنا قليل فإنّنا نجد مساحات كثيرة من الأراضي الزراعية دونَ حراثة أو سكان، ومن الواضح أنّ هناك خللًا في إدارة الباشوية، وأنه يجب منع الهجرة، ويبدو أنّ عدم توفّر الأمن من جانب الكرد هو أحدُ عوائق العمل الزراعي.

ولكنّنا نأمل أن تتغيّر هذه الأوضاع السّيئة إلى الأفضل، ويجب أيضًا أن يتمّ إلغاء ضريبة القشلة، بين بحيرة وان ونهر بيدي ماهي صو الذي يصبّ في الزاوية الشّمالية الشرقية من البحيرة.

وإذا نفّذت هذه الخطوات فستكون ذاتَ منفعة كبيرة لسكان الريف في هذا الجزء من الباشوية، وسوف تعالج جميع مشاكلهم.

لقد عزمتُ الرّحيل وذهبتُ إلى الباشا لأستأذن منه، وتبادلنا بعض الأحاديث، وكان من بينها حديث عن الكهوف، ولقد ألحّ عليّ الباشا لأبقى في ضيافته وقتًا أطول، ولكنّني اعتذرت منه متحجّجًا بأنّني قد غبت طويلًا عن وظيفتي في أرضروم، وأنّني مازلت أمامي وقت طويل حتّى أعود إليها، وأخبرني الباشا أنّ سلطان أغا سيكون قد وصلَ إلى منزله عندما أمر بالقرب من مضارب عشيرته.

شكرتُ الباشا كثيرًا على كرم ضيافته وحُسن استقباله ودماثة أخلاقه، وهذا حقًّا ما أشعرُ به تجاهه إلّا أنّني أيضًا أعتقد أنّه غيرُ مناسب لهذا المنصب بسبب تقدّمه في العمر، ونقص خبرته في فنّ المناورة لتولّي منصب حاكم لمثل هذه المنطقة الجميلة غير المتحضّرة، كما أنّه وبسببِ المسائل الجديدة التي بدأت مؤخّرًا في تركيا، فيجب أن تهيّئ الحكومة لهذه الباشوية رئيسًا يتمتّع بالذكاء والحنكة، ويحمل آراء مستنيرة، فلا يكفي أن يكون كريمًا وحسن الأخلاق فقط.

التّجارة هنا ليست مزدهرة كثيرًا، ويندُر هنا وجود البضائع الأوروبّية، وذلك بسبب فقر النّاس الذي يعوقهم عن شراء هذه البضائع غالية الثمن.

وتمتازُ مدينة وان بتربةٍ جيّدة ومناخ جميل، وهذا يمكنها من أن تصبح مدينة تجاريّةً ذات شأنٍ كبير، ولكن للأسف فإنّ سوء الإدارة ونقص الأمن يحولون دون تطوّرها وتقدّمها، فلا يتمّ استغلال امتيازاتها الطبيعية الكثيرة.

تحتوي المدينة على ٥٠٠ نولًا تعمل في غزل وحياكة الأقمشة القطنية الخشنة من القطن المستورد من بلاد إيران، تنقسمُ هذه الأقمشة إلى قسمين؛ الأوّل يستهلك في المناطق المجاورة، والقسمُ الآخر يرسل إلى بتليس ليصبغ باللون الأحمر، ثمّ يعود قسمٌ منه ليُستعمل هنا من قِبَل السّكان المحليّين، هذا إلى جانب أنّ مصانع دمشق وحلب عادةً تنتج أقمشةً لاستعمال الناس من مختلف الطبقات.

والأشياءُ المطلوبة هنا، والتي لا تتوفّر في وان، تطلَب من أرضروم أو فارس، أمّا الشّال المستورد من كرمان فيستهلك هنا بكثرة، والريف المجاور ينتج أنواعًا مختلفة من التوت الأحمر والأصفر.

كما تجلب إلى هنا كميّات من كبريتوز الزرنيخ الأصفر المستخرج من جبال حكاري ليباع هنا، ولا يوجد هنا أيّ منتجات للتصدير سوى الفاكهة الطازجة والمجفّفة، وينتج هنا كمّيات كبيرة من جميع أنواع الحبوب والفاكهة والنبيذ، وتمتاز بأسعارها الرّخيصة، وينتج هنا أيضًا كمّيات كبيرة من بذور الكتان التي يستخرج منها الزيت المستعمل في الإضاءة.

وكلّ رجال المنطقة ذوو الشّأن يملكون بيتًا في المدينة وبيتًا في الريف، بالإضافة إلى بستان للفاكهة أو الكروم وربما يمتلكون أكثر من بستان، ومَن لديه هذه الإمكانيات لا يدفع إيجارًا لمنزل، كما أنّ جميع احتياجاته المتواضعة من مزرعته أو مِن الأرباح الحاصلة من تجارة صغيرة متحققة من رأسمال يتراوح بين ٢٠ إلى ١٠٠ ليرة، ومن هذه النقود يمكنه أنْ يلبي احتياجات عائلته.

إنّ البعض هنا على أيّة حال يزدادون ثراءً، ما عدا الذين يمارسون مهنة الصّرافة الذين يستطيعون عمومًا تحسينَ دخلهم.

أمّا الأشخاصُ الذين لا يمتلكون الامتيازات أعلاه، فيلجأون إلى القسطنطينية لتحسين معيشتهم.

لقد سمعت هنا أنّ المنزل الملحق بحديقة لا يقلّ سعرُه عن ١٥٠ ليرة، وأجرة البستاني هي ٥ ليرات، وإذا كان ما ينتجه يتجاوز ١٥ ليرة؛ فالربح الصافي سيكون إمّا ١٠ ليرات أو ٦,٥٪.

وقد فهمت أنّ استخدام رأسمال قليل في الريف لا يدرّ دخلًا كبيرًا؛ لأنّ سعر الفائدة هنا لا يقلّ عن ٨٪ سنويًّا، وأنّ أغلى إنتاج هنا هو ما تدرّه مزارع الكروم، ولكنّها غير مضمونة لأنّها مرتبطة بالمناخ، ولا أحد يضمن المناخ هنا، فمثلًا إذا جاء الشتاء البارد باكرًا قد يتسبّب في تساقط الأعناب قبل نضجها، يباع العصير المستخرَج قبل التخمّر، ثمّ يحوله المشتري إلى نبيذ.

الوزنُ المتّبع هناك هو الباطمان، وهو يعادل ٢٠ رطلًا ونصف الرطل، ويكسب شلنًا واحدًا، وكلّ رطل من الأعناب يباع بحوالي نصف درهم، أمّا باطمان التّفاح فيباع بـ ٤ دراهم، وباطمان الخبز بـ ٧ دراهم، ورطل لحم الضأن يباع بشلن واحد، ومن هذا نستنتج أنّ تكاليف المعيشة هنا رخيصة للغاية.

ويوجد خمسة أو ستّة قوارب متهالكة تجوب البحيرة ذهابًا وإيابًا، وتستخدم لنقل الأقطان والأقمشة القطنية إلى تادفان، ومن هناك إلى بتليس.

وعند عودتها تجلبُ الحبوب والأخشاب من سواحل البحيرة، ولم أرَ هناك أيّ قوارب صغيرة في البحيرة، ولم أرَ أيّ شخص يحاول الصيد في المياه العميقة، وقد علمتُ أنّهم في الربيع اصطادوا سمكًا كثيرًا إلّا أنّ حجمه كان صغيرًا، ويبدو أن الأسماك كان تأتي لوضْع بيضها في أعالي الجداول التي تصبّ في البحيرة، وتستخدم السّلال لهذا الغرض، وبعد اصطياد الأسماك مباشرة يتم تنظيفها وتمليحها لتستخدَم في الطّهي، وهناك بعض الأسماك التي ترسل إلى الأقرباء والأصدقاء كهديّة، ويؤخذ منها القليل ليباع، والأسماك الموجودة هنا تشبه أسماك الرنجة التي تستعمل في علب السّردين، وهو ذو جودة عالية.

وسيكونُ من الجيّد لو أقيمت هيئة نقل نهرية هنا، فستعود بالكثير من الفوائد على سكّان المنطقة، فبدلًا من القيام بمسيرة طويلة حول البحيرة، وهي بالتأكيد محاولة

لا تخلو من المخاطر، فيستطيع المرء أنْ يقطع البحيرة بالعرض في قارب سفر، ولا يستغرق سوى بضع ساعات.

ويجبُ أيضًا تشجيع الأهالي على الصّيد بالشباك في المياه العميقة، ومن المؤكّد أنّ هذه البحيرة تحتوي على كمّيات هائلة من الأسماك، وهذا ما يوضح من خلال كمّيات الأسماك التي تمّ صيدها، وهي تضع بيضها في أعالي الجدول، ومن خلال طيور الغاق المائية التي تعيش على السمك الكثير، حيث تسبح تحت الماء لتحصل على السمك، وكذلك طيور النورس وغيرها من الطيور المائية التي تحوم في سماء البحيرة، وتقوم بقفزاتها السريعة داخل الماء، فتمسك بالأسماك، وهذا دليلٌ كافٍ على كثرة الأسماك في البحيرة.

إنّ البحيرة لها شكل شاذّ في أقصى طولها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، أو من آرنيس إلى تادفان الذي يتجاوز سبعين ميلاً.

أمّا في أقصى عرضٍ لها من الشمال إلى الجنوب فيبلغ عرضها ٢٨ ميلًا، ومساحة البحيرة بالكامل تصلُ إلى ١٠٠٠٠ ميلٍ مربّع، ونادرًا ما تتجمد على أيّ مسافة من الساحل، ولكنّني لاحظت أنّ النهايةَ الشمالية الشرقية لها ضحلة، ولذلك فإنّها تتجمّد في الشتاء القارص. ولذلك فيكون من الممكن العبور من فوق الماء المتجمّد في هذا الوقت، ولقد قدرت مستوى بحيرة وان على أنّه بحدود ١٠٠٠ قدم أدنى من مستوى أرضروم، أي أنّها ترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو ٥٤٦٧ قدمًا.

الطّقس هنا لطيف، وبالرّغم من تساقط الثلج بكميات كبيرة في فصل الشتاء، إلّا أنّ درجة التجمّد لا تصل في أقصاها إلى ما تصل إليه في أرضروم.

الثّالث والعشرون من يوليو، عام ١٨٣٨

عند مغادرتنا لمدينة وان العريقة مررْنا من خلف الصخرة الكبيرة التي تقف فوقها القلعة، واتّخذنا مسارًا نحْو الشمال، ثمّ غيّرنا مسارنا نحْو الغرب مغادرين القرية المسمّاة ايسكله كوي، وهي قريةٌ صغيرة تقع على أطراف البحيرة، على بعد ميل من جهةِ اليسار، ابتعدنا كثيرًا من سواحل البحيرة، ونحن نتقدّم عبر أرض متموجة، وبعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف وصلنا إلى:

قرية آله كوي:

هذا الاسمُ يعني القرية الجميلة، وهنا استرحنا قليلًا، ونظرًا لجودة الطريق ولتوقّفاتنا القليلة، فإنّني أقدّر المسافة التي قطعناها بحوالي ١٢ إلى ١٤ ميلًا.

تضمّ هذه القرية ١٠٠ عائلة من الأرمن، توفّر مشتى لـ ٣٠ عائلة من الكرد، وعلى التلّ الذي يطلّ على القرية توجد كنيسة قديمة متهالكة، وعند سفح نفس التلّ توجد كنيسة أخرى ذاتُ أبعاد صغيرة، أمّا داخل القرية فيوجد كنيسة ثالثة أكبر من الأخرتين، وأحدثُ أيضًا، ويمكن رؤيتها عن بعد.

تمتدّ مزارع الكروم لمسافاتٍ شاسعة، والتي تنتج كميّات كبيرة من الأعناب التي يتمّ عصرها وتحويلها إلى نبيذ، وترسل إلى وان لتباع هناك.

ويوجد سلسلةٌ صغيرة من التّلال تتداخل وتمتدّ بين سواحل البحيرة وهذه القرية، وتقف حائلًا يحول بين البحيرة والقرية.

تربةُ هذه القرية من الطّين الأبيض، وعند حلول موسم الأمطار تدرّ كميات كبيرةً من الغلال، ولكن عندما يكون الشتاء جافًا فيقلّ الإنتاج كثيرًا.

يحصل القرويّون علي الماء لاستعمالهم الشخصي، ويروي مزارع الكروم من الماء النابع من الجبال المحيطة بهم، ولكنه لا يكفي لري الحقول.

عند العصر التحقنا بركب الـ (مهردار أفندي)، أي حامل أختام (إسحق باشا) وقد جاء خصّيصًا ليرافقني كمضيق حتّى وصولنا (بايزيد).

خرجنا من (آله كوى) وسلكنا طريقًا باتّجاه الشمال الشرقي، وبعد مسيرة أربع ساعات وصلنا سواحل البحيرة، وكانت على يسارنا سلسلة جبلية عالية تقع بين البحيرة وطريقنا، وأثناء عبورنا عدّة قرى رأينا العديد من قطعان الأغنام والماعز، ولكنّني لاحظت وجود كثير من الأراضي غير المزروعة بالرغم من جودة تربتها العالية.

اتّبعنا البحيرة بمسافة ميلين، ثمّ عدنا مرّة أخرى لنسلك طريقًا داخليًّا خلف سلسلةٍ أخرى من الجبال تقترب شيئًا فشيئًا من البحيرة.

وبعد ساعة من السير، وصلنا إلى:

قرية (ميريك Merek):

تضمّ هذه القرية ديرًا يُنسب إلى السيدة مريم العذراء- عليها السّلام-، وقد كانت الاحتفالات مقامةً به على قدم وساقٍ عندما وصلنا.

وفى طريقنا إلى القرية التقينا بالمئات من الرّجال والنساء والأطفال من القرى المجاورة متّجهين إلى هذه القرية ليشاهدوا الاحتفالات الملونة. لقد قطعنا الطريق من قرية (آلة كوى) إلى هنا في ستّ ساعات فقط، وقد كان الطريق جيدًا، وقدرت المسافة بحوالي ٢٠ ميلًا.

تقع هذه القرية على سفح الجبال العالية التي تطلّ على البحيرة من ارتفاع شاهق جدًّا، وقبل أنْ ندخل القرية وجدتُ بعض الفرسان قادمين لاستقبالي والترحيب بي،

وقد أرسلوا من قبل الـ «صوبا شي» الذي يرأس الاحتفال لصيانة النظام والأمن.

وجاء لاستقبالي أيضًا بعضُ الفرق الموسيقية البدائية التي جاءت للاحتفال من مختلف الأقاليم، ولكنّهم لم يحضروا للترحيب بي؛ بل جاءوا لأخذ الهدايا.

إنّ مثل هذه الاحتفالات تجذبُ النّاس من مختلف القرى المجاورة، وهذا يدلّ على حاجتهم للفرح والابتهاج، ممّا يجعلهم يفِدون من مختلف القرى ليحصلوا على بعض المرح، ولا أعتقد أنّ دافعهم ديني بحت.

ويبدو أنّ الرّقص هو المتعة الرأسية للنساء اللائي شكلن حلقات مختلفة للدبكة بخطوات جادّة في رقص دائري مع أنغام الطّبل والمزمار التي كانت تشقّ هدوء الوديان بأدائها العالي.

جميعُ النّساء هنا يرتدين الصّديري الأحمر، ويضعن البراقع القطنية البيضاء الشفافة فوق رؤوسهن المتدلّية حتّى الخصر، أمّا الصبيان الصغار فقد كانوا يتسابقون لإبراز إبداعاتهم الشّخصية في فنّ الدبكة، بينما انشغل الأكبر سنًّا في متابعة حركات المهرّج الذي اصطحب معه دبًّا إلى الاحتفال للقيامة بالحركات البهلوانية.

وقد كانت جموعُ النساء والرجال والأطفال تتوافد على الاحتفال من وقت لآخر، وكان رؤساؤهم يمتطون صهواتِ الجياد، أمّا النّساء فقد كنّ يركبنَ البغال والحمير والثيران مع أطفالهن.

وكانت الفرقُ الموسيقية والأطفال الرّاقصون يتقدّمون الموكب الجميل، وكلّما مرّ الوقت كانت الأعداد تزداد.

وكلّما أتت مجموعةٌ جديدة كانت تذهب إلى المكان المخصّص فوق سفح الجبل لوضع حاجاتها، ونصْب خيامها، ثمّ ترجع لتشارك بالاحتفال، كان الجميع يرتدون ملابس العيد، إلّا أنّها كانت متواضعة، كما أنّ غبار السفر لم يظهر بهرجتها المتوقّعة، وتمتاز هذه الاحتفالات بالضوضاء والجلبة العالية، ولكنّها احتفالات غير عاديّة، غير أنّ انفصال الجنسين في هذه المناسبة يعد إحدى عادات الشعوب الشّرقية.

عندما حلّ المساء ازدحمت الكنيسة بالناس إلى حدّ الاختناق، وأثناء إقامة القداس كانت الصّرخاتُ تتعالى من قبل المتعصّبين دينيًّا لتقطع المراسيم وتطلب من العذراء أنْ تشفي مرضاهم الذين لا يجدون علاجًا في متناول أيديهم، العديد من المقاطعات والصّرخات والسجود لا ينبع من ذوي الأرواح المتدينة بقدر ما يصدر عن ذوي المعتقدات الخرافية أو قوة تأثير تضرعاتهم.

وخارج الكنيسة كانت توجد صخرةٌ كبيرة ذات وجه مصقول، والتي افترض فيها امتلاك قوّة إعجازية للحفاظ على تماسكها، على شرط أنّ الذي يضعها هناك يكون شخصًا طاهرًا بلا خطايا، وقد شاهدت مجموعة كبيرة من الناس يحاولون عبثًا القيام بهذا الأمر، فقد كانوا يأتون ببعض القطع الصّخرية ويتركونها، ويضعونها بالقرب من الصّخرة المباركة، ويضغطون عليها بقوّة، ويعتقدون أنّها ستتماسك، وقد كانوا يكرّرون هذه المحاولة عدّة مرّات دون جدوى، وقد كان يخيب أملهم كلما فشلوا، ويوقنون أنّهم ليسوا طاهري الأنفس، ولن تستجاب دعواتهم، وربّما مَن بدأ هذه الخرافة كان ماكرًا؛ حيث بحث عن عدم الاستواء القليل في سطح الصخرة بأمل أنْ تقود هذه الوسيلة إلى انتصار مؤقّت، إنّهم حقًّا جهلاء، كما أنّ رجال الدين أيضًا يشجّعون على هذه الخرافة، إنّهم لا يتمتّعون بأيّ قدر من الأخلاق، ويجب أن أقول إنّه من الضروري أن تنجح البعثاتُ الدينية

في هذه الأقطار لتنوير المسيحيين، وإنْ لم تنجح فسيظلّ هؤلاء المسلمون في حالة ميئوس منها من التخلف.

لقد سمعت أنّ هناك حوالي ٥٠٠٠- ٦٠٠٠ شخصًا يلتقون كلّ عام في هذه الاحتفالات، كما تحضر مجموعاتٌ كبيرة من الكرد لمشاهدة الاحتفال.

وأعتقد أنّ لديهم دوافعَ أخرى غير دينية لشهود هذه الاحتفالات. أمّا المبالغ التي يودِعها الزّائرون في الكنيسة فتقسّم بالنصف بين كاهن الضيعة وباشا المنطقة، وقد سمعت أنّ كلّ طرف منهم حصل على ٥٠ ليرة فقط، وهذا لا يدلّ على أنّ المسيحيّين هنا فقراء، أو أنّهم بخلاء تجاه الكنيسة.

إنّ الصوباشي يرعى مصالح الباشا، ولهذا يحتفظ بحارس لمراقبة الصندوق الذي فيه التبرّعات للكنيسة. في الليل تغلَق أبواب الكنيسة، وتوضع المفاتيح عند الصّوباشي، كما أنّه يضع بعض الاحتياجات الأخرى لمنع فتح الباب فيضع ختمه الخاصّ عليه، وهذا يدلّ على أنه لا يأتمن القسّ.

قبلَ غروب الشمس صعدَ الصوباشي وبرفقته حشد من الخيالة لنصب الخيام، وفي أسفل معسكرنا في حقل، وأخذ الكرد يمارسون تمارينهم العسكرية المعتادة لفترة قصيرة، حيث يغيرون مِن على صهوة جيادهم، ويطلقون النار، ويلوحون بسيوفهم اللّامعة، مستعملين بنادقهم ومسدّساتهم، متقدّمين ثمّ منسحبين على شكل معركة صوريّة، وبعد ذلك يواصل موكبُ الفرسان تقدّمه، واستمرّت الموسيقى والرقص والاحتفال حتّى وقت متأخّر بعد منتصف الليل، حيث انفضّ الجمع الراقص بعد هذا التّعب؛ ليغطّ في نوم عميق.

الخامسُ والعشرون من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

لقد اكتشفنا أنّ أحد أصحاب البغال انتكسَ مرّة أخرى بسبب آثار الحمى التي أصابته في خربوط، وذلك بسبب حماقته في وان، هذا إلى جانب أنّنا وجدنا اثنين من الخيل التي تحمل حقائبنا قد سرقًا بالرّغم من أنّ جميع الخيول كانت مربوطة بجانب خيامنا، وكان الحمّالون نائمين بجوارهم، كما كان الصوباشي قد عيّن لنا أربعة من الحرس لحراسة المكان أثناءَ الليل، ومع ذلك سرقنا دون أنْ ندري، قام الصوباشي بتعْيين الحرس، ولكنّنا لم نصل إلى أيّ شيء، ولذلك غادرنا بدون خيولنا.

وقد كان أحدُ الكرد الذين رافقوني من وان ينوي العودةَ إليها، ولهذا أرسلت معه رسالة إلى إسحق باشا أخبره فيها بالسّرقة التي تعرّضنا لها، وأطالبه بأن يجعل الصّوباشي يعيد خيولنا، أمّا الصوباشي فقد قام بتعيين ستّة فرسان لحراستنا حتّى محطّتنا القادمة، وخرج لتوديعنا عند مدخل القرية.

خرجنا من القرية غاضبين ممّا تعرّضنا له، وسرنا بجانب التلال، ولم ننزل إلى ساحل البحيرة حتّى وصلنا تقريبًا إلى حدّها الأقصى، ومشينا خلال مراعي خشنة من الحشيش اليابس حتّى وصلنا إلى «بيندي ماهي سو» أي «ضفة نهر السمك»، وقد كنّا ننوي أنْ نعبره خوضًا عند حلق النّهر، ولكننا اكتشفنا مدى عمقه، فقد كان واسعًا وعميقًا، ذا مياه زرقاء غامقة، أمّا ضفافه فكانت مغطّاة بأكوام القصب العالية التي كانت ممتدّة حتّى الجبال الممتدة رأسًا إلى بايزيد.

إنّ مصادر مياه نهر مراد صو موجودة في نفس السلسلة الجبلية، ولكن باتجاه أقصى الغرب التي منها ينصرف نهر بيندي ماهي صو في الوديان الجنوبية، أمّا نهر مراد صو

فينصرف في الوديان الشمالية، ومسار النهر السابق من منبعه حتّى البحيرة يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ ميلًا.

بعدَ محاولتنا الفاشلة في عبور النهر، سرْنا على ضفته لمسافة أربعة أميال تقريبًا حتّى وجدنا جسرًا قديمًا متهالكًا، وكانت الخيول المحمّلة تجد صعوبة بالغة في تسلّقه، كاد البعض يقع أثناء صعوده، حتّى أنّني بعد هذه المشقة كنت أفضل عبوره خوضًا، وعلى بعد ساعتين أعلى النهر توجد «باركيرBargir أو Vulgo Bigir، وهي مقرّ لبيك كردي، والطريق إلى بايزيد يمرّ من خلالها، ولا يوجد أي قرى بين هذين المكانين.

وكلّ الريف الموجود في هذه المنطقة هو عبارة عن سلسلة جبلية لا يتردّد عليها سوى القبائل الكردية، وقد سمعت أنّ المسافة كانت ١٢ ساعة سيرًا، ولكن من خلال تجربتي السابقة يمكنني أن أقدّرها بـ ٢٠ ساعة على الأقل.

وقد علمت أنّ إسحق باشا قد أصدر أوامره لرؤساء القرى المجاورة لإصلاح الجسر المتهدّم؛ لذلك جمعت بعضَ الموادّ من قبل البدو في العمل المذكور.

ومن ضفةٍ قريبة للنهر كانت هناك عينُ ماء ساخنة تصل درجة حرارتها إلى ٥٥ درجة فهرنهايت، والتي تبيّن درجة حرارة المناخ المتواضعة، عبرنا هذه العين، ثمّ اتّبعنا الجدول نزولًا إلى رأس البحيرة حتّى وصلنا إلى معسكر كردي.

في هذا المكان طلب منّي المرافقون أن يعودوا إلى ديارهم، وأعلموني أنّ رئيسهم قد طلب من أغا الأكراد أن يزوّدني بمرافقين آخرين في الصباح.

واصلنا سيْرنا على طول ضفاف البحيرة لأكثر من ساعة، ثمّ استدرنا إلى جانب سلسلة أخرى من الجبال، وشاهدنا خيامًا أخرى للكرد يسكنها سكان قرية تقع

إلى الخلف اسمها «آرنيس»، وقد جاءوا إلى هنا بحثًا عن الكلأ، وعندما اقتربنا من البحيرة أزعجتنا أسرابُ الذّباب التي لا حصر لها، والتي كانت تترك بقعًا خضراء في أماكن حصرها، ولكن في تلك المراعي كنّا في أعلى المنطقة التي يستوطنونها.

عسكرنا في أرض صلبة جدًّا، وبالقرب منها كان يوجد نبع ماء عذب بارد، وقد كان الناس المقيمون هنا فقراء جدًّا، ولكنّهم زودونا بكلّ ما نحتاج لنا ولخيولنا، وقد علمتُ أنّ العديد من أكراد هذا القسم من الرّيف، وقد استقرّ مؤخرًا في قرى ثابتة، أمّا الخيام التي مررنا بها منذ قليل فقد كانت تعود لأناس عسكروا هنا فقط للرعي.

وللحقّ أقول إنّ الكرد قد تعرّضوا لخدعة كبيرة عندما عرض عليهم التوطن في آرنيس مقابل إعفائهم من الضرائب، كما أنّهم يتحمّلون عبء الحفاظ على أمن الطّريق، وكذلك يتعرضون لخيانة المارين، لقد جاء العديد من رؤساء الكرد من المستوطنات المجاورة في فترة العصر للترحيب بنا.

السّادس والعشرون من تموز/ يوليو، عام ١٨٣٨

في الصّباح الباكر جاءنا اثنان من أغوات الكرد، وبرفقتهما عدّة فرسان لمرافقتنا، ولكنّ الوجيهين لم يبقيا معنا كثيرًا، واستأذنا بالرجوع بعد مسيرة قصيرة.

هبطنا إلى حافّة البحيرة، وهناك هوجمنا مرّة أخرى بأسراب الذباب، المنطقة هنا عبارة عن صحراء قفرة، ولا يوجد بها غير بقايا أسوار البساتين والحقول التي تدلّ على أنّ المنطقة لم تكن صحراء من قبل، وقد أخبرني أحدُ المرافقين الكرد أنّ هذه المنطقة كانت من قبلُ مليئة ببساتين الفاكهة والحدائق التي تسرّ الناظرين، وقد كانت تمتدّ على طول الطريق، مررنا بالقرب من بقايا خان قديم وكبير، وبالقرب منه قرية.

وقد رأيت ثغرةً في الجبال الموجودة على اليمين تشبه فوهة بركان مطمورة، أمّا الصخور فكانت صخور صلدة أشبه بأقراص العسل المملوءة بثقوب من مقذوفات البراكين تقوي احتمال كوْنها منطقة بركانية قديمة.

بدأنا جوْلتنا في السّاعة السادسة صباحًا، وفي تمام السّاعة التاسعة والنصف التقيْنا بمراسل إسحق باشا، وقد كان عائدًا من أرضروم ومتّجهًا إلى وان، وقد كان يحملُ لي الكثيرَ من الرسائل، ولكنّه لم يشأ فتح حقيبة الرسائل في الطريق، ولهذا رجعنا معًا إلى القرية التي غادرناها منذُ قليل ليعطيني رسائلي، ثمّ عبرنا نهرًا صغيرًا يتدحرج بين الصّخور البركانية، ثمّ صعدنا إلى ضفّته العالية وواصلنا السير على طول الضّفة لفترة قصيرة حتّى وصلنا إلى القرية المسمّاة حيدر بيك، وهناك توقّفنا مع المراسل لنستلم رسائلنا.

إنّ هذه القرية لا تبعد كثيرًا عن البحيرة، ولكنّ البحيرة تبدو بعيدة على مرمى البصر، والجدول الذي عبرناه يجري من خلال وادٍ جميل تطلّ عليه القرية، وعلى مسافةٍ منها إلى الأعلى توجد كنيسة أرمنية.

لقد قدّرت المسافة من آرنيس إلى هنا بحوالي ١٠ أميال، واصلنا التحرك في السّاعة الحادية عشرة والنصف، وبعد مسير ربع ساعة ظهرت لنا من جديد بحيرة وان بمياهها الزّرقاء الجميلة، ورأينا أيضًا قلعة آرديش Ardish عند حافة الماء.

سرْنا على طول السّفوح المنحدرة للجبال، ثمّ هبطنا أخيرًا إلى سهل آرديش، وعند مدخله عبرْنا نهرًا كبيرًا، ثمّ عبرنا بضعة أنهار أخرى صغيرة، وبعض المستنقعات قبل أن نصل المكان.

وقبل أنْ ندخل القرية جاء الحاكمُ المحلي للقائي، ودعاني للإقامة في منزله، ولكنّني اعتذرت منه لأنّ خيامنا كانت قد نُصبت بعيدًا عن مكان بيته، رافقني الحاكم إلى مكانِ خيامنا التي أقيمت أعلى ضفاف النّهر الكبير المسمّى «آرديش جاي»، ومن الجهة الأخرى يمتدّ السّهل أكثر ليصبح مستنقعًا كبيرًا.

حاكمُ هذه المنطقة يسمّى أحمد بيك، وهو رجل سمين، دمث الخلق، يحبّ الضّحك والمزاح، ويبدو صغيرَ السّن على تولي هذا المنصب، وهو أحد أهالي قرية آرديش، ولم يبتعد كثيرًا عن القرية فلم يذهب أبعدَ من موش، بتليس، أرضروم، وان.

أمّا القلعة فإنّها لا تبدو كالقلعة، ولكنّهم يسمّونها هكذا، فهي في حالة من التّداعي، معظمُ حيطانها سقطت حتّى الحوائط المطلّة على البحيرة، ولهذا فإن واجهتها المطلّة

على البحيرة مفتوحة تمامًا، ونتيجة لهذا يمكننا القول أنّه لا دفاعات لها، أمّا البيوت الموجودة داخل أسوارها، فهي من نمط البيوت الموجودة بالقرى التي رأيناها سابقًا، والتي يكون نصفها تحت الأرض.

يقيمُ في هذه القصبة ١٠٠ عائلة من المسلمين، وعددٌ قليل جدًّا من العائلات الأرمنيّة، ويوجد هنا كنيسة صغيرة وقديمة، وهذه المنطقة التي يحكمها حاكم محلي، وتحتوي على عشرين قرية كبيرة ومزدهرة، إلى جانب العديد من القرى الصغيرة الفقيرة، ويمتلك الناس هنا أعدادًا كبيرة من الماشية والأغنام والخيل.

وتمتاز هذه القرية بجمالها واتّساعها، كما أنّ تربتها غنية وعميقة وخصبة للغاية. والبحيرة من هنا وحتّى نهايتها الشرقية القصوى ضحلة جدًّا.

ويبدو أنّ الطّمي الذي يأتي مع مياه الأنهار العديدة التي تصبّ فيها أخذت تملأ قيعان البحيرة في هذه المنطقة.

وهناك اعتقادٌ يقول إنّ البحيرة الحالية تغطي الآن بعض المناطق التي كانت في السّابق جزءًا من السهل، حيث يصبّ فيها كلّ من نهري بيندي ماهي، وآرديش، يمتدّ على حساب البحيرة.

وخلال عشر سنوات سيطر على ما يقرب من ميل منها قبل ذلك، وعلى طول الشّاطئ كان مستنقعًا غير قابل للعبور يجعل الطريق إلى آرديش يستدير حول البحيرة، الآن ماعدا في فصل الربيع، حيث يكون الطّين عميقًا جدًّا، فإنّ الطريق إلى آرديش يعبر السهل بخطّ مستقيم.

الماء في هذه المنطقة أقلّ ملوحة ممّا كان في تادفان، وذلك نتيجة لكثرة الأنْهار العذبة التي تصبّ في هذا الجزء الضحل من البحيرة.

لقد أخبرني الحاكم المحلّي للقرية أنّ الأهالي كانوا سيحظون بحياة أكثر رفاهية لو لمْ تفرض عليهم ضريبة القشلة، وهي تعني إيواء القبائل الكردية الرحالة المجاورة أثناء الشتاء، ولو لم يكن الكرد لديهم نزعة إلى السرقة أيضًا.

وأضاف أنّه سيكون من الأفضل الإقامة في الجبال بدلًا من الإقامة في القرى، وقد كان يقصد من هذا أنّ الكرد سيحظون بحياة أفضل من القرويين الذين يتحملون تكالبهم إيواؤهم في الشتاء، كما أنّهم لن يكونوا سببًا في زيادة سوء معيشتهم.

وحدّثني أيضًا عن قبيلة حيدرانلي الكردية التي يرأسها سلطان أغا، وترعى قطعانها في الجبال المجاورة في موش في الصيف، أمّا الشتاء فنقضيه في القرية التابعة لآرديش، وعندما سألته عن رئيسهم سلطان أغا أجابني قائلًا:

إنّ سلطان أغا كشخص كرديّ لا بأس به، ولكنّ قبيلته تعدّ من القبائل التي تمارس السّطو متى سنحت لها الفرصة، وإذا طالب المسروق رئيس القبيلة بإعادة المسروقات لا يعطيه إلّا مجرّد وعود واهية، ثمّ يتحجّج بغياب اللّص أو بعدم عثوره على المسروقات، ثمّ يعدُه بإعادة الأموال بعد عودة القبيلة من المرابع الشتوية، وهكذا.. وإذا لم يصرّ الشّخص المسروق على أخذ حقّه واكتشاف مسروقاته بنفسه، فإنّه لن يفلح أبدًا، وهذا ما يحدث غالبًا، ومن الطّبيعي أن تمارس كلّ الحيل والخدع لإخفاء المسروقات عن صاحبها.

واعترفَ لي الحاكم المحلّي أيضًا بأنّ عمليات السرقة أقلّ حدوثًا من ذي قبل، وأنّها أصبحت أكثر خداعًا ودهاءًا، كما أصبحت مرفقة بالعنف، فمثلًا إذا تعرض أحدُ المسافرين للسّرقة فلن يتعرّض إلى أيّ أذى إلّا إذا قاوم فقط، وقد أخبرني الحاكم عن حادثة صادفته قائلًا:

«لقد هاجمني بعضُ اللّصوص ذات مرّة، فتصدّيت لهم وجرحتهم».

وأخبرني أيضًا أنّه قد تردّد على سمعه الكثير من الإشاعات عن إلغاء ضريبة القشلة، ولكنّها لم تتحقّق حتّى الآن، وربّما لن تتحقّق. الشتاء هنا قاسٍ، ويتساقط الثّلج بكميات كبيرة، ولكنّ البرد هنا أقلّ حدّة ممّا هو في أرضروم.

وجدنا قرب المعسكر أكداسًا ضخمة من الحنطة بانتظار أن تدقّ وتذرى، والتي تنقلها العربات من مكان إلى آخر.

وشاهدتُ الأطفال يسبحون في النهر، وأعدادًا كبيرة من القطعان ترعى في المستنقعات مع الفضوليّين المتسكّعين حول خيامنا، شكّلت هذه المناظر مشهدًا مُفعمًا بالحيوية والنشاط بالإضافة إلى الإثارة.

السّابع والعشرون من يوليو/ تموز، ١٨٣٨

لقد لاحظتُ إلى غرب خيامنا وعلى الطّرف الآخر من النهر مبنًى صخريًّا عتيقًا في قرية بعيدة، ظننته أوّلًا كنيسة أرمنية، ولكن عندما بدأنا نسير سألت عنه فأخبروني أنّه قبرُ ملك فارسي، ولم أعرفْ أيّ شيء آخر، فقد كان هذا كلّ ما يعلمه الأهالي.

سرْنا صعودًا بجانب نهر صغيرة لمدّة ربع ساعة، ثمّ عبرنا قرية صغيرة، ومن هناك انحرف مسارُنا نحْو الغرب في طريقٍ هضبي، جاعلين سلسلة من الجبل بيننا وبين البحيرة من جهة اليسار، أمّا عن يميننا فقد كانت هناك سلسلة جبلية أعلى.

وصلنا إلى البحيرة مرّة أخرى، ثمّ غادرناها لندور حول هضبة حتّى وصلنا:

قرية أشرف Ashraf:

هي قرية أرمنيّة تقع في وهدة صغيرة، تبعد هذه القرية عن آرديش بحوالي ٨ أو ٩ أميال، قطعناهم في ثلاث ساعات تقريبًا.

استرحنا هنا لمدّة ساعة ونصف، ثمّ تحرّكنا مرّة أخرى، أسفل هذه القرية، تتسع الوهدة لتتّصل بسهل واسع يمتدّ نحْو البحيرة، وتضمّ العديد من بساتين الكروم.

لقد حصلنا على نبيذٍ جيّد من هذه القرية، أثناء تناولنا للإفطار بها، استمرّ طريقنا قربَ البحيرة وسلسلة جبلية تحيط بنا من جهة اليمين، وبعد ساعة بدأت تتقهقر تدريجيًّا تاركة بينها وبين الماء سهلًا صغيرًا.

وفجأة أطلّ علينا منظرُ سيبان داغ بدءًا من القاعدة إلى القمّة، ماء البحيرة في هذا الجزء يبدو عفنًا وضحلًا حتّى أصبحت مثل خليج أرضي مغلق، وعلى سطحها رأينا

العديدَ من طيور الماء، أمّا حاشيته فقط كانت مرصوصة بالمراعي التي تتوسّطها برك من المياه الراكدة ذات اللون الأسود والرائحة النتنة، ويبدو أنها تحتوي على مركبات الكبريت، وعلى مسافة ثلاث ساعات من البحيرة باتجاه سيبان داغ كانت هناك قرية تسمى نورشين.

غادرنا هذا الخليج، وارتقينا هضبة فوجدنا أنفسنا أمام البحيرة من جديد فاعتقدت أنّها خليج جديد، ولكنّي بعد التدقيق تبين لي أنها قطعة من الماء. التربة كانت رملية، وقد كان القرويّون يجمعون الغلال، ولاحظت أنّها ممتازة جدًّا ونظيفة.

وقد لاحظت أنّ القمح الذي يزرع في هذه المنطقة بآلات خاصة، كما علمت أنّ الزراعة العلمية واتباع أساليب دقيقة في الحراثة تطبّق في هذا الجزء من الريف بشكلٍ كبير، قاطع خشبي مُنتهٍ برؤوس مدببة ومسحوبٌ من قبل اثنين من الثيران، قادرٌ على حفر أخدود يتجاوز ستّ إنشات، ثمّ يأتي الأطفال، وينثرون البذور بعناية في الثّقوب والأخاديد المحفورة، أمّا النساء فيقمنَ باختيار أحسن المنافذ لوضع البذور بها.

وبعد حصاد القمح يتمّ تقطيع الأعشاب الضارة وحرقها، ولا تستعمل المعازف هنا، ويبدو واضحًا من مظهر الغلال أنّها لا تحتاج إليها، ولا تروي الحقول هنا ألبتة.

وبالرّغم من انحباس المطر لعدّة أشهر، كما أنّ التربة تبدو رملية وجافة، إلّا أنّ قاعَها رطب للغاية.

وقد أخبرني القرويّون أنّه بعد بذر البذور بعشرة أيام يظهر الزرع على وجه الأرض، ولا يتأخّر عن ذلك، وعندما سألت بعضهم لماذا يستعملون هذه الطريقة، ومنذُ متى يستعملونها؟ فأخبروني أنّهم قد تعلّموها من آبائهم، واتبعوها لأنّهم

متيقّنون من فوائدها التي عمّت عليهم بغلال وفيرة وممتازة، وهذا أقلّ ما يعرفونه عن الموضوع.

ومِن الغريب أنْ أرى نمطًا زراعيًّا متطوّرًا يمارس في بلاد غير متحضرة منذ زمنٍ بعيد، مع أنّنا قد اكتشفنا هذا النمط في بلادنا منذ فترة قصيرة.

في تمام السّاعة الثالثة والنصف بعد الظهر وصلنا إلى:

قرية آرين Arin:

تقعُ هذه القرية على بُعد ميلٍ واحد من البحيرة، وتبعد عن قرية أشرف بمقدار ٥ ساعات ونصف، ولكننا كنّاً نتقدم ببطء، علمًا بأنّني قدّرت المسافة التي قطعناها بـ ١٤ ميلًا فقط.

بينما كان الرّجال ينصبون الخيام، جاءني الصوباشي ليدعونا إلى منزله، وقدّم لنا عصير الفاكهة البارد، وبعض العنب والبطيخ. وكانت هذه الهدية في محلّها بعد أنْ قطعنا هذه الجولة المتعبة.

إنّ هذه القرية هي إحدى أملاك إسحق باشا، وتحتوي على ١٥ عائلة من الأرمن، وتوفر مرابع شتوية لـ ١٠ أسر من الكرد.

أمّا الصوباشي فهو من ضباط المؤسسة الباشوية ويأتي إلى هنا في الخريف، وليبقى هنا لمدّة شهرين لجمع حصته من الغلال والمحاصيل، ثمّ يشحنها رأسًا إلى وان، ويعود للسّهر على راحة الباشا.

جاء الصوباشي بنفسه إلى خيامنا ليرحب بنا، وخلال زيارته لنا حذر أصحاب البغال بعدم ترك ماشيتهم خارج الأماكن المخصصة لهم ليلًا، وإلّا فهو غير مسئول عن حمايتهم، وعرض عليهم اصطبلًا خاصًّا لإيواء تلك الماشية.

حدّثني الصوباشي كثيرًا عن الإنتاج الوفير لهذه التربة المهيئة تمامًا لزراعة العنب والبطيخ.

وقد علمت أنّ القرويين كانوا يزرعون المنطقة بهذه الفاكهة، ولكنهم وجدوا أنّ المارّين بالمنطقة يأكلون الثمار، فتوقفوا عن زراعتها، والمراعي المحيطة بالقرية واسعة وجيدة جدًّا، ويمتلك القرويون أعدادًا كبيرة من الماشية والخيل.

يتمّ جمع الصودا من سواحل البحيرة، ثمّ يحولها الكرد إلى صابون.

اكتشف الحراس رجلًا كرديًّا يتجول حول خيامنا غير أنّهم أنكروا انتسابه للقرية، فقام رجالنا بإبعاده، ولا بدّ أنّه كان ينتظر الفرصة المناسبة لسرقة شيء من عندنا.

الثّامن والعشرون من يوليو/ تموز، ١٨٣٨

لقد كان الحاكمُ المحلّي للقرية، ويدعى عادل جيفاز، في قرية مجاورة لنا، فأرسل له الصوباشي مَن يخبره أنّني سأصل إلى قصبته عند الصباح، كان الجوّ باردًا هذه الليلة، وكان أحد أصحاب البغال مريضًا، كما أصيب أحد الخدم بحمّى شديدة.

ارتقينا صهواتِ الجياد في السّاعة السادسة صباحًا، وسلكنا طريقًا يقع بين البحيرات، وربّما كانت المسافة ميلَيْن، ومن طبيعة الأرض الهضبية، خمنت بأنه لم تكنْ في يوم من الأيام متّحدة مع بعضها، فالبحيرة الصغيرة أقلّ ملوحة.

قبل أن نصل إلى القصبة خرج الحاكمُ المحلي لاستقبالنا على الطريق، ثمّ رافقنا إلى قريته، وقد كان رجلًا بدينًا كثيرَ الكلام، وقد علمت أنّه تجول في أماكن مختلفة من بلاده، وقد كان رجلًا متحضرًا حتّى أنّه كان يستعمل السعوط.

حدّثني الحاكم المحلي عن خصوبة الأرض هنا، وعن طرق الزراعة التي يتّبعها الفلاحون هنا، فقال لي:

«إنّ طريقة الزراعة هنا هي نمطٌ خاصّ بالقطر، فلا يوجد مكان في العالم ينتج خبزًا ممتازًا وطازجًا مثل ما تنتجه أرضروم. وفي المواسم الجيدة يدرّ محصول الحنطة ٢٥ طيه، ونبات الجوادر ٥٠ طيه، أمّا الشعير فيدر ٤٠ طيه، وهذا يعدّ إنتاجًا عاليًا، ولا يمكن الحصول عليه في أيّ جزء من البلد».

عندما وصلنا إلى هذه القرية وجدنا أنّه على كلّ جانب من جوانب الطريق المؤدّي إليها مجموعات من المراعي وبساتين الفاكهة المختلفة.

وقد أصرّ الحاكم المحلي على نزولنا في بيته، جلسنا تحت ظلال الأشجار العالية القريبة من نبع ماءٍ سلسبيل، وقدّم لنا وجبة إفطار شهية.

يمرّ بالقرية جدولٌ مائي، ينبع من بحيرة صغيرة تقع في الجبال التي تطلّ على القرية، ويسقي الفلّاحون مزارعهم منه، وأثناء مسارها القصير إلى بحيرة وان تقوم بإدارة عددٍ من طواحين الماء المتناثرة هناك.

عندما وصلت حقائبنا تمّ إرسالها إلى منزل رجل تركي من الشخصيات الرئيسية في القرية، وسرعان ما نُصبت خيامنا في مزرعة للفاكهة على مربع أخضر، وتعلوها أشجار الفاكهة الجميلة، ولكنّنا لم نستمتع كثيرًا، حيث كان الفناء صغيرًا، وأسواره تعوق حركة الهواء، فرغم أنّنا كنّا في الظلّ إلّا أننا شعرنا بحرارة كبيرة.

في المساء زارني الحاكمُ المحليّ ليرحّب بنا، فقد كان حقًّا رجلًا متحضرًا، وترك في نفسي انطباعًا راقيًا، فقد وقف على راحتنا ولبّى كلّ احتياجاتنا.

يسكن في القرية ٢٥٠ عائلة من المسلمين، ٣٠ عائلة من الأرمن، وتضمّ القرية قلعةً قديمة متهدّمة، مُقامة فوق صخرة عالية في أعلى البلدة، يحيطها أسوار متّحدة مع حصن القلعة في كلتا النّهايتين، ومنحدرة بشكلٍ مباشر إلى البحيرة.

لا يوجد في البلدة أيّ موقع دفاعي في تلك الناحية، ولكن عمق الماء لا يسمح لأيّ شخص بالتسلّل حول الأسوار التي تنتهي عند البحيرة، وهذه الأسوار في حاجة شديدةٍ للتّرميم والصّيانة في وقت قريب، أمّا البوابات فهي عامل مهمّ في صدّ الغزاة.

هذه القرية ليست كبيرة، وجميعُ بيوتها تحتاج للصّيانة، ومعظم سكانها يقيمون في منازل منفصلة بين الحدائق الغنّاء التي يكتظ بها الوادي، والصخور جيرية، والماء عذبٌ ومتوافر بغزارة، ويجري من خلال الممرّات الضيقة ليسقي تلك الحدائق.

ويتوفّر في هذه القرية الكثيرُ من أنواع الفاكهة المحلية، وهناك ازدهار كبير في زراعة الرقي والبطيخ والأعناب هنا، وباختصار إنّ هذه القصبة هي مكان جميل وبهيج وممتع.

ويوجد هنا حوالي ٢٠ نولًا للغزل تنتج الأقمشة القطنية الخشنة من النوع العادي، ويعمل بعضُ الأرمن والأتراك كنسّاجين وحائكين.

الثّلاثون من يوليو/ تموز، ١٨٣٨

كما أخبرتكم من قبل أنّ بعض مرافقيّ قد أصيبوا بالمرض، ولهذا قرّرت الإقامة هنا لبضعة أيام، وهكذا أيضًا يُمكنني أنْ أحظى بارتقاء سلسلة جبال سيبان داغ.

بينما كان أصحابي مشغولين في بعض الشئون، قرّرت زيارة أخلاط التي تبعد عن هنا بمسافة ١٤ أو ١٦ ميلًا، عبر الطريق الواسع الذي يمرّ بجوار سواحل البحيرة.

أصطحبُ معي بعضَ المرافقين إلى جانب الدليل، وانطلقنا في الصباح الباكر، عبَرنا القصبة، ثمّ واصلنا تحرّكنا على طول حافّة الماء، ثمّ اخترقنا قرية صغيرة تبعد عن قصبة عادل جيفاز بمسافة ميل، وتقع بين بساتين الفاكهة، ثمّ صعدنا ممرًّا صخريًّا شديدَ الانحدار، ثمّ سرْنا تحت منحدرٍ صخري شديد الانجراف، في مكان عالٍ للغاية عن مستوى سطح البحيرة، كلّ الصخور هنا جيرية، وبعد مسير ساعة تراجعت السّلسلة الجبلية عن البحيرة لندخل سهلًا انحسرت فيه الصخور الجيرية لتتبعها تربة أرجوانية اللون داكنة، أعقبتها كتلٌ مختلطة العناصر.

كانت هذه الكتلُ تصغر كلّما تقدّمنا بالمسير، واستمرّ هذا الوضع حتّى قبل وصولنا أخلاط بمسافة قصيرة، فوجدناها تحوّلت إلى أحجار رملية قمحية اللون، وبعد أنْ قطعنا السّهل السّابق ذكره، واصلنا سيرنا في محاذاة السلسلة الجبلية المتاخمة للبحيرة.

وخلال ثلاث ساعات قطعنا سهلًا واسعًا آخرَ يضمّ قريتين محاطتين بسلسلة جميلة من أشجار الجوز والفاكهة، ثمّ وصلنا:

مدينة أخلاط القديمة:

اجتزنا مجموعةً أخرى من الحدائق لندخل المدينة بدلًا من سلوك طريق السّاحل، وظللنا نسير على أرض هضبة صعودًا لزيارة المدينة القديمة، وفي طريقنا مررنا بمقبرة إسلامية، وكثيرة الشبه بالمقابر التي شاهدناها في باقي أجزاء تركيا مثل فاستان، أرضروم، قيصري، وقد كانت مبنيّة من الحجر الرملي الذي يبدو أنّه يستطيع مقاومة عوامل الطّبيعة، وهذا يبدو واضحًا من خلال الكتابة الموجودة على شواهدها، والتي تبدو وكأنّها مكتوبة من جديد.

يوجد عددٌ كبير من القبور المتشابهة متناثرة بين الحدائق والأكواخ والبيوت والحقول، يرتفع فوق بعضها طبقات صغيرة.

وفي بطن الوادي لا تزال آثارُ المدينة القديمة شاخصة للأبصار، وفي وسط الوادي توجد صخرة مبنيّة ضخمة مثل تلك الصخرة التي ذكرناها في قلعة بتليس، وعليها مجموعة من الأسس قويّة البناء، وهناك احتمال أن تكون عبارة عن أسس قلعةٍ أو قصر ضخم جدًّا، ويوجد بين طبقاتها الكلس الذي يقوم بدور الأسمنت لتماسك البناء.

وشاهدت ضريحًا كبيرًا متآكلًا على الطرف المقابل للوادي، وقد سمعت أنّه ضريحُ أمير المنطقة السابق، وعلى ذلك الجانب يوجد مدفن فسيح وكبير جدًّا.

بعضُ شواهد هذه القبور كانت ضخمةً بحيث وصل ارتفاعها إلى ١٢ قدمًا، ويوجد أيضًا عدّة مدافن أخرى، وهذا يدلّ على كثرة نفوس المدينة.

أمّا الكتابة التي كانت على شواهد القبور والأبنية الأخرى، فبعضها كان بالعربية والبعض الآخر بالتركية.

وبالنّظر لتلك الشّواهد يمكن جمع معلومات كثيرة عن تاريخ المكان.

أمّا المعلومات التي حصلت عليها من النّاس هناك أنّ مدينة أخلاط القديمة كانت عاصمةً لملك قديم، ويقال إنّها قد تكون حوصرت في القرن الرابع عشر من قِبَل تيمور لنك.

مدينة أخلاط الجديدة:

تركْنا تلك الأنقاض والخرائب واتّجهنا نحْو أخلاط الجديدة، ودخلناها من جهة الغرب لنخرج من بوابتها الشرقية.

المدينة مُحاطة بسورٍ مزدوج وخندق، السّور الثاني تعلوه بعض الأبراج غير منتظمة البناء، وفي نهايتها العليا توجد قلعة تسمّى إيج قلعة؛ أي القلعة الداخلية.

المدينة مُحاطة بسور من جهاتها الأربعة، حتّى من الجهة المقابلة للبحيرة، وتستمرّ هذه الأسوار حتّى تصل إلى حدود البحيرة.

منازل المدينة مشيّدة من الصخور المربعة التي استعمل بين طبقاتها الطين لتتماسك، وطرازها شديد الشّبه بطراز بيوت بتليس.

وهذه المدينة الجديدة بكلّ تأكيد عبارة عن تحفةٍ فنيّة، ويمكن رؤية ذلك من طرزِ بيوتها وطبيعة التّحصينات الدفاعية وصيغ الاحتراز الذاتي من هجوم الأعداء، ولكنّ الغريب في الأمر أنّني لم ألتقِ بأيّ كائن حيّ خلال مروري من ذلك المكان.

ذهبنا لنستريح ونريح دوابّنا في أحد بساتين الفاكهة المطلة على البحيرة، وتبعنا إلى هناك ابن الحاكم المحلّي للمدينة، وأخبرني أنّ والده غائبًا عن المدينة في هذه الفترة.

لقد سبق أنِ التقيت بهذا الصّبي في موش، وقد كان قد بعث لوالده برسالة عاجلة، وقد كان حينها في زيارةٍ لإحدى القرى القريبة ليخبره بوصولي إلى أخلاط،

وفي هذا الوقت قدّم لنا وجبةَ إفطار شهية، وحصلنا من البستان الذي نستريح فيه على كمّيات كبيرة من الكمثرى والرقي والبطيخ.

استرحنا لمدّة ساعتين، وعندما كنّا نهمّ بمغادرة المكان، وصل حاكم المدينة المسمّى شيخ (هيلفة Helva) وهو مرتبط بأسعد باشا؛ باشا أرضروم، وعندما قابلته تذكّر أنّه رآني في قصر الباشا، وقد عيّنه أسعد باشا نائبًا لحسين باشا عندما عيّن باشا على باشوية موش، وعندما خلع حسين باشا من منصبه، أرسل شيخ هيلفه إلى مسقط رأسه أخلاط ليصبح حاكماً عليها.

وقد ورث لقب شيخ من والده الذي كان رئيسًا لطريقة صوفية تتبعها مجموعة كبيرة من الدراويش والمريدين.

لقد عرض عليّ الحاكم أنْ أبقى هنا لليلةٍ واحدة، ولكنني اعتذرت منه لأنّي قد وعدتُ رفقائي أنْ أعود إلى قرية عادل جيفاز، عندما قابلت الحاكم كان معه شابان كرديّان يدْعيان محمود بيك ومصطفى بيك، وهما من أبناء أحمد باشا؛ الباشا السابق لموش، وهما من أبناء عمومة أمين باشا؛ الباشا الحالي لمدينة موش.

وهُما يعيشان بجوار أخلاط، ويمتلكون أراض زراعية واسعة، ومجموعة كبيرة من القرى، وكلاهما يمتاز بالوسامة والشّباب النّدي، ويتأنقان بالزي الكردي، وكلّ واحدٍ منهما يمتطي مهرةً جميلة غالية الثّمن مكسوّة بسرج مزركش فاخر باهظ الثمن.

وبصحبة كلّ منهما مجموعةٌ كبيرة من الفرسان والمرافقين المسلحين تسليحًا جيدًا للغاية، محمود بيك هو الأخ الأكبر، ويمتلك شخصية ساحرة جذّابة، وملامحه وسيمة، وسلوكياته تدلّ على طباع جيدة وتربية صالحة. ولكنني سمعت بعض الأقاويل الآثمة التي تدّعي أنّه سفاح أثيم.

أمّا الأخ الأصغر مصطفى بيك، فهو على عكس أخيه الأكبر؛ فهو دائمُ التجهّم، ولكنّني سمعت عنه أنّه يمتلك احترامًا أكبر في نفوس مَن يعرفونه عن أخيه محمد بيك، وعلمت أيضًا أنّه قد كان متزوجًا فيما مضى بشقيقة إسحق باشا إلّا أنها قد توفّيت في أوّل صباها.

وسمعت أنّ محمد بيك ومجموعة من رجاله قد هاجموا قافلة تتكون من ١٨ أو ٢٠ شخصًا أثناء نقلهم لكنز ثمين، فشتّتوهم في كلّ جانب، واستولوا على الكنز لأنفسهم، وقد حدثت هذه الواقعة منذ أربع سنوات.

وعندما سمع أسعد باشا بهذه الحادثة وبغيرها من الحوادث المشينة طلب من إسحق باشا أن يلقي القبضَ عليه، ويرسله إلى باشويته في أرضروم، ولكن عندما وصلَ هذا الخبر إلى أسماع محمد بيك فرّ مسرعًا إلى بغداد، وظلّ بها حتّى أقيل أسعد باشا من باشوية أرضروم، ومنذ هذا الوقت لم يتحرّش به أحد، ولكنه لم يتجرأ على الذّهاب إلى مراكز المدن الكبرى.

لقد ورث هذان الأخوان أملاكًا كثيرة وأموالًا طائلة، ولكنّهما أنفقًا جزءًا كبيرًا منها في تجهيز وإعداد مجموعةٍ كبيرة من الأتباع المسلحين الأشداء المخلصين لهما.

تبعدُ مدينة أخلاط عن تادفان مسافة أربعِ ساعات كاملة سيرًا، وعن بتليس مسافة ثمان ساعات سيرًا، وعن موش مسافةَ ستّ عشرة ساعة، وعن ملازكرد مسافة اثنتا عشرة ساعة.

عدتُ إلى قرية عادل جيفاز من الطريق العام المؤدّي إلى كلّ تلك الأماكن على حافّة البحيرة، يقوم الناس هنا بممارسة الزراعة الأخدودية.

والتّربة هنا خصبة جدًّا، وتبدو للنّاظر على أنّها جافة أو مسفوعة بالحرارة، ولكنّها تكون رطبة جدًّا في عمق أخاديدها المعمولة بآلة خاصة.

الحادي والثلاثون من يوليو، عام ١٨٣٨

غادرنا قرية عادل جيفاز قبل حلول المساء متّجهين إلى قرية نورشنجك norshunjuk التي تقع على أعتاب جبل سيبان داغ، ونوينا أنْ نبقى بها الليلة حتّى يتوفّر لنا الوقت لصعود الجبل.

وصلْنا القرية بعد أن أصبحت السّماء حالكة، وبمجرد تأمين مكان لإقامتنا أقمنا خيامنا وغفونا بسرعة، ولكنّنا استيقظنا بسرعة أيضًا بسبب الحشرات التي أزعجتنا ومنعتنا من الاستمتاع بنوم عميق، ولهذا استيقظنا قبل الفجر.

ولم يكنْ هذا السّبب الوحيد في إزعاجنا؛ بل لأنّنا لم نحصل من هذه القرية البائسة على فنجان قهوة واحد.

في تمام السّاعة الخامسة وعشر دقائق فجرًا بدأنا في الصعود، وكان معنا اثنان من الفرسان الكرد كأدلّاء لنا، في البداية سلكنا اتجاهًا شرقيًّا عبر أعتاب الجبل، وبعدَ مسيرة ساعة غيّرنا مسارنا باتجاه الشمال، وفي أعلى الجانب المنحدر تلّ مخروطي الشّكل، ويبدو من كلّ معالمه أنّه فوّهة بركان خامد، وقبل أن نصل إلى قمّته انحرفنا نحْو فراغ يقع بينهما وبين الجزء الرئيسي من الجبل.

ثمّ مررنا من فوق عدّة طبقات من الجليد الصلب لدرجة أننا عبرناها ونحن على ظهور الجياد، وأخيرًا توقّفنا عند حافة البركان، والتي لا تستطيع الخيول أنْ تصل لأيّ بقعة تقع خلفها.

إنّ الوصول إلى هذا المكان استغرق منّا ثلاث ساعات ونصف، وفي الجهة المقابلة لنا كان يوجد مخروط آخر، ويبدو كأنّه مفرزة من مفرزات البركان الخامد.

وصلنا إلى ذلك المخروط عن طريق سلوك حافّة البركان لأننا لو هبطنا إليه لازدادَ ذلك في علوّ مسيرة ما بعد الصعود كثيرًا. وإذا أردنا الوصول إلى قاعدة الهرم عن طريق الممرّ الذي سلكناه فإنّ الهبوط كان سيكون صعبًا أيضًا.

إنّ هذا المخروط ناشئ من شظايا صخور في أحجام مختلفة غير متماسكة عن طريق الأتربة، ولكنّها متناثرة بشكلٍ مفكّك على هيئة أكوام. والصخور كلّها من نوعٍ واحد، إمّا رمادية أو حمراء باهتةً اللون، ولكنّها تلمع بشكل ملفت للنظر.

وعند المشي فوقها فإنّ هذه الصّخور تتحرّك من مكانها، وتحدث قعقعة أشبه بما تحدثُه نفايات المعادن، ويوجد بعضُ القطع الكريستاليّة اللامعة العالقة في سطوح الصّخور، ويبدو أنّها بعد أن تكلّست بسبب النّار الموجودة تحت الأرض، فإنّ الأجزاء المشكلة للمخروط قد ارتفعتْ بشكل إيقاعي أو انتفخت بفعل نفس القوة.

إنّ الصّعود إلى هذه القمّة كان من أصعب المحاولات التي قمنا بها منذ أوّل رحلتنا، وهذا ليس بسبب وعورة المنطقة والانحدار الشديد؛ ولكن بسبب عامل الضغط الغازي على صدورنا؛ لأنّنا لم نكن نستطيع أنْ نصعد خمس أو ستّ خطوات بدون التوقّف للاستراحة.

إنّ قمّة هذا المخروط منبسطة ومُحاطة بسلسلة من القمم المتعدّدة، التي تشكّل نوعًا من الأسوار، وكلّ جزءٍ منها كان من نفس الحجر الهشّ، ولم أرَ غير قطعة واحدة من الصّخر من نوع مختلف، وأعتقد أنّها كانت صخرة قبل تعرّضها للنار.

صعدنا إلى القمّة الخارجية للمخروط، وهي واحدة من أعلى القمم المطلة على بحيرة وان، وقد استغرقت المسافة من موضع نزولنا من على صهوات خيولنا إلى هنا أربع ساعات كاملة.

لقد ثبتَ هنا آلة قياس الزّوايا والاتجاه، ومن هنا استطعنا ملاحظة أن صعودنا المنحدر كان من جهة البركان.

إنّ التجويف الموجود في القمّة كان عبارة عن بحيرة صغيرة تسمّى Aghri Go أي البركة المؤلمة أو الضارة.

أمعنتُ النّظر نحْو الجنوب من موقعنا فرأيتُ حقلًا جليديًّا ممتدًّا يغطي أسفل المخروط الجبلي، أمّا القسم الموجود بين الموضع الذي تركنا فيه خيولنا، وبين مكاننا الحالي فإنّ الثلوج قد ذابت وشكّلت بركة ماء كبيرة، وفي الصباح كانت هذه المنطقة كتلةً جليدية صلدة، ولكنّها الآن ذابت بسبب حرارة الشمس القوية، وأصبحت هذا أيضًا بركة ماء كبيرة.

أخبرني الأولادُ الكرد أنّ دودة الثلوج موجودة هنا، ولهذا نزل أحدهم إلى البحيرة للبحث عنها، ولكن دون جدوى.

ولم تكنْ هذه أوّل مرّة يخبرني فيها أحدهم عنها، فقد سمعت عنها في أماكن كثيرة، ولكن يبدو أنّها مجرّد أقاويل فقط، ولا دليل عليها.

ومن قمّة هذا الجبل شاهدنا بحيرة إيرجيك شرقي وان، والبحيرة المسماة نازوك غرب أخلاط، وبحيرة صغيرة أخرى أبعد، بالإضافة إلى بحيرة أخرى أبعد قليلًا ينبع منها الجدولُ الذي يسقي قصبة عادل جيفاز، ورأينا أيضًا قمتي جبل آرارات التي كانت واضحة وضوح الشمس، وكذلك سلسلة جبل بيكوك داغ، وأيضًا القمة المخروطية الشّكل لجبال كوسيه داغ التي تتربع عليها نوبراك قلعة في سهل آريشي كرد.

شعرْنا جميعًا بالضّيق والاختناق جراء هذا الصعود، وأخبرني الأولاد الكرد أنّ كلّ مَن يصعد هذه القمّة يشعر بهذا الضيق، ويرجع هذا إلى ثقل الهواء.

وقد عانى بعضُ رفقائي بسبب هذا الصعود، فالدكتور ديكسون كان يعاني بشدّة من آلام في معدته، ومستر كلاسكوت كان مرهقًا، ويعاني من دوار شديد؛ لدرجةِ أنّه كان يترك عمله في تحديد الارتفاع والاتجاهات كلّ بضع دقائق، ويذهب للاستراحة.

أمّا أنا فقد عانيت من صداع شديد، وكذلك اثنان من مرافقينا الذين لم يستطيعا السّير خطوة واحدة بعد وصولنا هذا السفح المخروطي.

وهناك واحدٌ من مرافقينا صعدَ إلى القمّة، ثمّ نزل بسرعة، ولكنه بعد وصوله إلى أعتاب الجبل تقيّأ بعنف، وحتى الأشخاص الذين بقوا برفقة الخيول ولم يصعدوا عانوا من آلام شديدة في الرأس.

ولا يمكن حدوثُ هذا بسبب ارتفاع الجبل فقط، ولكنّه ربّما حدث بسبب تسرب غازٍ ما من فوّهة البركان، ولكننا لم نشعر بهذا الشيء بحواسنا.

عندما صعدنا القمّة أدركنا أنّ الزئبق الذي كان بالبارميتر قد تسرّب تدريجيًّا من فوّهة الأنبوبة، وقد كنّا نأمل أنْ يبقى به القليل الذي يساعدنا على معرفة ارتفاع القمّة، ولكن نتيجة دخول الهواء إلى الأنبوبة سلبنا هذا الأمل نهائيًّا.

إنّ عمود الزئبق فيه انخفضَ إلى أسفل من ٢٠ بوصة، ولكنّه أكّد لنا أنّ بحيرة وان تعلو ٥٤٦٧ قدمًا عن مستوى سطح البحر الأسود، ومن الواضح أنّنا لم نستطع الوصول إلى حدود الثلج السرمدية.

ولكنّها كانت تتجمّد كلّ ليلة، ومن المؤكّد أنّنا لم نكن بعيدين عن تحت خطّ التجمّد، وفي منتصف النّهار توقّف مؤشّر الحرارة على درجة ٤٨ درجة مئوية، بينما كان حوالي ٨٠ درجة في إيلجيفاز.

كميّات كبيرة من الثلج بقيتْ في أماكنَ مختلفة بالقرب من القمة، غير أنّ القمم العالية جدًّا خاليةٌ منها، ولم تكن هناك أيّة ثلوج على سفوح الجبال، بعد أن أخذت كلّ هذه الأمور بعين الاعتبار، قدّرت ارتفاع القمة بين ٤٠٠٠ أو ٤٥٠٠ قدمٍ من مستوى سطح بحيرة وان، وقدّرتها بـ٩٥٠٠ أو١٠٠٠٠ قدم من مستوى سطح البحر.

وقد علمتُ أنّ الصّعود إلى هذه القمّة مُمكن فقط في الفترة ما بين منتصف أغسطس إلى الأسبوع الأوّل من سبتمبر، أي أنّنا إذا أخّرنا زيارتنا إلى هنا قليلًا لما تمكّنا من الصعود إلى القمة.

وفي الحقيقة أنّه في الرّابع عشر من سبتمبر، وأثناء مرورنا بسهل آريش كيرد، شاهدنا قمّة جبل سيبان داغ مغطاة بالثلوج تمامًا.

نماذجُ الصّخور التي جمعتها من هنا تثبتُ أنّ هذا الجبل ذو طبيعة بركانية، ولكن لا يوجد أيّ إشارة أو معتقد يشير إلى نشاطه البركاني.

كما أنّني لم أرَ أيّ آثار للزجاج البركاني الأسود هنا، ولكنه موجود بكثرة على سواحل بحيرة وان، كما أخبرتكم سابقًا، ولكنّني وجدت هنا الكثير من الصخور البازلتية وخبثَ وبقايا البراكين، ويبدو أنّ البركان قد انفجر من أماكن عديدة، وقرب قمّة جبل سبحان، وهي إحدى المفردات التي تذكَر مع ذكْر اسم الله.

وقد علمتُ أنّ هناك الكثير من المعتقدات الفولكلورية التي تتعلق بهذا الجبل، ولكنّها مثل الأساطير الشرقية التي لا دليل على صحتها.

وبعد ساعة ونصف من هبوطنا هذه القمّة المتعِبة وصلنا إلى المكان الذي ربطنا به خيولنا، استرحنا قليلًا، ثمّ امتطينا صهوات الخيول، وبعد حوالي ساعتين هبطنا نحْو نورشنجك، ثمّ انطلقنا عائدين إلى إيل جيفاز في زمن لا يتعدى الساعتين إلّا الربع، وبمجرّد وصولنا إلى أعتاب الجبل رجعت أحوالنا إلى سابق عهدها، وزالت عنّا حالات ضيق النفس والإعياء.

لقد لاحظت أنّه لا توجد أشجارٌ على سفوح جبل سيبان داغ، ولا حتّى شجيرة صغيرة، وبالرّغم من وجود بعض المراعي هنا إلّا أنّنا لم نرَ أي قطعان فيها، أو في الطّريق إليها، ولم نرَ أيضًا أيّ آثار لوجود خيام هنا.

لقد أصبنا جميعًا بالإرهاقِ الشّديد بسبب الجهد الذي بذلناه، كما أننا نادرًا ما كنّا نأكل منذ أنْ غادرنا إيل جيفاز، مع أنّنا كنّا نحمل بعض الخبز واللحم المقدد، إلّا أنّنا لم تكنْ لديْنا شهيّة حتّى لنتذوّق الطعام، فلم نأكل أيّ شيء.

في تمام السّاعة السابعة صباحًا غادرنا إيل جيفاز بعد أن جمعنا بعض المعلومات عن القرية، وعن الحدائق المحيطة بها، والتي تكسو بخضرتها معظم مساحات قاعدة جبل سيبان داغ.

على بُعد مسافة قصيرة من البحيرة التي طفنا حول سواحلها المتعرجة على طريق إيل جيفاز، وفي الطّريق مررنا ببقايا كنيسة أرمنية عتيقة، وتوجد أمامها مقبرة كبيرة وكنيسة متهدّمة، وعلى يميننا على بُعد ثلاثة أميال كانت قرية آرين، والبحيرة التي بجوارها، ثمّ هبطنا إلى بحيرة وان في نفس المكان الذي غادرناه عند وصولنا إلى قرية آرين، ثمّ استدرْنا من هناك، وسرْنا باتجاه التلال الواقعة على جهة اليسار، ورأيْنا على مدّ البصر قرية نورشين، وفي تمام السّاعة الثانية والنصف بعد الظهر وصلنا إلى:

قرية كوجيه:

تقعُ هذه القرية بين التّلال، والطقسُ بها شديد الحرارة، أمّا المسافة التي قطعناها في تقديري كانت حوالي ١٨ إلى ٢٠ ميلًا، وتحتوي هذه القرية على ١٠ أسرٍ من الأرمن، وتؤوي ١٢ أسرة من الكرد في موسم الشتاء.

إنّ الصّخرة الرئيسية التي ذكرتها عند أعتاب جبل سيان داغ كانت من النوع البازلتي والرّخامي السماقي، مثل ذلك النوع الذي شاهدناه في قمة الجبل، والتربة رمليّة هشّة، وعلى الطّريق شاهدنا اثنين من الفرسان الكرد، ومعهم بعض عدد الحصاد، وعندما رأوا ركْبَنا توقّفوا لبعض الوقت، ثمّ واصلوا السير في طريقهم.

الرّابع من آب/ أغسطس، عام ١٨٣٨

سرْنا باتجاه خيام سلطان أغا التي لم تكنْ تبعد عنّا مسافة طويلة، ولهذا لم نبدأ مسيرَنا في وقتٍ مبكّر، ولكنّنا بدأنا المسير في الساعة السابعة والنصف صباحًا لنصلَ المكان الذي سنعسكر فيه قبل الساعة التاسعة صباحًا بفترة قصيرة.

مررْنا بقرية صغيرة تسمّى اربوزونك، وتقع هذه القرية في بقعة واسعة من الأرض، ثمّ واصلنا سيْرنا عبر أراضٍ متموّجة لنصل خيام الرئيس الكردي الذي يُعسكر في مرج أخضر بين التلال.

استقبلنا سلطان أغا في خيمة استقبال ذات موقدٍ واحد على الطراز التركي، كان قد أهداها له باشا ولاية أرضروم.

أمّا الخيمة التي خصّصت لحريمه فقد كانت تبعد عن هذه الخيمة بمسافة قصيرة، وكانت مصنّعة من شعر الماعز، وكانت سوداء كبيرة من الطراز التقليدي.

وقد لاحظتُ وجود ١٠ خيام أخرى في هذا الوادي، ولكنني أصبت بخيبة أمل كبيرة عندما رأيت رئيسَ العشيرة الكردية التي تشتهر بقوّتها يعامَل بقلّة عناية ورعاية، الأعشاب الآن جافّة، ولكنّها تزدهر في فصل الربيع. ويوجد هنا مصادر غزيرة للمياه تقع بالقرب من هذا المكان.

بعد أن استقبلني سلطان أغا قدّم لي القهوة والشربات، وخلال هذا كان رجالنا يقومون بنصْب الخيام بالقرب من خيمة رئيس العشيرة، وبعد قليل وصلنا الإفطار الشّهي، الذي يتكوّن من بيض مقلي، حليب، اللبن، الخبز، وجميع هذه المكونات كانت من النوع الجيد.

وفي المساء زارني سلطان أغا، ورغم أنّه كان رجلًا كثير الكلام إلّا أنني وجدته ودودًا ولطيفًا، ولاحظت أنّه أكثرُ بهجة وسعادة ممّا كان حين رأيته في وان.

سألت سلطان أغا عن مسألة انقسام عشيرة حيدرانلي إلى قسمين فقال:

إنّ الجزء الثّاني من عشيرة حيدرانلي يسكن الأراضي الإيرانية حاليًا، وقد منحهم محافظُ أذربيجان أراضٍ واسعة للسكن والزراعة. وبسب الحرب التي قامت مؤخرًا بين إيران وتركيا؛ فقدْ اعترف السّلطان العثماني رسميًّا بأنّ صيرورة هذه العشيرة أصبحت من نصيب الطرف الإيراني.

ويرأس هذا القسم المقيم في إيران شقيق سلطان أغا المسمى قاسم أغا، وبعد وفاته تولّى ابنه رئاسة العشيرة، وهكذا يكون الحال عندما يتوفّى رئيس العشيرة، فيقوم كبارُ رجالات العشيرة باختيار خلفه، وغالبًا ما يكون هذا الخلف من عائلة الرئيس السّابق، سواء كان ابنه أو عمّه أو أخاه.

وفي الحقيقة إنّ أيّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة مشهود له بالكفاءة والشجاعة والحكمة في نظر الرأي العام.

وبهذا يصبح الخلفُ العتيد الذي يتولّى تسيير أمور العشيرة، وإذا كان لا يتمتع بالقوّة الكافية لإدارته، فهذه ليس مشكلة، فرغم أنّه سيكون رئيسًا لمجلس كبار رجالات العشيرة، إلّا أنه لا يستطيع أنْ يتّخذ أيّ قرار ذي أهمية بدون موافقتهم.

لقد علمت أنّ سلطان أغا ليس غنيًا، كما أنّه ليس أكثر مكانة وأهمية من أي وجيه من وجهاء العشيرة الآخرين، وعند تقديم الهدايا إلى الولاة والمسئولين يجتمع وجهاء العشيرة للتداول في اختيار الأشياء التي يمكن أن تقدّم في تلك المناسبة، ثمّ تثمّن الأشياء المختارة، وتودَع لدى أشخاص لحملها إلى الرجل المقصود. ويصاحب هؤلاء الأشخاص حماية عسكرية قويّة، مكوّنة من أفراد من كلّ بطون العشيرة.

لم أسأل سلطان أغا عن عدد أفراد عشيرته، ولا عن قوّتها؛ لأنني أعلم جيدًا أنّه لا يمكن الاعتماد على التّقارير الصادرة من أفواه الرؤساء، ولكن أحد أفراد فريقي

سأله عمّا إذا كان عددُ الخيام التي يرأسها هي ألفي خيمة، فأجابه بالإيجاب، ولكنني علمتُ من مصادر مختلفة أنّ قوّته تقدر بـ ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ فارس، وأخبرني آخرون بأنّ هناك أكثرَ من ألفي فارس يعملون تحت إمرته، ولهذا فأنا غير متأكّد من هذه المعلومات، وعندما طلبتُ من سلطان آغا أنْ أرى القسم الداخلي لخيمته الخاصة، اعتذرَ منّي وأخبرني أنّهم لا يسمحون للغرباء بدخول مخادعهم الخاصّة.

فقلت له: لقد كنت أعتقد أنّ الكرد لا يخفون نساءهم كما يفعل الأتراك، فقال: إنّنا لا نسمح بظهور نسائنا على الملأ.

وأعتقدُ أنّ هناك شيئًا من الغموض حول نساء الكرد، ولكن هذه التقاليد لا تنطبقُ على النساء الأدنى منزلة، حيث أنّهم يتمتّعون بحرية تامة.

واسترسلت في أسئلتي قائلًا: هل علاقة عشيرتك جيدة مع عشيرة حسن علي؟، وهي عشيرة تقطن ولاية موش.

فأجاب قائلًا: لقد قُتل اثنان من أفراد عشيرتي برصاص أفراد من تلك العشيرة، وعندما عرضت هذه المشكلة على الباشا في أرضروم فطرحها بدوْره على أمين باشا في موش، ولكنّني لم أتلقَّ أي أجوبة مطمئنة حتّى الآن.

كما قال أيضًا: أنا أعتقد أنّ العدالة الوحيدة التي يمكن تحقيقها في هذه المشكلة هي قتل اثنين من عشيرة حسن علي.

ولكنّني لم أتّفق معه في هذا الأمر؛ لأنّ هذا لن يكون حلًّا للمشكلة؛ بل سيكون بمثابة نزاعٍ جديد، وبداية لمشاكل جمّة ستقع على عاتق العشيرتين معًا.

وأضافَ سلطان أغا أنّ عشيرته تقيم في الشتاء في قرية مع الأرمن، ولكنهم يجهزون التّبن والعلف لأغنامهم ومواشيهم. وإنْ زوّدهم القرويون الأرمن بتلك الأشياء، فذلك يكون مقابلَ مبلغٍ من المال يتّفق عليه الطرفان.

وقال لي أيضًا: أنا لا أدفع لباشا أرضروم ضريبة القشلة، أي السكن الشتوي في قرى ثابتة، ولكنّني أقدّم له كلّ عام هدايا ذات قيمة.

وأعتقد أنّ هذه محاولة للمراوغة من الأغا ليقول إنّه لا يدفع الضريبة، وربما لا يحبّ الإقرار بهذا الأمر.

وقد سألت الأغا قائلًا: كيف يسمح الكرد لأنفسهم وهم الذين يعيشون في الهواء الطّلق والمناظر الخلابة، والطبيعة الساحرة؛ بدفن أنفسهم في بيوت أرمنية ضيقة وقذرة وكثيرة الشّبه بالاصطبلات؟!

فأجابني قائلًا: إنّ هذا الأمر غير مقبول ومؤلم بالنسبة لنا، وهذه المنازل لا تكونَ لنا إلّا مجرّد سجون كبيرة نقضى بها الفترة الشتوية.

ثمّ سألته مرّة ثانية قائلًا: إذًا.. لماذا لا يبنون لأنفسهم منازل واسعة في قرى منتظمة؟

فأجابني قائلًا: إنّنا لا نفهم بناء البيوت، ولا نميل إلى الإقامة بها. كما أنّ كلّا من عشيرتي زبيكي وحيدرانلي الكرديتين قد أبعدتا عنوةً من هنا إلى بلاد فارس بالرّغم من عدم رغبتهما في مغادرة المنطقة التابعة حاليًا لسلطان أغا.

وأضاف قائلًا: إنّ وفرة المراعي وكثرة الأراضي الزراعية ووفرة المياه هنا هي ما تجعل الكرد يتمسّكون بمنطقتهم بشدّة. ولكنْ نظرًا لاعتدال الشتاء هناك، فقد وجدتْ هاتان العشيرتان بعضَ التّرضية.

وقد علمتُ أنّ سلطان أغا يعتبر المسئول الأوّل عن أيّ تجاوزات للأمن والنّظام في هذا الجزء من القطر أو في الأراضي التي ترعى فيها عشيرته.

فمثلًا عندما سطا بعضُ أكراد عشيرة ريفان قبل فترة على قرية بالقرب من أخلاط، قام سلطان أغا بتعقّبهم واسترداد المسروقات من الغزاة وأعادها إلى أصحابها.

وخلالَ هذا الصيف اختفى ١٦ شخصًا من أهالي وان، وقد كانوا في طريق عودتهم من القسطنطينية، ووصلت إليه أخبارٌ بأنّهم قد شوهدوا لآخر مرّة في قرية بالقرب من خينيس قبل اختفائهم مباشرة.

ومِن بعد هذه القرية لم يرهم أو يسمعْ بهم أحد، ولم يعثر على أيّ أثر لهم أو لخيولهم وممتلكاتهم، فهبّ جميع المسئولين للبحث عنهم بدءًا من إسحق باشا، وحتى الحكّام المحليّين إلى جانب سلطان أغا، ولكنهم لم يصلوا إلى أيّ دليل.

وبدأت الاعتقادات والافتراضات تسود أفكارهم، فالبعض يقول ربما أخذوا عنوة تحت التهديد إلى ما وراء حدود روسيا أو إيران من قبل بعض أكراد تلك المنطقتين، وهناك سرقوهم.

وقال سلطان أغا: من المعروف أنّ هؤلاء الأشخاص كانوا محملين بأموال طائلة إلى جانب ما أحضروه معهم من القسطنطينية من أموالهم الخاصة، وقد سلّمهم الكثير من أهالي أرضروم مظاريف تحتوي على مبالغ كبيرة ليقوموا بتوصيلها إلى ذويهم، عند عودتهم إلى وان، آملين أن تصل قافلة مكوّنة من ١٦ شخصًا بأمان مع المال إلى وان.

وحتّى في قطر قليلِ السّكان مثل هذا المكان يمكن أن تثير هذه الحادثة دهشتهم وتعجّبهم حول اختفاءَ هذا العدد الكبير من الرجال دون ترك أيّ أثر يمكن من خلاله اقتفاء أثرهم أو البحث عنهم.

ولم يكنْ من المعتاد أنْ يحتفظ سلطان أغا بحرس قرب خيمته إلّا في حالات التوجّس من هجوم محتمل لقبيلة معادية.

وهذه القبائل لا تحتفظ بخيام عديدة في مكان واحد، فيجب أن تكون هناك خمسُ أو عشْر خيام تعسكر في منطقةٍ واحدة معًا، وخمس أو عشر خيام أخرى تعسكرُ في أسفل المكان بين التلال المجاورة بقدر ما تكفي بقعة المرعى لحيواناتهم.

ففي موسم الرّبيع يرعون دوابهم في الأراضي المنخفضة، ثمّ يصعدون بها باتّجاه الجبال العالية. وعندما يوشك هذا الموسم على الانتهاء تستهلك المراعي المنخفضة، وتعودُ تلك الأسر من الأراضي المرتفعة شيئًا فشيئا عندما يزداد البرد ويجبرهم على النزول إلى بطون الوديان.

وعندما يعلمون باقتراب الخطر منهم يقومون بجمع رجالهم وقرع الطبول من على التّلال العالية كإعلان بمدى قرب الخطر منهم، ثمّ تتكرر الإشارة من معسكر إلى آخر.

وقد أخبرني سلطان أغا أنّه يستطيع جمعَ مائة وخمسين فارسًا مسلحًا بشكل جيّد، ومجهّزين للقتال، ولهذا طلبت منه أنْ يجمع لي بعض الرجال حتّى أرى بنفس مدى مهارتهم.

وبالفعل قام سلطان أغا مع خمسةٍ من الفرسان الكرد بعرض على ظهر خيولهم والرّماح في أيديهم، وقد كانوا يعدّون بسرعة، ثمّ يدورون حول الخيام، ولكنه لم يكن استعراضًا مؤسفًا على أي حال.

ولم يكنْ أيضًا العرضُ الذي كنت أتوق لمشاهدته بشدّة، كما أنّه كان أقلّ مهارة من الممارسات التي يقوم بها المرافقون الكرد، حيث كانوا يقومون بها من وقت إلى آخر خلال السّفر، وقد كانت بالفعل أفضل من هذا العرض بكثير.

وباختصار شديدٍ إنّني خلال هذه الزيارة لم أتعلّم الكثير، ولم تكن الزيارة على مقدار توقّعاتي، ومعظم ما عرفته هنا كنت أعرفه سابقًا، ولم أزدد إلّا القليل، وإنني حقًّا نادمٌ على هذه الزيارة غير المُجدية، ولو أنّني علمت من قبل أنها ستكون خالية من أيّ متعة أو إثارة ما كنت قدمت أبدًا.

وفي نهاية شهر أكتوبر، يذهب الكرد إلى مرابعهم الشتوية، ويقضون فيها من خمسة إلى ستّة أشهر حسب موعد قدوم الربيع سواء كان مبكرًا أو متأخرًا.

وقد لاحظت أنّه لا يوجد أحدٌ من الكرد في هذا الجزء من القطر يستعمل الدّروع الدّفاعية، ولكنهم يحملون الرّماح وزوجًا من المسدسات وبندقية صغيرة ذات فوّهة ناقوسية الشكل، بالإضافة إلى سيف وترس، وأحيانًا كنت أرى منهم مَن يحمل حقيبةً تحمل ثلاثة سهام تمتدّ لتصل إلى قوس سرج الفرس.

ولاحظتُ أيضًا أنّ هذا النّوع من أنواع الأسلحة قد ندر استعماله في الآونة الأخيرة.

ويبدو أنّ شهرته عشيرة حيدرانلي قد اكتسبت من جرأتهم وشجاعتهم في القتال والفروسية، كما أنّهم يهتمّون كثيرًا بتربية الخيول الأصيلة.

الحيدرانلية الكرد- قره كليسة

بالرّغم من أنّني خلال هذه الفترة لم أرَ أيّ نماذج جيدة من تلك الخيول الأصيلة التي اشتهرت بها المنطقة، إلّا أنّني علمت أنّ باشوات المنطقة المجاورة قد أخذوا منها أعدادًا كبيرة، ولهذا لم يبقَ منها سوى القليل فقط.

وقد علمت أيضًا أنّ سلطان أغا متزوّج من شقيقة الشابين الكرديين الذين التقينا بهما في أخلاط، وهما محمد بيك، مصطفى بيك، وقد سبق أن ذكرناهما.

وفي المساء أرسل إلينا سلطان أغا وجبةَ العشاء من حريمه، وكانت مكونة من عدّة أطباق مختلفة الأصناف، وهي: طبقٌ كبير من الأرز الممتاز الذي يسمّونه باللغة الكردية (بلاو)، وفوقه فخذ كامل من لحم الضّأن المشوي، وكريات اللحم المقلي، المدهون بطبقة من الصوص المصنوع من اللبن المخثر والثوم، وحلاوة التّمر،

واللبن الكردي الممتاز، إلى جانب رقائق الخبز الكردي الأبيض. وقد كانت هذه الأطباق كلّها شهية ولذيذة، ولكنها كانت مليئة جدًّا بالدّهون التي لا تناسب الذّوق الأوروبّي. وفي الليل كان الجوّ لطيفًا، وقد شعرنا بلسعة خفيفة من البرد.

استيقظ سلطان أغا مبكرًا ليودّعنا قبل مغادرتنا ليدعونا لتناول القهوة في خيمته الخاصة.

قدّمت له هدية كانت عبارة عن بعض الأشياء الصغيرة والبسيطة، ولكنه ردّ على هديتي بهديّة أفضل منها، وكانت فرسًا، وقد حاولت أن أعتذرَ عن قبولها، ولكنّه أصرّ بشدّة فوافقت شاكرًا له على حسن ضيافته لنا.

وفي تمام السّاعة السادسة والنصف غادرنا بصحبة اثنين من الكرد الذين قد تلقّيا تعليماتٍ صارمةً من سلطان أغا، بجمع عددٍ كافٍ من المرافقين من الخيام التي سنمرّ بها في طريقنا، وبالرغم من أنّ أحد رجالنا قد ذهب للمعسكرات القبائلية والخيام التي صادفناها في الطريق إلّا أنّه لم يستجبْ له أحد من هؤلاء الفرسان.

سلكنا طريقًا متموّجًا وغير مزروع، حيث يمكن أن تكون هناك مراعي ممتازة أثناء الربيع والصيف.

ثمّ رأينا بقعة واحدة خضراء غزيرة المياه، وعددًا من الخيام يرعى حولها مجموعةٌ من الخيل وصغارها، ثمّ قطعنا واديًا طويلًا تنتشر في أرجائه معسكرات عديدةٌ على طول الجدول المُنساب من شلال مائيّ عذب وصغيرة، أخضر الضفاف. ومن هذا المكان أطللنا على مجموعةٍ من التلال التي انحدرنا منها نحْو سهل فسيح كبير.

وأسفل الجبال التي كانت على يسارنا رأينا قريةً أرمنيّة تسمّى قرة كليسه، أي الكنيسة السوداء نسبة إلى الكنيسة الموجودة بها والمشيدة من حجر أسود.

لقد كانت هذه القرية على بُعد ثلاثة أميال منّا، ثمّ مررنا بجوار مقبرة أرمنية كبيرة، وبالقرب منها شاهدنا بقايا قرية كبيرة، وعلى بُعد ميل واحد منها رأينا أنقاض قريةٍ أخرى، لقد كان هذا السّهل خاليًا من الزّراعة تقريبًا، كما أن تربته لم تكن قاحلة على أيّة حال.

وخلفَ أنقاض قرية أخرى، عبرنا نهرًا ينساب نحْو البحيرة من تحت أسوار قلعة آريش من طرفها الغربي، وقد كانت تلك القلعة لا تزال ظاهرةً بوضوح رغم أنها كانت تبعد عنا بمسافة نحْو ١٢ ميلًا.

وفي الطّرف المقابل للسّهل وصلنا قرية، ولكننا لم ندخلها واستدرنا حولها لنصعدَ باتّجاه الجبل، عابرين سلسلة من التّلال المنخفضة التي أوصلتنا إلى وادٍ عميق يجري من خلاله جدولان يتّحدان قبل الخروج من الوادي مكوّنان رافدًا للنّهر الشّرقي البعيد لسهل آرديش.

عبرْنا هذا النهر، ثمّ وصلنا وهدًا يجري به جدول صغير، حتّى وصلنا:

قرية كندوك Kunduk:

بعضُ القرويّين كانوا معسكرين أسفلَ القرية، أمّا الباقي فكانوا في أماكن أخرى طلبًا للمرعى، ولهذا كانت القرية خالية تمامًا من أيّ كائن حي.

الطّريق إلى هنا كان جيدًا إلى حدّ ما، بالرغم من أننا كنّا نواصل السير من ثمان ساعات مضت، وأعتقد في تقديري أنّنا قطعنا اليوم ٢٠ ميلًا، مع أننا قد توقّفنا في بعض الأماكن ممّا جعلنا نتأخّر قليلًا.

وعلى بُعد مسافة قليلة جدًّا من خيام بعض أفراد عشيرة حيدرانلي نصبنا خيامنا دونَ النّظر لجودة الأرض بالقرب منهم، وبما أنّنا قد أتينا للتّو من مضارب رئيسهم سلطان أغا، فقد كنّا ننتظر معاملة جيدة منهم إلّا أنّهم عاملونا بطريقة غير متحضرة

ورفضوا تزويدنا بما نحتاج من موادّ غذائية، وعندما هدّدناهم بأنهم إذا لم يزودونا بما نحتاج مقابل ما يريدون من مال سوف نأخذ ما نحتاجه منهم بالقوّة، فما كان منهم إلّا أنْ قالوا إنّهم ليس لديهم ما يبيعونه أو يعطونه لنا، فقال لهم الخافاس- أي المرافق لنا، وهو من الحرس الشخصي للباشا- أنّهم إذا لم يزودونا بخروف صغير حالًا فسيكون موقفهم صعبًا.

أثارَ هذا الكلام غضبَ أحد الكرد الواقفين، فأمسك بعنق الخافاس وكاد يخنقُه، ولكنّ الخافاس تخلّص من ذلك الرجل الكردي، حيث أنّه كان ضخم الجثة وقوي البنية، فما كان من ذلك الرّجل الحانق إلّا أنِ انتزع بندقية رجلٍ كرديّ آخر كان يقف بجواره وصوّبها نحْو الخافاس، فقام الخّافاس بدوْره بتصويب مسدسه نحْو الرجل الكردي، فهبّ الكرد والفريق المرافق لي بتفريق الطّرفين وتهدئتهم ومنعهم من استعمال السّلاح، وبعد لحظات قليلة عاد الهدوء والنظام بين الطرفين.

وبعدَ هذه المشاجرة العنيفة زوّدنا الكرد بما نحتاج إليه مقابل مبلغ من المال، ثمّ تدخّل بعض الأشخاص، وقاموا بعقد الصّلح بين هذين الرجلين فتصالحا وعانق بعضهما الآخر.

لا أستطيع تبريرَ هذه التّصرفات التي حدثت، حيث أنّ مرافقينا قد سبقونا إلى هنا، وأخبروا أهلَ القرية بقدومنا وأخبروهم أيضًا أنّنا سندفع لهم ثمّ كلّ ما نأخذه.

بعدَ حلول الليل أرسل سلطان أغا إلى عمّه برسالة يعتذر فيها عن إرساله لنا دون سابق معرفة إلى قرية خرج كلّ سكانها إلى مرابعهم الصيفية، وليطمئن عمّا إذا كنّا قد حصلنا على حاجاتنا.

السّادس من أيلول/ سبتمبر، عام ١٨٣٨

لقد قرّرنا التحرّك في وقت مبكّر لأنّه كان بانتظارنا مسيرة طويلة عبر سلسلة جبالٍ عالية، ولهذا انطلقنا على ضوء القمر، وكان الجوّ لطيفًا، ونسماتُه اللطيفة تداعب وجوهنا، وقبل أنْ نرتقي صهوات جيادنا أرسلت في طلب عمّ سلطان أغا لأعلمه بما حدث من شجار الليلة الماضية.

وأخبرته باسم الرّجل الذي تسبّب في هذا النزاع، وطلبت منه أن يبلغ سلطان أغا بتأنيبه على هذه التصرفات السيئة.

كما انتهزت هذه الفرصة لأعيد الفرسَ الذي سبق وأهداني إياه سلطان أغا، وقد كانتْ هذه الفرس قد عانت كثيرًا بسبب طول السّفر في اليوم الماضي، وقد كان الاحتفاظُ بها يسبّب لنا مشاكل أخرى، ولهذا أردت إعادتها، وبذلت مجهودًا كبيرًا في التّقليل من ردّة فعل سلطان أغا، حتّى لا يعتبر إعادة هديّته بمثابة إهانة له، فأخذت أمدحُ في مواصفات وحُسن تربية الفرس، وتحجّجت بصغر سنّها، وقلت إنّها لن تتحمّل التّعب والإرهاق الذي سنعرّضها له خلال طريقنا الطويل، ولذلك رأينا أنّه من الأفضل إعادته إلى سلطان أغا؛ حتّى تتحسّن حالتها، وبعد ذلك يمكنه أن يرسلها في أرضروم، ولكنّ هذه المحاولات الكبيرة لم تفِ بالغرض، ولم تعطِ ثمارها، فوجدت الرجلَ المسنّ- أي عمّ سلطان أغا- يقول:

«إنّك من بداية الأمر لم تحبّ هذا الفرس أبدًا».

وبالرّغم من تكراري لتلك الأسباب السّابقة إلّا أنّه لم يقتنع، ويبدو أنّه اعتبر هذه المسألة كنوعٍ من التّوبيخ لسلطان أغا على عدم إعطائه لي حصانًا أفضل من

هذا، وإنْ كان للتّوبيخ فائدة؛ فإنّه بالفعل بدلًا من أن يكون لدينا شخصان فقط بالأمس كمرافقين؛ صار عندنا اليوم حاشية مكوّنة من أحد عشر حارسًا.

وفي السّاعة الخامسة صباحًا بدأنا في صعود الوهد الضيق، وعلى ضفاف الجدول نبتت شجيراتٌ صغيرة من بينها أشجارُ الصفصاف وأحراج الماء والبتولا وبعض أنواع التفاح البري والكمثرى، بالإضافة إلى بعض شجيرات الكشمش.

وفي مكان حيث يتفرّع الوهد، ويلتقي اثنان من الشلالات عرض علينا خياران، إمّا أن نتّخذ طريقًا جبليًّا ضيّقًا وشديد الوعورة، ولكنّه قصير، أو نسلك طريقًا طويلًا للغاية، ولكنّه سهل.

وبما أنّ الطّريق الثاني كان جبليًّا فقط بما يسمح لمرور دوابّنا دون مصاعب كبيرة، ومن طبيعة الأرض أدركنا أنّها أنسب لنا، ولهذا قرّرنا أنْ نسلك الطريق الثاني.

وفي حوالي السّاعة العاشرة صباحًا وصلنا إلى منطقة بها عدّة خيام يسكن بها الكرد، وهنا حصلنا على بعض اللّبن الممتاز والقشدة والخبز، وقد علمت أنّ هؤلاء الكرد من عشيرة حيدرانلي، وقد أخبرونا أنّهم في طريقهم للالتحاق بذلك الجزء من العشيرة الذي يقيم في إيران، ثمّ قابلت رجلًا كرديًّا كهلًا وسيمَ الملامح، ذا عينين واسعتين سوداوين، ولحيته كثّة رمادية، وقد قال لي: لم يعدْ هذا البلد بلدًا للعيش، ويقصد بالبلد القسم التركي من كردستان، فقلت له:

هل رأيك هذا ناشئ عن القيود المفروضة على الغزو؟

فأجابني في عنف وغضب:

كلّا، فأنا لم أكنْ في يوم من الأيام لصًّا، ولكنّنا قد تحطمنا بسبب كثرة مطالب باشوات السلطان وأذنابهم.

وقد لاحظت وجودَ أعدادٍ كبيرة من الأبقار والأغنام والخيل حول الخيام الخمسة التي يسكنها هؤلاء الكرد من عشيرة حيدرانلي، والتي تبيّن بوضوح أنّهم ليسوا معدمين.

فأجابني الرجل ضاحكًا:

إنّ ما تراه هنا ذو قيمةٍ قليلة لأنّ الإنسان قليل الأهمية.

إنّ هؤلاء الناس يمتلكون من المواشي ما يكفي حاجاتهم، ويبقى الباقي للتّصدير، وهذا يكفي ليمنحهم استقلالًا.

وإنْ كانت هذه الإمكانيات موجودة في أيّ قطر متحضّر لشعب ذي احتياجات قليلة لهذه الدرجة؛ لأصبحوا أثرياءَ للغاية، وبالرّغم من ظهور دلائل على الثروة الرّعوية هنا، إلّا أنّني لاحظت أنّ النساء والأطفال يرتدون ملابس رثّة، وفي بعض الأحيان يكون الأطفال عراة.

ولا يهتمّ النّساء هنا بمظهرهن، وبالرّغم من أنّ فترة الصبا لدى كلا الجنسين تجعلهم يبدون بصحّة كبيرة ونشاط، كما أنّهم يمتلكون أسنانًا بيضاءَ جميلة، إلّا أنّهم مع تعرّضهم لمشاق الحياة وإرهاقاتها يتغيّرون تمامًا، فتصبح النساء عجائز بعد فترة قصيرة، أمّا الرجال فيزيدُ عمرهم الضّعف حتّى يبدو الشابّ رجلًا كهلًا.

استرحنا هنا لمدّة ساعة، ثمّ غادرنا الخيام عبرَ شلّال ينحدر من قمة وادٍ شديدِ الوعورة، وفي تمام السّاعة الثانية والنصف وصلنا أعلى جزء من آلا- داغ، أي الجبل الجميل، ثمّ عبرنا السّلسلة هابطين إلى وادٍ عميق عن طريق ممرّ شديد الانحدار.

استغرقَ سيْرُنا عبر المنحدر حوالي نصف ساعة من قمّة الوادي المسمّى زيلان ديرين، كان ينحدر نهرٌ صغير يتشعّب من جوانبه عدد كبير من الشلالات الصّغيرة لتصبّ في قاع الوادي مكوّنة جدولًا أكبر، يتّسع في مجراه بين خطوة وأخرى.

وهذه الجداول والشّلالات هي المصادرُ الرئيسية لنهر مراد، وعلى الواجهة الشّمالية لأعلى القمم في السّلسلة كانت الثلوج تفترش بقعًا كبيرة جدًّا، ومع ذلك فأنا أعتقدُ أنّ جبل نالا- داغ منخفض للغاية بالنسبة إلى جبل سيبان داغ.

عبرْنا هذا الجدول من الجهة اليسرى أسفلَ الوادي، وهي عمومًا ضيقة وذات قاع أخضر، وفي طريقنا لم نرَ أيّ أثر لخيام الكرد أو قطعانهم، وفي بقعة واحدة فقط رأيت بعضَ الحشائش المقطوعة لعمل التبغ، وثلاثة أو أربعة روافد تتّحد مع نهر مراد صو قبل وصولِه إلى ضياء الدين، ولكنّني رأيت واحدًا فقط منها ذا حجم اعتيادي.

وقبلَ غروب الشّمس مررنا بقرية مهدّمة، ثمّ عبرنا إلى الضفة اليمنى لنهر مراد صو، لقد مشينا مسيرة طويلة ومرهقة هذا اليوم حتّى أرهقنا وأرهقت خيولنا.

حاكمُ هذه المنطقة هو شقيق والي بايزيد بهلول باشا، وعندما وصلنا إلى المنطقة وجدناه لم يخصّص لنا مكانًا مناسبًا للإقامة، ولهذا لم يكن أمامنا إلّا أن ندخلَ اصطبلًا، ونفترش التّبن الجديد الموجود فيه، لنسقط بعد ذلك في نوم عميق، ونحن بانتظار وصول حقائبنا، وبعد منتصف الليل وصلت الحقائب، وبعد حوالي ساعة تناولنا الشاي، ونحن متمدّدون في فراشنا.

بعد تلك المسيرة المتعِبة التي خضناها بالأمس، لم نكن نحن أو خيولنا في حالةٍ تساعد على متابعة رحلتنا، وقد كان الدكتور ديكسون أكثرنا تعبًا وإرهاقًا، وكانت صحّته متدهورة، وقد بدأت هذه الحالة منذ صعودنا إلى جبل سيبان داغ، وذلك بسبب التهامه لفصوص كثيرة من الثلج هناك.

قمتُ بإرسال رسالة إلى بهلول باشا في بايزيد مع أحدهم لأطلبَ منه أن يُؤمّن لنا فريقَ حماية مناسب حتّى نصل إلى بايزيد؛ لأنّني علمت أنّ الطريق من ضياء الدين إلى بايزيد غيرُ آمن بسبب وجود قطاع الطرق فيه.

لقد سمعت أنّ قاسم أغا ابن حسين أغا رئيس عشيرة زيلانلي كان موجودًا في قرية ضياء الدين، ولهذا دعوته للمجيء وتناول القهوة معي، فقبِلَ دعوتي وجاء لزيارتي.

إنّ قاسم أغا شابٌّ في الثّامنة عشر من عمره، ولا يتمتّع بالوسامة والذكاء، ولكنّه كان برفقة شابّ لبق ووسيم وأنيق المظهر.

تناولنا بعضَ الأحاديث التي جعلت النقاش بيننا يصبح حادًّا، لقد كان هذا الرجلُ في خراسان، وكان يعرف أسماء أعضاء البعثة الإنجليزية هناك واحدًا واحدًا.

وقد كان قاسم أغا قد عاد لتوّه من الحدود الروسية، حيث كان ذاهبًا لإعادة حوالي ستّين أسرة من عشيرته كانت مقيمةً في القطاع الروسي من الحدود.

وكانت هذه الأسر تتمنّى أن تعود لتعيش وسط عشيرتها القاطنة في فارس، ولم تبدِ السّلطات الرّوسية أيّ اعتراض على مغادرتها لأراضيها.

وقد أمر الشّابين الكرديين بأن يفضّلا العيش في الجانب الكردي الخاضع لتركيا أكثر من الجانب الإيراني. ومن المؤكّد أنّ السكن في الجانب الإيراني له فوائد كثيرة أفضل من السّكن في الجانب التركي، إلّا أنّ كثرة المياه في الجانب التركي لا توازيها أيّة فوائد أخرى موجودة في الجانب الإيراني.

جاء حاكمُ ضياء الدين المسمّى عبد الرزاق بيك لزيارتي، وخلال هذه الزيارة سألته عن الطّريق من ضياء الدين إلى بايزيد عن طريق الحدود، فأخبرني أن هذا الطّريق سالك وآمنٌ تمامًا، ولكنه يكاد يكون مقفرًا تمامًا، وذلك لعدم وجود أية قرى على الطريق، أي أنّه لا يمكنني تأمين أيّ طعام أو احتياجات لنا ولخيولنا،

هذا بالإضافة إلى انخفاض درجات الحرارة بشدّة، لدرجة أنّه من المستحيل إبقاء الخيول خارج الاصطبلات ليلًا.

وعندما سمعتُ هذه الأسباب اقتنعت أنّه من الأفضل عدم سلوك هذا الطريق.

قرية ضياء الدين مختلطة، ويسكنُها الكرد والأرمن معًا، ونظرًا لأنّها تقع على الطريق المؤدّي إلى إيران؛ فإنّ سكّانها يتعرّضون لابتزازات كثيرة من قبل والي إيران بسبب استضافة المسافرين، ولكنّهم يعوضون ذلك من خلال بيعهم الشعير والتبن للقوافل التي تمرّ من هنا خلال فصل الشتاء بأسعار عالية جدًّا.

أمّا القلعة فأسوارها متهدّمة، ولا يمكنها تأمين الحماية لأيّ أحد، ومكان إقامة البيك هو مسكنٌ بائس ومتآكل وغيرُ مسكون باستثناء الجزء الذي تسكنه الحريم، ويحتفظ فقط بغرفة استقبال واحدة تقع خارج فناءِ المنزل، وقد قام بعرضها علينا لتكون محطة استراحتنا فور وصولنا للقرية.

ولكنّنا لم نقبل هذا لأنّ الخافاس- أي الحارس الخاصّ الموفد من قبل الباشا إلينا- أخبرنا أنّ الإقامة في اصطبل القرية يعدّ أكثر راحة من الإقامة في غرفة استقبال البيك.

إنّ اصطبل القرية كانت محطّة جنوبية، وجزءًا من الحصن يشير إلى أنّه أساسًا مبنيّ بصورة محكمة. أحدُ الحيطان ينهض على حافّة منحدر وعر جدًّا، ليشكّل جانبًا لوهدٍ ينساب من خلاله نهرُ مراد صو، أمّا الحوائط الباقية فتنهض من المنطقة السّهلية، ويمكن جعلها دفاعيّة بسهولة ضدّ هجوم الغزاة الرحل، ولكن هذا لا يمنحها موقعًا دفاعيًّا قويًّا. وعلى كلّ حال إنّها لا يجب أن تبقى على هذه الحالة المتهالكة.

الثّامن من أيلول/ سبتمبر، عام ١٨٣٨

عزمنا على الرّحيل، وحملنا خيامنا وأمتعتنا، وأثناءَ هذا فوجئنا بوصول الرجل الذي بعثته إلى بهلول باشا في بايزيد، وطلب منّي تأخير رحلتي حتّى اليوم التالي لأنّه يعتبر الطّرق غيرَ سالكة ومهدّدة بالخطر، ويريد أن يبعث لنا طاقم حماية يتكوّن من خمسين مرافقًا، ولكنّني وجدت أنّه من غير الضروري تأجيل الرحلة، حيث إنّنا كنّا قد رفعنا خيامنا وحملنا أمتعتنا، كما أنّنا كنّا فريقًا قويًّا، ومعنا فريق حماية يتكوّن من أربعة عشر فارسًا، وقد قرّرنا ألّا نبتعد عن أمتعتنا إلّا ببضعة أمتار حتّى إذا طرأ أمرٌ ما نكون قريبين منها، كما أنّنا وجدنا أنّ الأمر لن يكون له مخاطرة كبيرة إذا تحركنا ببطء.

بدأنا تحرّكنا في تمام السّاعة السادسة صباحًا، وصلنا إلى بايزيد في تمام السّاعة الثانية والنّصف بعد الظهر، رغم أنّني قدّرت المسافة التي قطعناها بما لا يزيد عن ١٨ ميلًا.

توقّفنا عند نهر صغير جميل ذي مياه صافية جدًّا يسمى كيرناوك Gerna, wuk بالقرب من جسر صخري، ومن هناك أرسل الخافاس إلى بهلول باشا ليخبره بوصولنا إلى بايزيد، ولنطلب منه تخصيص مكانٍ لننزل به بالقرب من قرية تفترش أعتاب التلّ الذي تنتصب فوق قمته بايزيد.

وفي منتصف الطّريق بين بايزيد وضياء الدين لاح لأنظارنا من بعيد قصرُ الباشا الذي يقع على صخرة شديدة الانحدار، والتي على جوانبها وأعتابها تنتصب ولاية بايزيد، ويتخلّل المسافة سهلٌ طوله ١٥ ميلًا، يفصلنا عن سفوح جبل تاكري داغ، أو جبل آرارات، الذي ترتفع قمّته في جلال مهيب، وتغطيها كتلة

ثلجية برّاقة تكلّل هامته العالية، وإلى جانبه توجد قمّة أصغر دون ثلوج، بحيث لا تبدو بوضوح إلى جانبِ جبل آرارات العملاق الشّامخ، هاتان القمتان بارزتان ومفصولتان عن باقي السّلسلة، وكأنّهما تنظران بكبرياء إلى الجبال المحيطة بهما.

وبالقرب من تلك القمّة، وفي منتصف الطّريق إلى بايزيد، نرى الأرض مكسوّة بمنثور المقذوفات البركانية، والتي كوّنت الصخور والنتوءات التي ترتفع عن الأرض.

وقد علمت أنّ النهر البركاني لم يأتِ من القمّة الرئيسية نفسها، ولكنه أتى من جزءٍ من السلسلة الجبلية التي تقع بين أرارات، والسهل الذي سبق ذكره.

ويقال إنّ سفينة نوح قد رستْ على هذا الجبل بعد الطوفان، وقد أخبرني حافظ باشا بأنّ جبل الجودي يقع بالقرب من العمادية، ويذكر المؤرخون المسلمون أنّه نفسه جبل أرارات المذكور في الكتاب المقدس.

وعندما قرأت يوميّات المستر ريتش Rich رأيته يذكر أن هناك مدوّناتٍ تاريخية تقليدية تدعم هذه الحقيقة.

ولكنّني لم ألحظ خلالَ تواجدي هنا أنّ الناس الذين يسكنون في جوار بايزيد يذكرون أيّة أساطير أو روايات تخصّ سفينة نوح، كما أنّ أهالي المنطقة لا يطلقون على هذا الجبل أيّ اسم آخر سوى تاكري داغ، ولم نصادف في طريقنا أي فرسان كرد، ولكنّنا رأينا بعض المتجوّلين وهم يسيرون بعض الماشية والأغنام باتجاه الحدود الذين أخبرونا بأنّهم من عشيرة زيلانلي الكردية العائدين توًّا من جورجيا، وأخبروني أنّهم ذاهبون للالتحاق بباقي أفراد عشيرتهم المقيمين في الأراضي الإيرانية.

بعد الظّهيرة فوجئنا بهبوبِ عاصفة شديدة استمرّت طوال الليل، وتسببت في ظهورِ موجةٍ خانقة من الغبار والأتربة.

وقد كان التّيار شديدًا لدرجة أنّه أدّى إلى بعث المخاوف في نفسي، وبدأت الشّكوكُ تساورني حول أنّ هذه الرياح سوف تقتلع خيامنا من جذورها، وسنظلّ نحن في العراء.

وفي ظهر اليوم التّالي، هبّت العاصفة مرّة أخرى، واستمرّ الحال هكذا طوال الأربعة أيّام التي قضيناها في بايزيد، واستمرّ هبوب الرياح على هذا الشكل، ولكن صاحبَها تيارٌ قويّ منتظم من نسيم عليل ملطّف كان يعاود الهبوب.

تكاثر الغبارُ لدرجة أزعجتنا، وجعلتنا نضطرّ إلى الانتقال إلى الغرفة القديمة المتآكلة، والتي بالرّغم من كلّ هذا بدتْ لنا أفضلَ بكثير من خيمتنا.

جاء لزيارتي قائدُ طابور الجيش، وقد اشتكى لي من عدم فاعلية التواجد في مكانٍ صغير مثل بايزيد، وهذا الأمر ينعكس سلبيًّا على قواته التي تعاني بسبب ذلك كثيرًا، ولكنني قلت له:

لماذا لا تستخدم قوّاتك للسّيطرة على القبائل الكردية التي تتمرّد بين الحين والآخر؟

فأجابني قائلًا:

أنا وقوّاتي موضوعان تحتَ إمرة بهلول باشا، وأنا لا أستطيع أن أقوم بأيّ شيء دون موافقة الباشا.

وفي نفس الوقت في الظّهيرة جاءني رجل، وقد كان مبعوثًا من قبل الباشا ليعمل (ميهمندار) أي مضيف لي ولمرافقي، وأبدى رغبته في معرفة موعد تحركنا.

لقد كانت أحوال الدكتور ديكسون تزاد سوءًا، ولهذا قرّرت أن أستأجر عربة لنقلِه، وبعد صعوبة بالغة نجحتُ في توفير واحدة، وعزمت على الرّحيل بعد يومين، متوقّعًا أن تتحسّن حالته حتّى هذا الوقت ليستطيع تحمّل مشاقّ السفر.

إنّ اضطراب الأمن في المنطقة ومرضَ الدكتور ديكسون والرياح الشديدة التي داهمتنا، والغبارَ والجوّ الغائم، وجميعَ هذه الأسباب؛ جعلت خطّتنا تتأثر حيث كنّا ننوي زيارةَ جبل آرارات، وتبعًا لذلك لم يكنْ بإمكاننا استخلاص الملاحظات الفلكية، ولهذا كان بقاؤنا في هذه المنطقة دونَ سببٍ وجيه، ولهذا فقد كنّا في لهفة شديدة لمغادرة ولاية بايزيد.

ومن خلال مشاهدتنا العرضية حصلنا على بعض المعلومات عن جبل تاكري داغ أي آرارات، فحسبَ تقديري أظنّ أنّ الثّلوج تكسو نحْو ألفي قدم أسفل القمة والتي تغطّي نحْو ١٢ ألف قدم كارتفاعٍ تقريبيّ للجبل.

في صباح اليوم الذي قرّرنا فيه مغادرة بايزيد نظرتُ إلى جبل آرارات للمرة الأخيرة، فوجدت قمّته السّفلى قد اكتست بطبقةٍ خفيفة من الجليد كانت قد سقطت عليها بالأمس.

تقع مدينة بايزيد بين سلسلة من الصخور شديدة الانحدار على شكل فجوة، ويحيطها سلسلةٌ من الجبال، تقابل جبال تاكري داغ، التي ترتفع على الطرف المقابل للسّهل الذي يتراوح بين ٨ إلى ١٠ أميال.

إنّ قصر الباشا عبارةٌ عن بناء صخريّ جميل، ويعتبر من أجمل قصور الباشوات التي شاهدتُها في حياتي، إنّه حقًّا من أفضل القصور الموجودة في تركيا بأكملها.

وقد تمّ بناؤه على قمّة جبل، ويطلّ على المدينة بشموخ، ونظرًا لأنّ الجبال المحيطة أعلى منه ارتفاعًا فقد وضع عليها الرّوس مدافعهم ليوجهوها إلى القصر، وبعد عدّة طلقات على القصر استسلمت المدينة.

إنّ المدينة الآن شبه مهدّمة، وأسواقها بائسة ورديئة التجهيز بالمواد، أمّا السّكان هنا فيبدو عليهم غلاظة الطّبع، ويتعاملون بخشونة مع الغرباء. ويبدو أنّ هذه الصّفات قد انتقلت لهم من القبائل الكردية الرحّالة الذين يحيطون بهم من كلّ جانبٍ نتيجة لتعاملهم معًا بشكل مستمر.

أمّا التجارة في بايزيد فيبدو أنّها متدهورة، وقد بدأ ذلك منذ أن احتلت يريفان أو ريفان من قبل الرّوس، وأقامت حكومتهم محجرًا على حدودهم، وهكذا توقفت كلّ الاتّصالات النشطة بين يريفان وبايزيد.

ويمكن أن نؤرّخ حالة التّدهور التي أصابت التجارة هنا منذ إقامة ذلك المحجر، وهكذا ساءت الأوضاعُ الاقتصادية لبايزيد، وقد زادت هذه المشكلة اتساعًا عندما هاجر قسمٌ كبير من السّكان الأرمن مع القوات الروسية الغازية إلى الطرف الثاني من الحدود.

لقد قام أجدادُ بهلول باشا بحكم باشلق (باشوية) بايزيد لعدّة أجيال معتمدين اسميًّا على أرضروم، ولكنّ محمود باشا والد بهلول باشا- الحاكم الحالي- كان قد أسّس ولاية كردية مستقلّة حقيقية. وكان حاكمًا قويًّا بالرّغم من كونه رئيسًا قد خرج على سلطة حكومة السلطان العثماني.

كما بنى لنفسه قصرًا كبيرًا، وأجبرَ العشائر الكردية المحيطة على جلب مواد البناء لذلك القصر على حسابهم الخاصّ، أمّا مسكنه السابق فقد كان يقع على الطّريق المقابل للوهد في مواجهة القصر الجديد، وقد كان نصفه محفورًا في جهة الجبل، ويحتوي على مخازن ضخمة.

وتحتوي على مخزن ضخم للأسلحة، لكن صيانته قليلة، هذا الموقع محصّن جدًّا لدرجة أنّه لا يتأثّر بالمدفعيةٍ، وموقعه متميّز جدًّا، ويليق بأن يكون مقرًّا لرجل مهمّ

جدًّا كمحمود باشا، والذي يمكن اعتباره رئيسًا لأفواج من المتمردين الأشداء أكبر من كوْنه حاكمًا لمنطقة واسعة.

ويوجد أيضًا بقايا قلعةٍ قديمة على قمّة نفس الجبل الذي يقع على جانبه هذا الحصن المنيع، وتعدّ هذه القلعة أكثر إيغالًا في أعماق التاريخ، والتي يخيل لي أنّها آخرُ محطّات الجنويين، ولكن المسيو جوبرت Joubert – رئيس البعثة الموفدة من قبَل نابليون بونابرت إلى شاه إيران آنئذ ومرافقيه– كان قد حجز في القلعة الأحدث بناءً.

وكان المسيو جبرت قد حمل هدايا ثمينة من قبَل رئيسه نابليون إلى شاه إيران. ويقال إنّ محمود باشا اشتهى الحصول على تلك الهدايا، وبعد تعزيز حماية جوبرت بمجموعةٍ من المرافقين، يزعم أنّه أرسلَ من ناحية أخرى مجموعة من الأشخاص، لمهاجمة ركب المستر جوبر، فقاموا بتعصيب عيونِه وتوثيق يديه وإعادته إلى بايزيد، وهناك تمّ وضعه هو ومرافقُه الشخصي في سجنٍ تصلُ جدرانه إلى جناح في الطابق الذي يقيم به الحريم.

وتمّ حجز المستر جوبرت ورفاقه في هذا السجن لمدّة ستة أشهر تقريبًا، وخلال هذه الفترة يقدّم لهم طعام قليل، معظمُه مكوّن من الماء والخبز.

وقد كان يظنّ أنّهم سيمرضون مع مرور الوقت من جرّاء ذلك الطعام الرّديء ويموتون، ولن يسأل عنهم أحد، أو يعرف مكانهم، وهكذا تنتقل ملكية المجوهرات والأحجار الثمينة التي كانوا يحملونها كهدايا لملك الفرس؛ إليه هو.

ولُحسن حظّهم، ولسوء حظّه؛ لم يمتِ المستر جوبرت ورفاقه وبقوا على قيد الحياة، بينما محمود باشا نفسه سقط في الفراش مريضًا وتوفّاه الله بعد فترة قصيرة.

وقد فسّرت أسرته أمرَ موته المفاجئ بأنّه انتقام من الله على الأمور البشعة التي فعلها في حياته، ثمّ قامت أسرته بإطلاق سراح السجناء، وأكرمت وفادتهم، وأعادت إليهم الهدايا، وسهّلوا لهم الأمر في البدء من جديد، بتوصيل الهدايا إلى أصحابها، وكذلك تنفيذ المهامّ الأخرى التي كلفوا بها.

وبعد وفاة محمود باشا مباشرة أعقبه على كرسي الباشوية ابنه بهلول باشا الذي يحكم المنطقة منذ ذلك الوقت باستثناء سنةٍ واحدة تمّ عزله فيها بسبب تساهله مع أبناء عمومته من عشيرة الجلالي الكردية الذين كانوا يتصدّون للقوافل الإيرانية التي كانت تجتاز الحدود، وبخاصّة بسبب عجزه عن استعادة الأموال الضخمة التي سطَا عليها أفرادٌ من تلك العشيرة من قافلة إيرانية كبيرة عام ١٨٣٤.

وهذا الأمر جعل أسعد باشا حاكمَ أرضروم يغضب عليه، ويقوم بتعيين ديمير باشا خلفًا لبهلول باشا، ولكنّه للأسف سرعان ما أظهر جشعه الشديد، وسوء إدارته وقسوته، فقام الأهالي بتقديم شكاوى ضدّه طالبين عزله على الفور، بل وهددوهم بأنّهم إذا لم يحقّقوا جميعَ مطالبهم فإنّهم سوف يهاجرونَ بشكل جماعي إلى جورجيا.

وقد تمّ بالفعل عزلُ ديمير باشا نتيجة لإصرار الناس، وتمّ تعيين بهلول باشا مرّة أخرى، ومنذ هذا الوقت وبهلول باشا يتقلّد مقاليد السلطة في هذه الولاية الواسعة.

غادرنا مدينة بايزيد صباح اليوم قبل ساعة من رحيل باقي أعضاء ركبنا، وذلك حتّى نعطي فرصة ووقتًا للجواميس التي تسحب عربة الدكتور ديكسون لتمضي قدمًا في خطواتها البطيئة.

سلكنا الطّريق المباشر إلى ضياء الدين، وهو نفس الطريق الذي اتخذناه عند قدومنا إلى بايزيد.

وفي طريقنا إلى قرية ضياء الدين صادفنا درويشًا من أهالي بخارى، وطلب منّا أنْ يلتحق بركبنا فوافقت، وقد أخبرني هذا الرّجل بأنّ مواطنًا من أهالي بخارى غادر بلدَه منذ اثنين وعشرين عامًا لأداء فريضة الحج، وبعد أداء فريضة الحج طاف في البلدان بغرض السياحة، وهو الآن في طريق العودة إلى أهله ووطنه.

وأخبرني- أيضًا- هذا الرجل أنّه قد عادَ مؤخّرًا من أرضروم، وكان يأمل أنْ يرافقه دليلٌ كي يرشده إلى الطّريق إلى يريفان عبر الحدود الروسية، ولكن حاكم بايزيد- أي بهلول باشا- رفض ذلك، ولهذا اضطرّ ذلك الرجل البخاري إلى الذهاب إلى أرضروم بنيّة التوجّه إلى جومري Gumri، ومن هناك يسلك طريق أستراخان، وأزدرخان، ويتّجه نحْو بخارى.

وفي منتصف المسافة تقريبًا خرجتْ من الطريق إلى نبع ماء ساحرٍ تقع حوله بقايا قرية، وفي هذه المنطقة بالضّبط قبل فترة قصيرة جدًّا كان أحد الحرّاس الشخصيّين لباشا أرضروم قد سلبَ وهو في طريق عودته إلى أرضروم من بايزيد، وذلك بعد أنْ قام بتسليم رسالة لباشا ولاية بايزيد، وقد علمت أن ذلك الحارس ومرافقيه الفرسان الأربعة قد هوجموا من قبَل عددٍ قليل جدًّا من أبناء القبائل المجاورة، وقاموا بسلبه وجرحه هو ومرافقيه.

في تمام السّاعة الثانية والنصف بعد الظّهر، وصلنا إلى قرية ضياء الدين، وقد استغرقتْ مسيرتنا إليها على ظهر الخيول ثمان ساعات وثلاثة أرباع الساعة.

وقد كانت أمتعتُنا قد سبقتنا في الوصول إلى هنا، أمّا العربة التي كانت تحمل الدّكتور ديكسون فقد وصلت بعدنا بنصف ساعة.

الرّياحُ كانت عالية جدًّا، والغبار يلفّ المنطقة بشكل يبعث على الضيق والإزعاج.

وقد أرسل إلينا بيك القرية بكلّ لطف كميّةً من الشعير والتبن لخيولنا.

الثّالث عشر من أيلول/ سبتمبر، عام ١٨٣٨

غادرنا قريةَ ضياء الدين في السّاعة السادسة والنصف صباحًا، وقد كان نسيمُ الصّباح باردًا تمامًا، أمّا الطّريق فكان يقودنا باتّجاه سهل طويل، وكان نهر مراد جاي على بُعد مسافة قصيرة منّا من جهة اليسار.

وبعد مسيرة وجدنا ديرًا، وقد كان رهبانُه منشغلين في حراثة أراضيهم، ولكن الجزءَ الأكبر من عقاراتهم لا يزال دونَ استغلال، وذلك بسبب نقص الأيدي العاملة.

ويبدو أنّ أعداد الأبقار والأغنام والماعز والجواميس والثيران والخيل التي رأيتها بالمساء عند عودتها من المراعي القريبة كبيرة جدًّا، وهذا يدلّ على أنّ هذه الجماعة لا تعرف معنى الحاجة، حتّى أنّه فيما مضى كان اللّصوص من القرى المجاورة يسْطون على بعض ممتلكات الدير وينهبونها.

وفي أحدِ الأوقات قام حسن خان سردار منطقة يريفان عندما كانت خاضعة للسّلطة الفارسية؛ بتجريد الدّير من معظم كنوزه، ولكن الدّير الآن أصبح في منأى تامّ عن أيّ سطو أو تجريد.

يجري نهرُ مراد جاي على بعد مائة خطوةٍ من الدير، وبالرغم من أنّه في هذا الوقت يصبح بلا قيمة، حيث يبدو كجدولٍ صغير يتراوح عرضه بين ٢٠ إلى ٣٠ خطوة، ولا يصل ماؤه إلى علوّ ركبة الفرس، إلّا أنّه في الربيع يتضخّم ليصبح نهرًا كبيرًا وعميقًا، وغيرَ قابل للخوض تمامًا، ولذلك يصبح عبورُه مستحيلًا إلّا من فوق جسرٍ صخريّ يقع على بعد ميل واحد أسفل حوض النهر.

وقد سألت عمّا إذا كان الدّير يضمّ مكتبة أو يحتوي على أية مخطوطات، وأخبروني أنّه يحتوي على كتبٍ كثيرة، ولكنّها مهملة وفي وضع غير منتظم، وسمحوا لي بدخول المكان الذي يضمّهم، وقد كان عبارة عن غرفة مظلمة تقع في أحدِ جوانب المذبح، حيث تحفظ تحفُ ومنمناتُ الكنيسة، وقد رأيت أكداسًا من الكتب.

وقد كانت مغطّاة بطبقات كثيفة من الغبار، ولكنّني أعتقد أنّها لم تكن تتجاوز المائة مجلدٍ، وجميعُ الكتب التي وقع نظري عليها كانت كتبًا أرمنية مطبوعة في فينيسيا، وتتحدّث عامّة عن المواضيع المتعلقة بالطقوس الكنسية، ومن بين هذه الكتب والمجلدات المبعثرة عثرتُ على مخطوطة باللغة الأرمنية، وعندما سألت عن عنوانه أخبرني رئيسُ الدير أنّه كتاب ديني، ولكنني اكتشفت من خلال تصرفات الرّئيس أنّه لا يعرف محتواه لأنّه لا يجيد قراءة هذه اللغة، وهذا ما تأكّدت منه فيما بعد، وتحدّث معي عن كتابٍ آخر يجهل لغته وموضوعه، وعندما أراني إيّاه لم أتعرّف على لغته أنا أيضًا، ولكنّني أعتقد إمّا أن تكون لغته إغريقية أو لاتينية، وبعد بحثٍ طويل تبيّن لي أنّ هذا الكتاب من مؤلفات الجغرافي موسيس كورنينس، ويوجد في الكتاب نصفُ صفحة مدوّنة باللغة الأرمنية الأصلية والنصف الآخر يحمل ترجمته باللغة اللاتينية.

وإذا كان القسّ يعرف قراءة لغته القومية، لكان من المحتمل أن يكتشف محتوى الكتاب، وكذلك لغته المجهولة. فبالرّغم من أنّني رأيت القسّ رجلًا لطيفًا وودودًا إلّا أنّني اكتشفت أيضًا أنه جاهل، ولا علاقة له بالعلم والمعرفة، ومن هنا يبدو أنّه غير مناسب لشغل هذا المنصب كموجّه لمؤسّسة دينية.

وبعد غروب الشمس زارني الموسينيور سكافي، وهو قسيس كاثوليكي إيطالي، وقد كان متّجهًا إلى إيران، وكان ينوي زيارة إيجميادزين مع رجل فرنسي اسمه

المسيو بور Bore في مهمّة رسمية كلّفتهم بها الأكاديمية الفرنسية للعلوم في باريس لاكتشاف الشرق.

وقد تمّ وقْفهما عند الحدود الروسية، وبعد تقديم طلب إلى سلطات تفليس منح المسيو بور تأشيرةً لدخول جورجيا، أمّا طلب الموسينيور سكافي للدّخول فقد رفض، فعاد أدراجه مضطرًّا من جومري إلى قارص.

ومن قارص جاء إلى هنا عن طريق آني Ani، وطريق كاغزمان Kaghiziman، وقد كان متّجهًا إلى بايزيد لينتظر وصول صديقه المسيو بور.

الرّابع عشر من أيلول/ سبتمبر، عام ١٨٣٨

إنّ مسيرتنا اليوم إلى قره كليسه كانت أكثرَ من مُتعِبة، وجميع القرى التي صادفناها في طريقنا كان مسكونةً من قبَل بعض الغجر الإيرانيي الأصل الذين يتحدّثون لغة غريبة عبارة عن مزيج بين اللّغات الكردية والتركية والفارسية والعربية، ويطلقون عليها لغة تيريكميه Terekmeh، ولهذا لم أردِ التوقّف في هذه القرية حيث إنّني لم أفهم أيّ كلمة من كلماتهم.

استيقظنا في الصّباح الباكر قبل بزوغ الشمس، وقد كان الهواء باردًا للغاية، لدرجة لا يتحمّلها أحد، وبينما كنّا نوشك على بدْء مسيرتنا الجديدة مرّت بنا قافلة قادمة من إيران، كانت قد بدأت سيْرها تحت جنح الليل، وكان يصاحبها ضابط روسيّ برتبة رائد، ويطلق عليه كليمون Clemon، وقد كلفته حكومته بشراء خيول من فارس لفرق الفرسان الروسية.

وبما أنّ هذا الشّاب لم يكن يتحدّث سوى الرّوسية والألمانية، فلم أستطع التحدّث معه نهائيًّا خلال الطّريق، وكان سفرهم مستمرًّا طوالَ الليل والنهار، وهذا الأمرُ لا يطاق تحتَ الظروف الجوية الحالية.

بدأنا مسيرنا في السّاعة الخامسة والنصف صباحًا، وبعد حوالي ساعتين مررنا بقريّة تسمى آليجور Allegur، وتقع هذه القرية على جدول يصبّ مباشرة أسفل القرية في نهر مراد صو، وفي هذا المكان التقينا بقافلة كبيرة تستريح بعد مسيرة طويلة استغرقت الليلَ بطوله، وقد كانت بضائعهم عائدةً إلى تجار من جورجيا كانوا بصحبة القافلة، وكانوا متّجهين إلى تبريز، أمّا بضاعتهم فكانت كلّها من صناعة إنجليزية.

أمّا أصحابُ البغال فكانوا جميعًا إيرانيّين، وهُم ممّن يفضّلون السفر في الليل عن السّفر في النهار، وسبب هذا واضح جدًّا نظرًا لمناخ فصل الصيف هنا، ولكنني علمتُ أنّهم يتبعون هذه العادة في فصل الشّتاء أيضًا، ولا أستطيع تخيل أيّ فائدة للسّفر ليلًا في موسم الشتاء.

وبعدَ مغادرتنا لقرية ناليكور مررنا بنهر مراد صو عند انحناءاته، وعند نزولنا إلى ضفافه وجدنا أنفسَنا فجأة وجهًا لوجه مع مجموعةٍ كبيرة من الفرسان الكرد من أهالي قارص، وقد علمت أنّهم جاءوا في مهمّة حماية منذ أكثر من خمسة عشر عامًا من عشيرة زبيلي الكردية، كانوا يتّجهون إلى إيران للالتحاق بباقي أفراد عشيرتهم المقيمين هناك، وكان هؤلاء الكرد يصطحبون معهم نساءهم وأولادهم وخيامهم ومواشيهم وأدواتهم المنزلية، وقد كان هذا المظهر جميلًا للغاية، أمّا نحن فقد كنّا على الضّفة اليمنى على النهر، واستمررنا بالقرب منه حتّى استدار نحْو وادٍ عميق أخضرَ وجميل، وعلى الضّفة المقابلة من النهر كانت تقع قرية قلعة سور أو قلاسور؛ أي القلعة الحمراء.

وبعد مسافة قصيرةٍ استدار النّهرُ في انحناءة قويّة نحْو اليسار، فصعدنا الضفة التي تشكّل حدودَ النّهر، ثمّ دخلنا مرتفعًا واسعًا وفسيحًا، بينما كان النهر يجري في الوادي من الجهة اليسرى، أمّا الجهة اليمنى فقد كانت سهلًا تنتشر في أنحائه بعض القرى الصغيرة، وقد لاحظت أنّ تربة هذا المرتفع خصبة للغاية، ولكنّها غير مستثمرة في الزّراعة كثيرًا.

ويبدو أنّ هذا يرجع لأنّ عددَ سكّان السّهل قليلون، ولا يكفي حتّى لزراعة نصفِ مساحته، ولهذا رأينا مساحاتٍ كبيرة من الأراضي متروكةً دون زراعة، بالرغم من مدى جودتها.

أسفل هذا السّهل، وفي وادي مراد مررنا بقرية تسمى زيرو Ziro، وبالقرب من نهاية السّهل كانت توجد قرية أخرى تسمّى يونجهانلي Yunjhanli، وتقع في نفس المكان، ويقيم في هذا القرى التراكمة Terekemehs، ويتراوح طول هذا المرتفع بين ١١ إلى ١٢ ميلًا، وينتهي خلفَ قرية يوهانلي بجرف عالي يدور حوله النهر الآتي من القسم الأيمن من السّهل ليصبّ في نهر مراد صو، ومن هناك ظهر لنا مجددًا منظرُ جبل سيبان داغ، وهو يشقّ بعلوّه الأسطوري عنانَ السماء، أمّا قمته فكانت مكلّلة بتاجٍ جليدي برّاق يبدأ من قمّته حتّى سفحه، وكانت المنطقة مُحاطة من جهة اليمين بجَبل مكسوّ بطبقة خفيفة من الثلج.

قطعْنا مسافة ساعةٍ واحدة بعد خروجنا من المرتفع، وصلنا إلى:

قرية قرة كليسا:

إنّ هذه القرية أرمنيّة، وقد سمّيت بهذا الاسم نسبة إلى آثار كنيسة بنيت من الحجر الأسود، ومازالت آثارُ هذه الكنيسة موجودة في القرية، ويقيم بها ٣٥ أسرة أرمينيّة، وهي لا تبعد كثيرًا عن نهر مراد صو الذي بعد مروره من خلال فتحة في التّلال الواطئة، وفي تلك النقطة التي تحاذي ضفّته الجنوبية؛ يأخذ مساره إلى أقصى الجنوب.

ومن ضياء الدين كان مسارُه تقريبًا نحْو الغرب، وقبل مرور هذا النهر من خلال تلك الفتحة فإنّه يتّحد مع جميع الفروع الجارية من الجبال الواقعة على الطرف الشمالي للسهل.

تبعدُ قرية قرة كليسا عن أوج كليسا بمسافة تقدّر بـ ٢٤ ميلًا، والطّريق بينهما مستوٍ وجيّدٌ للغاية.

وأثناءَ تواجدي في هذه القرية التقيت بالليفتنانت لينج، والذي كان قادمًا من بغداد عن طريق أرضروم حاملًا رسائل عاجلة إلى حكام إيران.

غادرنا هذه القرية السّاعة الخامسة والنصف صباحًا، وكان الجوّ باردًا، والسماء كانت ملبّدة بالغيوم، وقد ظننت أنّها تتوعّدنا، ولكن لحُسن حظّنا انقشع الغمام، ومع مرور الوقت وقبل منتصف النهر أصبح الجوّ حارًّا للغاية.

وفي طريقنا صادفنا عدّة قوافل، وهكذا يكون مجموع حمولتها مع تلك التي قابلناها بالأمس حوالي ١٥٠٠ من الخيول المحمّلة بالبضاعة الأوروبّية إلى فارس.

وفي تمام السّاعة السابعة والنصف توقّفنا عند قرية كردية تسمى ملا عثمان؛ لتأمين إفطارنا، وقد نجحنا أخيرًا بعد صعوبة بالغةٍ الحصول على شيء من البيض والخبز والحليب، وذلك لأنّ القوافل التي مرّت من هنا قبلنا قد استنفذت جميع التّجهيزات والطعام الموجود بالقرية.

وبالقرب من هذه القرية كان يجري نهرُ شيريان صو الذي ينبع من الجبال المُحاذية لسهلٍ يحمل نفسَ الاسم إلى الغرب، ويصبّ في نهر مراد صو من خلال الفتحة الموجودة بين التّلال التي تحدثنا عنها سابقًا.

وفي السّاعة الثانية بعد الظّهر مررنا بقرية أخرى كردية تسمّى ملا سليمان، تبعدُ هذه القرية عن قرية كليسا بحوالي ١٨ ميلًا حسب تقديري.

سهلُ آريش كرد:

يمتدّ هذا السّهل حوالي ٢ أو ٣ أميال باتّجاه الغرب، ويمكن تقدير طوله الكلي من ضياء الدين بحوالي ٤٠ ميلًا، وبعمق يتراوح بين ٦ إلى ١٦ ميلًا، تربته خصبة وغنيّة، وماؤه وفير جدًّا، ويضمّ ٣٠ قرية، يوجد منها ثلاثُ قرى فقط مسكونة من قبَل الأرمن، أو أنّهم يشكّلون الغالبية في كلّ من: قرية قرة كليسا، وملا عثمان، ويشكلون نصف سكان قرية طوبراق قلعة، التي تضمّ ٢٠٠ بيتًا.

أمّا باقي سكّان السهل باستثناء القلعة المقيمين في أوج كليسا، فهُم من الكرد بشكلٍ كبير جدًّا، وقليلٌ جدًّا منهم من التراكمة.

وقرية ملا سليمان تضمّ نحْو ٣٥ أسرة، أمّا القرى الأخرى باستثناء ما ذكرنا اسمها فهي صغيرة جدًّا.

وهذا السّهل كبيرٌ جدًّا لدرجة أنّه قد يتّسع لضعف عدد القرى الموجودة به حاليًا سواء كانت كبيرة جدًّا أم صغيرة. وقد حزنت كثيرًا عندما رأيتُ هذا السهل الجميل الواسعَ والخصب مهجورًا بهذا الشكل المؤسف.

ويوجد- أيضًا- تحت السّلسلة الواطئة لجبال شيران داغ سهلٌ آخر، يقال إنّه يمتدّ ليصل إلى ملاذ كرد على مسافة ٣٦ ميلًا.

ومِن هذا المكان إلى خينيس فأنا أعتقدُ أنّ الريف عمومًا مستوي الأرضية، ومن المحتمل أنْ يكون ٢٤ ميلًا، وعلى هذا الأساس يبدو أنّ هناك سهلًا متواصلًا من خينيس إلى ضياء الدين لا تقلّ مساحته عن ١٠٠ ميل.

قلعة توبراك تعتبرُ هي المكانَ الرئيسي في هذا السّهل، ويديرها بيك من أبناء بهلول باشا، والمسافة بين هذه القلعة وبين قرية ملا سليمان تقدّر بنحو ٤ إلى ٥ أميال شرقًا، وتقع بالضبط في عتبة الجبل.

تلبّدت السّماء بالغيوم الداكنة، وانفجرت الغيوم بعد ذلك بالرّعد، واستمرّت الأمطارُ الغزيرة في الهطول لمدّة تزيد عن أربع ساعات، وفي المساء سقطت الأمطارُ بغزارة مرّة أخرى مسبّبة سيولًا جارفة لدرجة أنّ خيامنا قد ابتلّت، وكان من غيرِ المناسب نقلها من مكانها، ولذلك قرّرت خيولنا أنْ نستريح ليوم آخر، وكان هذا يناسبنا، فقد كانت فرصةً جيّدة ليستعيد الدكتور ديكسون صحّته، ويتهيأ للسفر الطويلِ القادم،

وذلك لأنّ العربات لا تستطيع اجتياز سلسلة الجبال التي تفصل بين سهلي آريش كيرد وباسين، ولم يكنْ لدينا خيارٌ آخر غير اجتياز هذه السلسلة.

مرّ بنا غلام- أي خادم- المفوّض السامي الإنجليزي في إيران حاملًا معه رسائلَ عاجلة في طريقه إلى أرضروم، ولقد وجدنا أنفسنا مضطرّين للقيام بمسيرة طويلة من ملا سليمان إلى ديلي بابا deli baba – أي البابا المجنون-، وقد كان سكّانُ القرى الموجودة على الطّريق مازالوا في مراعيهم حتّى هذا الوقت، ولذلك لم نستطعِ الحصول على الطّعام لنا ولماشيتنا من هناك.

وجدْنا أمامنا ممرّيْن عبرَ الجبال، ويجب أن نتّخذ واحدًا منها:

الطّريق الأوّل: يمتدّ عبر قرية تسمّى دهر dahar، وتسلكه القوافل بشكل دائم، وكذلك المسافرون، وذلك لأنّه مفتوح صيفًا وشتاءً.

أمّا الطّريق الثّاني: فيلتفّ حول كوسيه داغ، وهو نادرًا ما يسلكه المسافرون حتّى في فصل الصيف، حتّى أنّ القوافل لا تسلكه، كما أنّه يكون مغلقًا خلال فصل الشّتاء بسبب الثلوج، ولكنّه أقصر من الطريق الأوّل، ولكنه أيضًا أكثر وعورة منه، وبما أنّه غيرُ آمن فكثيرًا ما تتجنّبه القوافلُ والمسافرون.

ولكنّني بالرغم من جميع مساوئ الطريق الثاني إلّا أنّني اخترته لأنّه الأقصر والأقلّ التفافًا.

السّابع عشر من أيلول/ سبتمبر، عام ١٨٣٨

تقعُ قريةُ ملا سليمان مباشرة تحت قمّة كوسيه داغ، امتطينا جيادنا في الساعة السّادسة والنصف صباحًا، وبدأنا الصّعود على الفور، وقد سرنا تحت القمة مباشرة، والتي هي عبارة عن مخروط أجرد، وبسبب كوْنها نتوءًا يبرز من سلسلة جبلية شامخة في حدّ ذاتها، ولهذا السّبب بالذّات لم تنطبعْ في ذهني على كونها عالية جدًّا.

ولكنْ عندما تلمح من بعيدٍ جبل سيبان داغ، فتكون من بين القمم العالية، يبدو أنّ ارتفاعها لا يقلّ عن ٨٥٠٠ إلى ٩٠٠٠ قدم، ويذوب الثلجُ الذي على قمتها في فصل الصّيف، وقد كانت قمّته خالية منه في هذا الوقت.

ثمّ عبرنا الوادي المسمّى جات ديرسي عبر قريةٍ لم نرَ منها الآن شيئًا سوى موقعها وبعضِ أكوام الحجارة والأتربة. ورأينا عدّة وهادٍ تتّحد عند النهاية التي تقع فيها القرية، وفي بعض الشّعاب يتمركز بعضُ السّكان المحليّين باحثين عن فرصة جيّدة للسّطو على القوافل والمسافرين.

ويبدو أنّ هذا هو السبب وراء انهيار وضع القرية، والتخلّي عن سلوك هذا الطّريق. وقد سمعت أنّه قبل فترةٍ لا تتجاوز عام ١٨٣٣ كان أحدُ التّتار- أي مراسلي الباشا- قد سُلبَ بالقرب من مكانٍ يقع بالقرب من جات Chat، وكان يحمل بعضَ المجوهرات إلى فارس، وأثناء دفاعه عن نفسه جُرح، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الطّريق مهجورًا، ولم تعدْ تُذكر أيّ حوادث سلب، كما أنّ بعض الكرد أصبحوا أكثر انضباطًا بسبب تشديدِ الخناق عليهم أكثرَ من ذي قبل.

تركْنا قرية جات، وصعدنا إلى وادٍ ضيّق يجري خلاله جدول رقراق تنتشر على ضفافه شجيرات كثيفة وقصيرة، وفي قمّته عبرنا جسرًا صخريًّا، ثمّ نزلنا إلى وادٍ جميل آخرَ تتخلّله المراعي الجميلة، ولكنّه خال من القرى أو الزراعة.

إذا اتّبعنا هذا الوادي كنّا سنصلُ إلى قرية ديلي بابا، ولكن بما أنّ الطريق كان مباشرة فقدْ عبرنا سلسلة قصيرة لتقصير الطريق.

ثمّ مررنا بقرية كردية في أعلى الجبل تسمّى حاجي خليل لنهبط من على ديلي بابا التي وصلناها في الثّالثة بعد الظهر.

قرية ديلي بابا:

استغرقتْ مسيرتنا إلى هنا تسعَ ساعات دونَ توقّف، مع العلم أنّ المسافة لا تقلّ عن ٢٦ أو ٢٨ ميلًا، وبعد وصولنا بساعتين وصلت حقائبنا.

وبعد المرور بحاجي خليل أصبحتْ حالة الدكتور ديكسون أكثر سوءًا، وازداد شعورُه بالألم لدرجة أنّه لم يعدْ يستطيع أن يخطو خطوة واحدة، ولحُسن الحظّ استطعنا أن نوفّر له عربة من البساتين القريبة، حتّى ينقل إلى قرية ديلي بابا.

وفي الوقت الذي كنّا ننتظر فيه وصولَ حقائبنا استضافنا كتخدا القرية، وقدم لنا طعامًا ممتازًا جدًّا، وقد كان رجلًا متحضّرًا، بالإضافة إلى أنّه زودنا بكلّ ما نحتاج إليه دونَ أيّ متاعب.

يقيمُ في هذه القرية ٣٥ أسرة من الأرمن، ونظرًا للكميات الكبيرة من سنابل الحبوب الكبيرة هنا يمكن اعتبار وضع القرية الاقتصادي جيدًا جدًّا.

ولكنّهم قد اشتكوا لي الشّكوى المعتادة من القمع وارتفاع قيمة الضرائب، وقد أخبرني كتخدا القرية عن ندمِه على عدم لحاقه بالأرمن المهاجرين إلى جورجيا.

وقال لي- بكلّ سعادة- إنّه عرف مِن أشخاص زاروا هؤلاء المهاجرين من أبناء جلدتهم في جورجيا بأنّ الحكومة الروسية تعاملهم معاملةً حسنة للغاية، وأنّها سعيدة بالخطوة التي اتّخذوها بالهجرة إلى روسيا.

وهذه القرية هي إحدى ممتلكات سيلم بك، وهو ضابط في سلاح الخيالة بأرضروم، وهو يتلقّى كمالك للأرض مائة سومار من الحنطة، وهذا يعادل حوالي ١١٠٠ كيلة وينشترية (وهي وحدة وزن إنجليزية للحبوب والفاكهة)، وتضمّ هذه القرية قبرا تركيا، ويبدو أنّ القرية تسمّت نسبة إليه، ومبنى هذا القبر كبيرٌ نوعًا ما، وعندما يمرّ المتديّنون المسلمون من هناك يقفون لقراءة الفاتحة والصلاة.

ولكنّ الأرمن لا يعرفون أيّ شيء عن صاحب هذا القبر، ولهذا لم نعرف أيّ معلومات عن صاحب القبر، أو أصل تسمية القرية، وقد علمت أنّ نهر آراس يقع على بُعد ساعتين عن شمال هذه القرية.

الثّامن عشر من أيلول/ سبتمبر، عام ١٨٣٨

تركنا قرية ديلي بابا، ثمّ سرنا عبر الوجه المتموّج للسّهل، وعلى بعد ساعتين اجتزنا قريةً تسمّى باتان كوي، ومن جهة اليمين إلى أسفلها يجري نهر آراس.

وعلى الطّرف المقابل من هذا النّهر تقع قصبة خراسان التي تلوح لنا من بعيد، ومِن خلالها يتعرّج الطّريق المتّجه إلى قارص.

ثمّ سرنا لمسافة أبعدَ بقليل حتّى وصلنا قرية يوزفيرين، ومن هناك حصلنا على بعضِ الطعام، وعلى بُعد نصف ساعة منها باتّجاه الخلف مررنا بقرية تسمّى قوماسور، وبعدها بقليل دخلنا قرية ميندفين، وواصلنا سيْرنا حتّى وصلنا إلى:

قرية إيمراكوم:

نصبْنا خيامنا في هذه القرية، وقد قدّرت المسافة المقطوعة في مسيرة اليوم بـ ١٨ ميلًا، وقطعنا هذه المسافة في ستّ ساعات ونصف الساعة.

في هذا اليوم وصلنا مراسلٌ من مستر سويثر، الذي سمع بوصولنا إلى القرية، فصمّم على مقابلتنا في حسن قلعة، وفي الصّباح الباكر امتطينا جيادنا، وبعد ساعة ونصف سيرًا وصلنا إلى كوبري كوي- أي جسر القرية- عبر جسرٍ صخريّ يسمّى جوبان كوبري- أي جسر الرّاعي- الذي يقطع نهر آراس.

وقد علمت أنّه في الرّبيع الماضي جرّفت السيول جزءًا من هذا الجسر، وهو الآن تحتَ التّرميم، والجزء المرمّم بني من الصخر، ولكنه انهارَ هو الآخر فور الانتهاء من بنائه، وهذا إمّا بسبب خللٍ في الأسس أو بسبب أنّ الجليد حلّل الخلطة الأسمنتية قبل أن تجفّ.

ويمرّ كلّ من نهري بينكول سو وحسن قلعة من خلال قناطر مختلفة، ثمّ يتّحدا تحت جسر الراعي.

وقد خضْنا هذا النّهر بعد اتحاد الفروع، وكان عرضُه يصل إلى أكثر من مائة ياردة، كما أنّه كان في عمقه يصلُ إلى سرج الجيل. ومن كوبري كوي إلى حسن قلعة، قطعنا المسافة في ساعتين ونصف، وقدّرت هذه المسافة من إيمراكوم بـ ١٢ ميلًا.

نصبْنا خيامنا في نفس المكان الذي نصبناها فيه سابقًا بالقرب من الحمامات، وبعد نصبِ خيامنا بقليل جاءنا المستر سوتير ورفاقه.

خلالَ الليل تعرّضنا لعملية سطو، فسلبت من الدكتور ديكسون ملابسه، وفقد المستر كلاس كوت ملابسَه وأدواتِ المسح التي كانت بحوزته، وأخبرنا بيك المنطقة بهذه السّرقة، ولكننا لم نستفدْ أيّ شيء، وذلك لأنّ اللّصوص كانوا مهرة وشجعانًا؛ فأرخوا أحبالَ الوتد، وسحبوا أشياءنا من تحتها، وقد كان أهمّ هذه المسروقات سريرَ المستر كلاس كوت، ومع ذلك فلم يسمعْ أيّ شيء هو أو أيّ شخص من فريقنا، كما لو أنّ هذه السرقة كانت خفيّة، ولم تكشف هذه السرقة إلّا في الصباح اليوم التالي؛ حتّى أنّ الحارسيْن اللّذين كانا يحرسان بابَ الخيمة طوال الليل لم يشعرا بشيء أيضًا، وهذا غريبٌ للغاية، فإمّا أنهما كانا نائمين أو أنّهما كانا متعاونين مع اللّصوص.

وبعدَ شهور من هذه الحادثة استعدْنا الجزء الرئيسي من السّرقة عن طريق بيك المنطقة من خلال طلب قدّم إلى الباشا.

قضيْنا اليوم السّابق في الاستراحة والتمتّع بالاستحمام، وفي هذا الصباح عدْنا أخيرًا إلى أرضروم، وقبل أن ندخل المدينة بقليل قابلني أصدقائي ومعارفي من أبناء أرضروم للتّرحيب بي، وكذلك بعض الأوروبيّين، واستقبلني أيضًا ضابط ومجموعة من وجوه الولاية، جاءوا للتّرحيب بي بالنّيابة عن الباشا ولتهنئتي بعودتي سالمًا.

مذكرةٌ بخصوص خريطة كردستان

السّيد ر. ن. جلاسكوت

إنّ خريطة كردستان بمقياس (٦ بوصة) للدّرجة، رغم أنّها غير مؤهّلة لتعتبر وثيقةً دقيقة تمامًا، لكنّني أعتقد أنّه ستوجد الثّقة الكافية لإيضاح جغرافية بقعة البلاد التي تحيطها.

وكانت الأدواتُ المتاحة لي هي:

مقياس الزوايا Theodolite

ميقاتي للجيب Pocket Chronometer

تفضّل بإعطائها لي Lieut.Graves الملازم أول جريفز، وهو الآن قائد معاينة الأرخبيل اليوناني.

ومقياس ارتفاع النجوم Sextant، من Cary كاري، تدريجه مقسم (١٥) درجة.

والخريطة مؤسّسة على أساس ٢٢ موضعًا فلكيًّا، ومن بينها Latitudes مخطوطُ العرض لثلاث عشرة منها، مستنتجة من ملاحظات النجم القطبي، وتمّ حساباتها تبعًا للقاعدة المنشورة في Nautical Almanac التقويم البحري، وثلاث تمّ استنتاجها من متوسط الطريق المذكورة أعلاه، وAltitudes of the sun ارتفاعات الشّمس حول الظهر، واثنان مشتقّان من ارتفاعات الشمس حول الظّهر فقط، وواحد (يخصّ بايزيد) من الارتفاعات المتساوية لنفس الجسم، والذي يجبُ اعتباره مجرّدَ تقريب. والتقريباتُ الثلاثة الأخرى وهي ميزيريه Mezirah وشيفلي Cheveli

وخاص كوي Khass Koi، تمّ استنتاجها من ملاحظات الشّمس بعيدًا عن الزّوال (الظهر).

وتمّ قياس The meridian Ditances الأبعد الزوالية- الظهرية- بواسطة الكورونومتر- الميقاتي- وتطبيقها على أرضروم، باتّخاذ خطّ عرض ذلك المكان، والمستنتج من ملاحظات ضباط الفريق الرّوسي الملكي- الإمبراطوري- باعتبارها صحيحة.

والمسارُ مكوّن من Magnetic Bearings الاتجاهات المغناطيسية المأخوذة عند كلّ Theodolite انحراف أو انعطاف للطريق، والمصححة بالنسبة Variation للتفاوت، والمسافات مستنتجة من التّسجيل الزمني الدقيق عند وصولي لكلّ مكان ورحيلي عنه.

ورغمَ عدم أخذي أيّ ملاحظات فلكية في الطريق من موش إلى ميزيره، لكنّ كتابَ الطريق معي أعطي خطّ عرض المكان الثاني في دقيقة واحدة، وDistances خطّ الطول ضمن سبعة من المواضع الفلكية، وهذه الأخطاء قمتُ بتطبيقها بشكلٍ تناسبي على كلّ موقع لوحظت منها الاتجاهات والمسافات.

وهكذا، فالتّغير في مواضع بعض البلدان على هذا المسار، خلال القيام بذلك؛ كان غيرَ ملحوظ غالبًا، وحينما كانت المسافات خلال كتاب الطريق معي بها قصورٌ بين موضعيْن محدّديْن فلكيًا كنت باستمرار أتّخذ طريقة التناسب المشار لها سابقًا.

وعندَ الإشارة للخريطة، سوف يلاحظ أنّ نسبة كبيرة من طريقنا حول بحيرة فان كانت ملازمةً لشواطئها، وفي حالات كثيرة قريبة جدًّا بحيث أتمكن من رسم انحناءاتها بدقّة معقولة، وكانت لديّ فرصة لأنْ أتأكّد من قمة Sapan Tagh جبل سابان من تضاريس تلك الأجزاء التي منعني من زيارتها اتجاه الطريق.

والحصول على مماسات أو ظلال النقاط الرئيسية والانحناءات بالخلجان، بحيث يكون الشّكل الكلي العام للبحيرة قد تأكّد بدرجة مقبولة.

والمسافات الزّوالية (الظهرية) للمواقع على شواطئ البحيرة بالنسبة لمنطقة فان، جديرة بنوعٍ من الثّقة لأنّ فرق خطوط الطول على الكرونوميتر- الميقاتي- وبين الجيفاز- وهي آخرُ محطّة لاحظت فيها- ينطبق في حدود ٣٠ درجة عن ذلك المستنتج عن خطوط عرضها Latitudes وعن Azimuth زاوية السمت- الفلكية-.

وموضعُ قمّة جبل سابان تأكّد خلال زوايا السمت المأخوذة في Van فان، Arnis أرنيس، Ardish أرديش، ولكن لأنّ مقياس الزوايا لدي كان غير دقيق؛ فكان عليّ استبعاد استخدامه في جدول المواقع الفلكية.

أرضروم في ١٥ يوليو ١٨٣٩.

السيد ر. ن. جلاسكوت

الجيش الملكي

A.G. Mr.Glascott

.Royal Navy

المركز الثقافي الآسيوي

• مؤسّسة بحثيّة مستقلّة، تتبع جمعية خريجي معهد الدّراسات والبحوث الآسيوية، تخضع لقانون الجمعيّات الأهلية المصري، مُشْهرة في وزارة التضامن الاجتماعي برقم ١٣٢٨ لسنة ٢٠٠٢م.

• يتكوّن المركز الثقافي الآسيوي من الوحدات التالية:

١) وحدة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية.

٢) وحدة الدّراسات الإيرانية.

٣) وحدة الدّراسات التركية والعثمانية.

٤) وحدة الدّراسات الأرمنية والقوقازية.

٥) وحدة الدّراسات اليهودية والإسرائيلية.

٦) وحدة دراسات الشّرق الأقصى.

٧) وحدة دراسات الفنون والتّراث.

٨) وحدة دراسات تركستان الشّرقية- شينجيانج

• يهدف المركزُ الثقافي الآسيوي إلى عمل البحوث والدّراسات المتعلّقة بقارة آسيا في النّواحي التّاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكافّة النواحي الحضارية.

• يعمل المركزُ الثقافي الآسيوي على طباعة ونشر الدّراسات التي تنتجها وحداته المختلفة، كذلك الدّراسات التي يتقدّم بها الباحثون المتخصّصون في مجال اهتمامات وحدات المركز.

• يقوم المركز الثقافي الآسيوي بترجمة الإصدارات العالميّة الخاصّة بقارة آسيا وإصدارها في نشرات خاصّة.

• يسعى المركزُ الثقافي الآسيوي إلى إصدار عدّة سلاسل من الكتب والدوريات المتخصّصة، والتي تخدُم الدّراسات الآسيوية خاصّة، والثقافة الإنسانية بشكل عام.

• يمدّ المركزُ الثقافي الآسيوي يدَ التعاون للباحثين والمراكز البحثية والهيئات العلمية الأخرى؛ للقيام بالأنشطة العلميّة والندوات والمؤتمرات وعمل الأبحاث ونشرها.

harpgeneration@yahoo.com

(٠٠٢) ٠١٢٢٩٣٦٥٣٤٨

Bartan
KASTAMUNI
BOI ABAD
ÖSMANJIK
KANKARI
CHURUM
Amâsiyah
Zileh
Hasan Tagh
Karaman
Tarsus
G. of Iskenderun
Antioch
ALEPPO
Aintab

B L A C K S E A
Amasiyah
Niksar
Zilleh
Erzingan
Malatiyah
DIYAR-BEKR
Aintab
ALEPPO or Haleb

ASIA MINOR & ARMENIA,
to illustrate routes of
MR. AINSWORTH, MR. BRANT,
MR. SUTER, &
LORD POLLINGTON.
1840.
ERZ-RUM
BITLIS
VAN
BÁ-YAZID
Lit. Ararat
DIYÁR-BEKR
Hekkáriyeh Kurds
Jeziráh ibn Omar
Sinjar
Arbil

Bartan
KASTAMUNI
BOI-ABAD
Bafira
ÓSMANJIK
ISKELIB
KANKARI
Amásiyah
Zilleh
Tokát
Siva
Hasan Tagh
Kará Bunár
Kará-tágh
Karaman
Tarsus
Adanah
G. of Iskenderún
Antioch
ALEPPO
Aintab
Ladik
Ereğli
St. Argæus or Arjish Tágh
Bulghar

B L A C K S E A
Niksar
Amásiyeh
Zilleh
Tokat
Kará Hisár
Erzingan
Dâjik Tâgh
Malatiyeh
DIYÁR-BEKR
Aintab
ALEPPO or Haleb
R. Euphrates

ASIA MINOR & ARMENIA,
to illustrate routes of
Mr. AINSWORTH, Mr. BRANT,
Mr. SUTER, &
LORD POLLINGTON.
1840.
The eastern portion of the Map from observations by
Mr. A. G. Glascott. R.N.
ERZ RUM
BĀ YAZID
BITLIS
DIYĀR-BEKR
Hekkāriyeh Kurds
Jezirah ibn Omar
Sinjar
Arbil
Kars
Varak Tāgh